

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ

١٧٥

التعليق على نور اليقين في سيرة سيد المرسلين ﷺ

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين



من إصدارات

مؤسسة الشيخ

محمد بن صالح العثيمين

الخيرية



التعليق على

نور اليقين

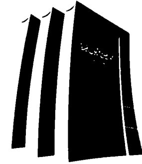
في سيرة سيد المرسلين

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية ، ١٤٣٨هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين ، محمد بن صالح
التعليق على نور اليقين في سيرة سيد المرسلين ./ محمد بن صالح
العثيمين - ط١ - القصيم ، ١٤٣٨هـ
١٤٣ ص ؛ ١٧×٢٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين : ١٧٥)
ردمك : ٥ - ٤٤ - ٨٢٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١- السيرة النبوية . أ- العنوان
ديوي : ٢٣٩ ٢٣٠ / ١٤٣٩

رقم الإيداع: ٢٣٠ / ١٤٣٩
ردمك: ٥ - ٤٤ - ٨٢٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٣٩هـ

يُطلب الكتاب من:
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
المملكة العربية السعودية
القصيم - عنيزة - ٥١٩١١ ص . ب : ١٩٢٩
هاتف : ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ - ناسوخ : ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩
جوّال : ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧ - جوّال المبيعات : ٠٥٠٠٧٣٣٧٦٦
www.binothaimeen.net
info@binothaimeen.com



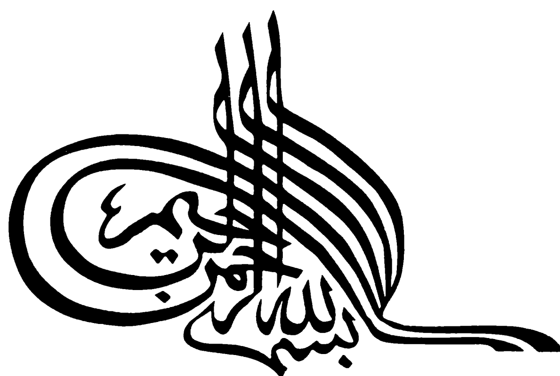
الموزع المعتمد و الحصري في جمهورية مصر العربية
دار الدُّرَّة الدولية للطباعة و التوزيع
١٣٥ شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - الحي الثامن - بجوار مدارس المنهل الخاصة .
هاتف و فاكس : ٢٢٧٢٠٥٥٢ - محمول : ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٧٥)

التعليق على نور اليقين في سيرة سيد المرسلين

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية


بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

إنَّ الحمدَ لله، نَحمدُهُ ونَسْتعينُه ونَسْتغفرُه، ونَعوذُ بالله من شُرور أَنْفُسنا ومِن سيِّئات أعمالِنا، مَن يَهْده اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فَلا هادِيَ له، وأَشْهَد أنْ لا إِلَهَ إلا الله وحدَه لا شَريكَ لَه، وأَشْهَد أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، أرسلَه اللهُ بالهُدَى ودِين الحقِّ؛ فبلَّغَ الرِّسالة، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَح الأمَّة، وجاهَد في الله حقَّ جِهادِه حتَّى أتاهُ اليَقينُ، فصَلواتُ الله وسلامُه عليهِ، وعلَى آلِه وأصحابِه، ومَن تَبِعهم بإحسانٍ إِلَى يومِ الدِّين.

أَمَّا بَعْدُ: فلقَدْ كانَ لفضِيلةِ شيخِنا العلَّامة محمَّد بنِ صالحِ العُثَيْمين -رحمَهُ اللهُ تعالَى- جُهُودٌ مُوفَّقةٌ وسَعْيٌ حَثِيثٌ يظهرُ جليًّا في دُرُوسِه وفَتاواهُ ولقاءاتِه، وَيَهْدِفُ إِلَى تَوجيهِ الطُّلابِ لِقراءةِ المُؤلَّفات المُهْتمَّة بدِراسةِ السِّيرةِ النَّبويَّةِ الشَّريفةِ؛ لِمعرفةِ هَدْيِ الرَّسول ﷺ والاِقتِدَاءِ بِه والتَّأسِي بسُنَّتِه.

ومِن ذَلِك تِلكَ الدُّروسُ العلميَّةُ التِي عَقَدَها فَضيلتُه -رحمَهُ الله تعالى- في جامعِه بمَدِينة عُنيزة عامَ (١٤١٩هـ)-، في التَّعليقِ على كتابِ (نُور اليَقِين في سِيرةِ سيِّدِ المُرسَلِين) لمُؤلِّفه الشَّيخ القاضِي مُحمَّد بْن عفِيفي البَاجُورِي، المَعْروف بِالشَّيخِ الخُضَرِيِّ، المتوفَّى بالقاهرةِ عامَ (١٣٤٥هـ)[1]، تغمَّده اللهُ بواسِع رحمَتِه ورِضوانِه

(١) تخرَّج في مَدرسة دارِ العُلُوم بالقاهرة، ثُم قاضيًا في الخُرطوم ثُم عمِلَ مدرِّسًا في مدرسة القضاء الشرعي بالقاهرة، ثُم أستاذًا للتاريخ الإسلامي في الجامعة المصرية، فوكيلًا لمدرسة القضاء الشرعي، فمُفتِّشًا بوزارة المعارف المصريَّة.
انظر ترجمته في: الأعلام للزركلي (٦/ ٢٦٩)، معجم المؤلفين لكحالة (٣/ ٤٩٠).

وأسكَنَه فَسِيحَ جنَّاتِه؛ وقَد بَلَغَ فَضيلتُه -رحمَهُ الله تعالى- في هَذا التَّعليقِ إِلى كَلام المؤَلِّف -رحِمَهُ اللهُ تَعالَى- عَلى وُصُول النَّبيِّ ﷺ إلَى المَدينَةِ.

وسعيًا لتَعْمِيم النَّفع بهذِهِ الدُّرُوس، وإنفاذًا للقَواعد والضَّوابط والتَّوْجيهات التِي قرَّرها شيخُنا -رحمَهُ اللهُ تَعالَى- لإخراجِ تُراثِه العِلْميِّ باشَر القِسمُ العِلميُّ بالمؤسَّسة تَهْيئةَ وقائعِ الدُّروس المُسجَّلة صوتيًّا، وتَجْهيزَهَا للطِّباعة وتقديمَها للنَّشر.

نَسْأَلُ اللهَ تعالَى أنْ يَجْعلَ هَذا العَمَلَ خالِصًا لِوَجْهِه الكَريمِ؛ نافِعًا لعِبادِه، وأنْ يَجزِيَ فَضِيلةَ شيخِنا عَنِ الإسلامِ والمُسلمِينَ خَيْرَ الجَزَاء، ويُضَاعِفَ لهُ المَثُوبَةَ والأَجْرَ، ويُعْلِيَ دَرَجَتَهُ في المَهْدِيِّينَ، إِنَّه سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

وَصَلَّى اللهُ وسلَّم وبارَك علَى عَبدِه ورَسولِه، خاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإِمامِ المُتَّقِينَ، وسيِّدِ الأوَّلينَ والآخِرينَ، نبيِّنَا محمَّدٍ، وعلَى آلِه وأَصْحابِه والتَّابعينَ لـهُمْ بإِحْسانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّين.

القِسْمُ العِلْمِيُّ

فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ

٢٣ شَوَّال ١٤٣٨هـ



نُبْذَةٌ مُخْتَصَرَةٌ عَنْ
فَضِيلَةِ الشَّيْخِ العَلَّامَةِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ العُثَيْمِين
١٣٤٧- ١٤٢١هـ



نَسَبُهُ وَمَوْلِدُهُ:

هُو صاحِبُ الفضِيلةِ الشَّيخُ العالِمُ المحقِّق، الفَقِيه المفسِّر، الوَرِع الزَّاهد، مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ آل عُثَيْمِين مِنَ الوهبَةِ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ.

وُلِد فِي ليلةِ السَّابعِ والعِشرينَ مِن شَهرِ رمَضانَ المبارَك، عامَ (١٣٤٧هـ) فِي عُنَيْزَةَ -إحدَى مُدن القَصِيم- فِي المملَكةِ العَربيَّةِ السُّعُوديَّةِ.

نَشْأَتُهُ العِلْمِيَّةُ:

أَلحقَهُ والدُه -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- لِيتعلَّمَ القُرآنَ الكَرِيمَ عندَ جَدِّه مِن جِهةِ أُمِّه المعلِّم عَبْد الرَّحمن بن سُلَيمان الدَّامِغ -رَحِمَهُ اللهُ-، ثمَّ تعلَّم الكِتابةَ، وشيئًا مِن الحِسابِ، والنُّصُوص الأَدبيَّة؛ فِي مدرسةِ الأُستاذ عَبْدالعزيزِ بن صالِحٍ الدَّامِغ -رَحِمَهُ اللهُ-، وذلكَ قبلَ أنْ يَلْتَحِقَ بمَدْرسة المعلِّم عليِّ بنِ عَبْدالله الشّحيتان -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- حيثُ حَفِظَ القُرآنَ الكَرِيمَ عندَه عن ظَهْرِ قَلْبٍ ولمَّا يتجاوز الرَّابعةَ عَشْرَةَ مِن عُمُره بَعْدُ.

وبتَوْجيهٍ مِن والدِهِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أَقْبَلَ علَى طلَب العِلم الشَّرعيِّ، وكانَ فضيلةُ الشَّيخِ العلَّامةُ عَبْدُ الرَّحمن بنُ ناصرٍ السّعْديُّ -رَحِمَهُ اللهُ- يُدرِّس العُلوم

الشَّرعيَّة والعَربيَّة فِي الجامِع الكَبير بعُنَيْزَة، وقَد رَتَّب اثنَيْنِ[١] مِن طَلَبته الكِبار لِتَدريسِ المُبتدِئينَ مِنَ الطَّلَبة، فانضَمَّ الشَّيْخُ إِلَى حَلقةِ الشَّيْخ محمَّدِ بنِ عَبْد العزيزِ المطوّع -رَحِمَهُ اللهُ- حتَّى أَدْرَكَ مِنَ العِلم -فِي التَّوْحِيد، والفِقه، والنَّحو- ما أَدْرَكَ.

ثُمَّ جَلَس فِي حَلقة شَيْخِه العلَّامَة عَبْد الرَّحمن بنِ ناصرٍ السّعْديِّ رَحِمَهُ اللهُ، فدرَس عليه فِي التّفسِير، والحَديث، والسِّيرة النَّبويَّة، والتَّوحِيد، والفِقه، والأُصول، والفَرائِضِ، والنَّحْو، وحَفِظَ مُخْتَصراتِ المُتُونِ فِي هذِهِ العُلُوم.

ويُعَدُّ فضيلةُ الشَّيْخ العلَّامَة عَبْدُ الرحمن بنُ ناصرٍ السّعْديُّ -رَحِمَهُ اللهُ- هُو شيخَه الأوَّلَ؛ إِذْ أخذ عَنْهُ العِلْمَ -مَعْرفةً وطَرِيقةً- أَكْثَرَ مِمَّا أخذ عَنْ غَيرِهِ، وتَأَثَّر بمَنْهجِه وتَأصِيلِه، وطَرِيقةِ تَدْرِيسِه، واتِّباعِه لِلدَّليل.

وعِندَما كانَ الشَّيْخُ عَبْدُ الرحمن بنُ عليِّ بن عـودانَ -رَحِمَهُ اللهُ- قـاضيًا فِي عُنَيْزَةَ قـرَأ عليه فِي عِلم الفَرائضِ، كما قَـرأ عَلَى الشَّيْخ عَبْدِ الـرَّزَّاقِ عَفِيفِي -رَحِمَهُ اللهُ- فِي النَّحو والبَلاغَة أَثناءَ وُجودِه مُدَرِّسًا فِي تِلكَ المَدِينة.

ولَمَّا فُتِحَ المَعْهَدُ العِلْمِيُّ فِي الرِّياضِ أَشارَ عليه بعضُ إِخْوانِه[٢] أَنْ يَلْتَحِقَ بِهِ، فاستَأْذَنَ شيخَه العلَّامةَ عَبْدَ الرَّحمنِ بنَ ناصرٍ السّعْدِيَّ -رَحِمَهُ اللهُ- فَأَذِنَ له، والتَحَق بالمَعْهَدِ عامَيْ (١٣٧٢-١٣٧٣هـ).

ولقَدِ انتفعَ -خلالَ السَّنتَيْن اللَّتَيْن انتظَم فِيهما فِي مَعهدِ الرِّياضِ العِلْمِيِّ- بالعُلماءِ الَّذِين كانُـوا يُدرِّسـونَ فِيه حِـينذَاكَ، ومِنْهُمُ: العـلَّامَةُ المُفَسِّـرُ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ الأَمِين الشّنْقِيطِيُّ، والشَّيْخُ الفَقِيه عَبْدُ العزيزِ بنُ ناصرِ بنِ رشيدٍ، والشَّيْخُ المُحدِّثُ عَبْدُ الرحمنِ الإِفْرِيقِيُّ -رَحِمَهُمُ اللهُ تَعالَى-.

---

(١) هما الشَّيْخان محمد بن عَبْد العزيز المطوع، وعلي بن حمد الصالحي رحمهما الله تَعالَى.

(٢) هو الشَّيْخ علي بن حمد الصَّالحي رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى.

وفِي أَثْناءِ ذَلكَ اتَّصلَ بسَماحةِ الشَّيْخِ العلَّامةِ عَبْدِ العزيزِ بنِ عَبْدِ الله بنِ بَازٍ -رَحِمَهُ اللهُ-، فقرَأ عليه فِي المسجِد: مِن صَحِيح البُخارِيِّ، ومِن رَسائِل شَيخِ الإسلامِ ابنِ تَيْمِيَّةَ؛ وانتفَع به فِي عِلم الحَدِيث، والنَّظر فِي آراءِ فُقهاءِ المَذاهِب والمُقارَنةِ بينَها، ويُعدُّ سماحةُ الشَّيْخِ عَبْدُ العزيزِ بنُ بازٍ -رَحِمَهُ اللهُ- هو شَيْخَهُ الثَّانِي فِي التَّحْصِيلِ والتَّأَثُّرِ بِهِ.

ثُمَّ عادَ إلَى عُنَيْزَةَ عامَ (١٣٧٤هـ)، وصارَ يَدْرُسُ علَى شَيْخِهِ العلَّامةِ عَبْدِ الرَّحمنِ بنِ ناصرٍ السّعْدِيِّ، ويُتابِعُ دِراسَتَهُ انتِسَابًا فِي كُلِّيَّةِ الشَّرِيعَةِ، الَّتِي أَصْبَحَتْ جُزْءًا مِنْ جامِعَةِ الإمامِ مُحَمَّدِ بنِ سُعُودٍ الإسْلامِيَّةِ، حتَّى نالَ الشَّهادَةَ العالِيَةَ.

تَدْرِيسُهُ:

تَوَسَّمَ فِيهِ شَيْخُهُ النَّجابَةَ وسُرْعةَ التَّحْصِيلِ العِلْمِيِّ فشَجَّعَهُ علَى التَّدرِيسِ وهُوَ ما زالَ طَالِبًا فِي حَلقتِه، فبَدَأَ التَّدرِيسَ عامَ (١٣٧٠هـ) فِي الجامِعِ الكَبِيرِ بعُنَيْزةَ.

ولَمَّا تَخَرَّجَ فِي المَعْهَدِ العِلمِيِّ فِي الرِّياضِ عُيِّنَ مُدَرِّسًا فِي المَعْهَدِ العِلمِيِّ بعُنَيْزَةَ عامَ (١٣٧٤هـ).

وفِي سَنَةِ (١٣٧٦هـ) تُوُفِّيَ شَيْخُهُ العلَّامةُ عَبْدُ الرَّحمنِ بنُ ناصرٍ السّعْدِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- فتوَلَّى بعدَه إمامَةَ الجامعِ الكَبيرِ فِي عُنَيْزَةَ، وإمامَةَ العِيدَيْنِ فِيها، والتَّدْرِيسَ فِي مكتبةِ عُنَيْزَةَ الوَطَنِيَّةِ التَّابعةِ لِلجامعِ؛ وهِي التِي أَسَّسَها شيخُه -رَحِمَهُ اللهُ- عامَ (١٣٥٩هـ).

وَلَمَّا كَثُرَ الطَّلَبةُ، وصارَتِ المكتبةُ لا تَكْفِيهِم؛ بدَأ فَضِيلةُ الشَّيْخِ -رَحِمَهُ اللهُ- يُدرِّسُ فِي المسجِدِ الجامعِ نَفْسِهِ، واجتمَعَ إلَيْهِ الطُّلَّابُ وتَوافَدُوا مِنَ المملكَةِ وغيرِها؛ حتَّى كانُوا يَبْلُغونَ المِئاتِ فِي بعضِ الدُّرُوسِ، وهؤلاءِ يَدْرُسُونَ دِراسَةَ

تَحصيلٍ جادٍّ، لَا لِمُجرَّدِ الاستماعِ. وبَقِيَ علَى ذَلكَ -إمامًا وخَطيبًا ومُدرِّسًا- حتَّى وفاتِهِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى-.

بَقِيَ الشَّيْخُ مُدرِّسًا فِي المَعْهَدِ العِلْمِيِّ مِن عامِ (١٣٧٤هـ) إلَى عامِ (١٣٩٨هـ) عندَما انتقَلَ إلَى التَّدرِيسِ فِي كُلِّيَّةِ الشَّريعَةِ وأُصُولِ الدِّينِ بِالقَصِيمِ، التَّابِعَةِ لجامِعةِ الإمامِ مُحَمَّدِ بنِ سُعُودٍ الإِسلامِيَّةِ، وظَلَّ أُستاذًا فِيها حتَّى وفاتِه -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى-.

وكانَ يُدرِّسُ فِي المسجِد الحَرامِ والمسجِد النَّبَوِيِّ، فِي مَواسِم الحَجِّ ورمَضانَ والإِجازاتِ الصَّيفِيَّة، مُنذُ عامِ (١٤٠٢هـ) حتَّى وفاتِهِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى-.

وَللشَّيْخِ -رَحِمَهُ اللهُ- أُسلوبٌ تَعْليمِيٌّ فَريدٌ فِي جَودتِهِ ونَجاحِهِ، فهُو يُناقِشُ طُلَّابَهُ ويَتقبَّلُ أسئِلَتَهُم، ويُلقِي الدُّرُوسَ والمُحاضَراتِ بِهِمَّةٍ عالِيَةٍ ونَفْسٍ مُطْمَئِنَّةٍ واثِقَةٍ، مُبْتَهِجًا بنَشْرِهِ لِلعِلْمِ وتَقْرِيبِهِ إلَى النَّاسِ.

آثارُهُ العِلْمِيَّةُ:

ظَهَرَتْ جُهُودُهُ العَظِيمةُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- خِلالَ أَكْثَرَ مِن خَمسِينَ عامًا مِنَ العَطاءِ والبَذْلِ فِي نَشْرِ العِلْمِ والتَّدْرِيسِ والوَعْظِ والإِرْشادِ والتَّوْجِيهِ وإِلْقاءِ المُحاضَراتِ والدَّعْوةِ إلَى اللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعالَى-.

ولقَدِ اهتَمَّ بالتَّأْلِيفِ، وتَحريرِ الفَتاوَى والأَجْوبة، التِي تَمَيَّزَتْ بالتَّأصِيلِ العِلْمِيِّ الرَّصِينِ، وصدَرتْ لَهُ العَشَراتُ مِنَ الكُتُبِ والرَّسائِلِ والمُحاضَراتِ والفَتاوَى والخُطَبِ واللِّقاءاتِ والمَقالاتِ، كَما صدَرَ لَهُ آلافُ السَّاعاتِ الصَّوْتِيَّةِ التِي سَجَّلَتْ مُحاضَراتِه وخُطَبَهُ ولِقاءاتِهِ وبرامِجَهُ الإِذاعِيَّةَ ودُرُوسَهُ العِلْمِيَّةَ؛ فِي تَفْسِيرِ القُرْآنِ الكَرِيمِ، والشُّرُوحاتِ المُتميِّزَةِ لِلحَدِيثِ الشَّرِيفِ والسِّيرَةِ النَّبوِيَّةِ، والمُتُونِ والمَنْظُوماتِ فِي العُلُومِ الشَّرْعيَّةِ والنَّحْوِيَّةِ.

وَإنفاذًا لِلقَـواعِدِ والضَّـوابِطِ والتَّوْجِيهاتِ التِي قَرَّرهـا فَضيلتُهُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- لِنَشْرِ مُؤلَّفاتِه، ورَسائِله، ودُرُوسِه، ومُحاضراتِه، وخُطبِه، وفَتاواهُ، ولقاءاتِه؛ تَقُـوم مُؤسَّسةُ الشَّيْخ مُحَمَّدِ بنِ صالِحِ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةُ -بعَوْنِ اللهِ وتَـوْفِيقِه- بوَاجِبِ وشَرَفِ المَسْؤُوليَّةِ لإِخْراجِ كافَّةِ آثارِهِ العِلْمِيَّةِ والعِنايَةِ بِهَا.

وبِناءً علَى تَوْجِيهاتِه -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أُنْشِئَ لَهُ مَوقِعٌ خاصٌّ علَى شَبَكَةِ المَعْلُوماتِ الدَّوْلِيَّةِ(١)، مِن أَجْلِ تَعْمِيمِ الفائِدَةِ المَرجُوَّةِ -بعَوْنِ اللهِ تَعَالَى-، وتَقدِيمِ جَمِيعِ آثارِهِ العِلْمِيَّةِ مِنَ المُؤلَّفاتِ والتَّسْجِيلاتِ الصَّوْتِيَّةِ.

أَعْمَالُهُ وجُهُودُهُ الأُخْرَى:

إِلَى جانِبِ تِلكَ الجُهُودِ المُثْمِرَةِ فِي مَجالاتِ التَّدْرِيسِ والتَّأْلِيفِ والإِمامَةِ والخَطابَةِ والإِفْتاءِ والدَّعْوةِ إِلَى اللهِ -سبحانه وتَعَالَى- كانَ لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ أَعمالٌ كَثيرةٌ مُوَفَّقَةٌ مِنْهَا:

- عُضوًا فِي هَيْئة كِبارِ العُلماء فِي المَمْلكةِ العربيَّةِ السُّعوديَّة، مِن عام (١٤٠٧هـ) حتَّى وفاته.
- عضوًا فِي المَجلِس العِلمِيِّ بجامِعةِ الإمامِ مُحَمَّدِ بنِ سُعُودٍ الإسلاميَّةِ، فِي العامَيْنِ الدِّرَاسِيَّيْنِ (١٣٩٨-١٤٠٠هـ).
- عضوًا فِي مَجْلِسِ كُلِّيَّةِ الشَّرِيعةِ وأُصُولِ الدِّينِ، بفَرْعِ جامِعةِ الإمامِ مُحَمَّدِ بنِ سُعُودٍ الإسلاميَّةِ فِي القَصِيمِ، ورَئِيسًا لِقِسْمِ العَقِيدةِ فِيها.
- وفِي آخِرِ فَترةِ تَدريسِهِ بالمَعْهَدِ العِلْمِيِّ شارَكَ فِي عُضويَّةِ لجْنَةِ الخِطَطِ والمَناهِجِ لِلمَعاهِدِ العِلْمِيَّةِ، وأَلَّفَ عَدَدًا مِنَ الكُتُبِ المُقَرَّرَةِ فِيهَا.

---

(١) www.binothaimeen.net

- عُضـوًا فِي لجْنَةِ التَّوْعِيَةِ فِي مَوْسِـمِ الحَجِّ، مِن عـام (١٣٩٢هـ) حتَّى وفـاته -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-، حيثُ كانَ يُلقِي دُرُوسًا ومُحاضراتٍ فِي مكَّة والمَشاعِر، ويُفْتِي فِي المَسائِلِ والأَحكامِ الشَّرعيَّة.
- تَرأَّسَ جَمعيَّةَ تَحفيظِ القُرْآنِ الكَريمِ الخَيريَّةَ فِي عُنَيْزَةَ مُنْذُ تَأْسِيسِها عامَ (١٤٠٥هـ) حتَّى وفاتِه.
- أَلقَى مُحاضراتٍ عَديدةٍ داخِلَ المملكةِ العربيَّةِ السُّعوديَّةِ علَى فِئاتٍ مُتنوِّعةٍ مِنَ النَّاسِ، كَما أَلقَى مُحاضراتٍ عَبْرَ الهاتِفِ علَى تَجمُّعاتٍ ومَراكِزَ إسلاميَّة فِي جِهاتٍ مُختلفةٍ مِنَ العالَمِ.
- مِن عُلماءِ المملكةِ الكِبارِ الذِين يُجيبُونَ علَى أَسئلةِ المُسْتفسِرينَ حولَ أَحكامِ الدِّينِ وأُصُولِه؛ عَقِيدةً وشَريعةً، وذَلكَ عَبْرَ البَرَامِجِ الإِذاعيَّةِ فِي المملكةِ العَربيَّةِ السُّعُوديَّةِ، وأَشهرُها بَرْنامَجُ (**نُورٌ عَلَى الدَّرْبِ**).
- نَذَرَ نَفْسَهُ لِلإجابَةِ علَى أَسئلةِ السَّائِلِينَ؛ مُهاتَفةً ومُكاتَبةً ومُشافَهةً.
- رَتَّبَ لِقاءاتٍ عِلميَّةً مُجَدْوَلَةً، أُسْبُوعيَّةً وشَهْريَّةً وسَنَوِيَّةً.
- شارَكَ فِي العَدِيد مِنَ المُؤتَمَراتِ التِي عُقِدَت فِي المملكةِ العربيَّةِ السُّعُوديَّةِ.
- ولأَنَّه يَهتمُّ بالسُّلُوكِ التَّربويِّ والجانِبِ الوَعْظِيِّ اعتنَى بتَوْجِيهِ الطُّلَّابِ وإِرشادِهِم إِلَى سُلُوكِ المَنْهَجِ الجادِّ فِي طَلَبِ العِلْمِ وتَحْصِيلِه، وعَمِلَ علَى استِقْطابِهِمْ والصَّبْرِ علَى تَعْلِيمِهِمْ وتَحمُّلِ أَسئلتِهِمُ المُتعدِّدةِ، والاهتمامِ بأُمُورِهِمْ.
- ولِلشَّيخ -رَحِمَهُ اللهُ- أَعمالٌ عَديدةٌ فِي مَيادِينِ الخَيرِ وأَبوابِ البِرِّ ومَجالاتِ الإِحْسانِ إِلَى النَّاسِ، والسَّعْيِ فِي حَوائِجِهِمْ وكِتابَةِ الوَثَائِق والعُقُودِ بَيْنَهُمْ، وإِسداءِ النَّصِيحَةِ لهُمْ بِصِدْقٍ وإِخلاصٍ.

مَكَانَتُهُ العِلْمِيَّةُ:

يُعَدُّ فَضيلةُ الشَّيْخِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- مِنَ الرَّاسِخِينَ فِي العِلْمِ الذِينَ وَهَبَهُمُ اللهُ -بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ- تَأْصِيلًا وَمَلَكَةً عَظِيمةً فِي مَعرِفَةِ الدَّلِيلِ واتِّبَاعِهِ واستِنْبَاطِ الأَحْكامِ والفَوائِدِ مِنَ الكِتابِ والسُّنَّةِ، وسَبْرِ أَغْوارِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ مَعَانِيَ وإِعْرابًا وبَلاغَةً.

وَلِمَا تَحَلَّى بِه مِن صِفاتِ العُلَماءِ الجَليلةِ، وأَخلاقِهِمُ الحَميدَةِ، والجَمْعِ بَيْنَ العِلْمِ والعَمَلِ؛ أَحَبَّهُ النَّاسُ مَحبَّةً عَظِيمَةً، وقَدَّرَهُ الجَميعُ كُلَّ التَّقديرِ، ورَزَقَهُ اللهُ القَبُولَ لَدَيْهِمْ، واطْمَأَنُّوا لِاخْتِيارَاتِهِ الفِقْهِيَّةِ، وأَقْبَلُوا عَلَى دُرُوسِهِ وفَتاواهُ وآثارِهِ العِلْمِيَّةِ، يَنْهَلُونَ مِنْ مَعِينِ عِلْمِهِ، ويَسْتَفِيدُونَ مِنْ نُصْحِهِ ومَواعِظِهِ.

وقَدْ مُنِحَ جائِزَةَ المَلِك فَيْصَل -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- العَالَمِيَّةَ لِخِدْمَةِ الإِسلامِ عامَ (١٤١٤هـ)، وجاءَ فِي الحَيْثِيَّاتِ التِي أَبْدَتْها لَجْنَةُ الاخْتِيارِ لِمَنْحِهِ الجائِزَةَ مَا يَأْتِي:

- **أَوَّلًا**: تَحَلِّيه بأَخْلاقِ العُلَماءِ الفاضِلَةِ التِي مِنْ أَبْرزِها: الوَرَعُ، ورَحابَةُ الصَّدْرِ، وقَوْلُ الحَقِّ، والعَمَلُ لمَصْلحةِ المُسلمِينَ، والنُّصحُ لِخَاصَّتِهِم وعامَّتِهِم.
- **ثانِيًا**: انتِفاعُ الكَثيرِينَ بعِلْمِهِ؛ تَدْرِيسًا وإِفتاءً وتَأْلِيفًا.
- **ثالِثًا**: إِلقاؤُهُ المُحاضَراتِ العامَّةَ النَّافِعةَ فِي مُختَلَفِ مَناطِقِ المملكةِ.
- **رابِعًا**: مُشارَكتُه المُفيدةُ فِي مُؤتَمَراتٍ إسلاميَّةٍ كَثِيرةٍ.
- **خامِسًا**: اتِّباعُه أُسلوبًا مُتميِّزًا فِي الدَّعْوةِ إِلَى اللهِ بالحِكْمَةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنةِ، وتَقْدِيمُهُ مَثَلًا حَيًّا لِمَنْهَجِ السَّلَفِ الصَّالِحِ؛ فِكْرًا وسُلُوكًا.

عَقِبُهُ:

لَهُ خَمْسَةٌ مِنَ البَنِينَ، وثَلاثٌ مِنَ البَنَاتِ، وبَنُوهُ هُمْ: عَبْدُ الله، وعَبْدُ الرَّحْمَنِ، وإِبْرَاهِيمُ، وعَبْدُ العَزِيزِ، وعَبْدُ الرَّحِيمِ.

وَفَاتُهُ:

تُوُفِّيَ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي مَدِينَةِ جُدَّةَ، قُبَيلَ مَغْرِبِ يَومِ الأَرْبعاءِ، الخامِسَ عشَرَ مِنْ شَهْرِ شَوَّال، عامَ (١٤٢١هـ)، وَصُلِّيَ عَلَيه فِي المسجِدِ الحَرَام بَعْدَ صَلاةِ عَصْرِ يَومِ الخَمِيسِ، ثُمَّ شَيَّعَتْهُ تِلكَ الآلافُ مِنَ المُصَلِّينَ والحُشُودِ العَظِيمَةِ فِي مَشاهِدَ مُؤَثِّرَةٍ، ودُفِنَ فِي مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ.

وبَعْدَ صَلاةِ الجُمُعةِ مِنَ اليَوْمِ التَّالي صُلِّي عَلَيه صَلاةَ الغائِبِ فِي جَمِيعِ مُدُنِ المملكةِ العربيَّةِ السُّعُوديَّةِ.

رَحِمَ اللهُ شَيْخَنَا رَحْمَةَ الأَبْـرارِ، وأَسْكَنَهُ فَسِيحَ جَنَّاتِـهِ، ومَنَّ عَلَيهِ بمِغْفِرَتِـهِ ورِضْوَانِهِ، وجَزَاهُ عمَّا قَدَّم لِلإسْلامِ والمُسلِمِينَ خَيْرًا.

القِسْمُ العِلْمِيُّ

فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ



قالَ فَضِيلةُ الشَّيخِ العلَّامة مُحمَّد بنُ صَالحٍ العُثَيْمِين رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمِينَ، وصلَّى اللهُ وسلَّم علَى نبيِّنا محمَّدٍ وعَلى آلِه وصَحْبِه أجْمَعِينَ، أما بعدُ:

فإنَّ أهميَّة القراءةِ فِي السِّيرَةِ النَّبويَّةِ لأمُورٍ كثيرةٍ:

أوَّلا: أنْ نعرِف حالَ النَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ نسبًا وشَرفًا وحَسبًا وعِبادَةً وخُلُقًا وجَميع الأحوالِ؛ لأنَّ هَذا يَزيدُنا إيمانًا بِه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ومحبَّةً لَه وتعطُّرًا بذِكْرِه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

ثانِيًا: أنْ نعرِف الأحكامَ الَّتي تترتَّبُ علَى هذه السِّيرَة النَّبويَّةِ في حالِ الحَرْب والسِّلم والشِّدَّة والرَّخاء والغَضب وغَيرِ ذلِكَ.

ثالثًا: أنَّ كثيرًا مِن السِّيرَة النَّبويَّة لهَا علاقَةٌ بالقُرآنِ الكَريمِ وتَفْسيرٌ لهُ نحْتَاجُ إلى فهْمِها حتَّى نُطبِّق علَيْها مَا جاءَ فِي القُرآنِ الكَريمِ.

ورَابعًا: أنَّه لَا يليقُ بِنا ونحْنُ أمَّةٌ مسلِمةٌ نتَّبعُ هَذا الرَّسولَ النَّبيَّ الكَريمَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن نكُونَ جَاهلِين بحالِه وسِيرَتِه، يَعْني قدْ يُسأَلُ الواحِدُ منَّا عن أَديبٍ مِن الأُدباءِ فيَشْرح حالَه مِن هامِّه إلى إبهامِه، ويُسأَل بعْض النَّاس عَن سِيرَة النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ولَا يعرْفُ مِنها شيئًا، وهَذا نقْصٌ بِلا شَكٍّ.

فَقِراءَة السِّيرة فِيها مَصالِحُ كثَيرةٌ، وهَذا الكِتابُ الَّذي معَنا لَا يَخْلُو مِن نقْصٍ كَما هُو العَادَةُ فِي كُلِّ مؤلَّف، كَما قَال ابْن رجَبٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي كِتاب القَواعِد الفقْهِيَّة[1]: «يأْبَى اللهُ العِصْمةَ لِكتابٍ غَير كتابِه، ولكِنَّ المنْصِف مَن اغْتَفر قليلَ خَطأِ المرْءِ فِي كثيرِ صَوابِه»، فمِن ثَمَّ نرْجُو اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنْ تكُونَ قَراءتُنا لهُ فِيها خدْمةً لهَذا الكِتابِ مِن تخْرِيجِ مَا يحتَاجُ إلى التَّخريجِ، والتَّعليقِ علَيْه، فيَكونُ فِي هَذا مصلحَةٌ كبِيرةٌ للْكِتاب ومؤَلِّفه.



(١) القواعد لابن رجب (ص:٣).

مقدمة المصنف

قَال الشَّيخُ مُحمَّد الخضَريُّ -رَحِمَه اللهُ تَعالَى- فِي كِتابِه (**نُورُ اليَقِينِ فِي سِيرَةِ سَيِّدِ المرْسَلِينَ**):

«نَحْمَدُكَ يَا مَنْ أَوْضَحْتَ لَنَا سُبُلَ الهِدَايَةِ، وَأَزَحْتَ عَنْ بَصَائِرِنَا غِشَاوَةَ الغِوَايَةِ، وَنُصَلِّي وَنُسَلِّمُ عَلَى مَنْ أَرْسَلْتَهُ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا، وَعَلَى الأَصْحَابِ الَّذِينَ هَجَرُوا الأَوْطَانَ يَبْتَغُونَ مِنَ اللهِ الفَضْلَ وَالرِّضْوَانَ، وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا وَبَذَلُوا لِإِعْزَازِ الدِّينِ مَا جَمَعُوا وَمَا ادَّخَرُوا، أَمَّا بَعْدُ.

فَيَقُولُ مُحَمَّدٌ الخُضَرِيُّ ابْنُ المَرْحُومِ الشَّيْخِ عَفِيفِي البَاجُورِيِّ: كُنْتُ أَجِدُ مِنْ نَفْسِي مُنْذُ النَّشْأَةِ الأُولَى ارْتِياحًا لِقِرَاءَةِ تَوَارِيخِ السَّالِفِينَ وَقَصَصِ الغَابِرِينَ، وَأَجِدُهَا لِعَقْلِ الإِنْسَانِ أَحْسَنَ مُهَذِّبٍ وَأَنْصَحَ مُعَلِّمٍ، وَكُنْتُ أَرَى فِي تَارِيخِ نَبِيِّنَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَمَا لَقِيَهُ مِنْ أَذَى قَوْمِهِ حِينَمَا دَعَاهُمْ إِلَى الحَقِّ، وَعَظِيمِ صَبْرِه حَتَّى هَجَرَ أَوْطَانَه وَبِلَادَهُ أَعْظَمَ مُرَبٍّ لِأَفْكَارِ المُسْلِمِينَ، فَإِنَّهُ يَدُلُّهُمْ عَلَى مَا يَجِبُ اتِّبَاعَهُ وَمَا يَلْزَمُ اجْتِنَابُهُ لِيَسُودُوا كَمَا سَادَ سَابِقُوهُمْ، وَخُصُوصًا مَا يَتَعَلَّقُ بِالحُكَّامِ مِنَ اجْتِذَابِ النُّفُوسِ النَّافِرَةِ وَالتَّأْلِيفِ بَيْنَ القُلُوبِ المُخْتَلِفَةِ، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِقُوَّادِ الجُيُوشِ مِنْ تَأْلِيفِ الرِّجَالِ وَإِحْكَامِ المُعِدَّاتِ؛ حَتَّى يَتِمَّ لَهُمُ النَّصْرُ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِالعَامَّةِ مِنَ اتِّحَادِ قُلُوبِهِمْ وَصَيْرُورَتِهِمْ يَدًا عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ.

فَكُنْتُ أَجِدُ مِنْ قِرَاءَتِهَا ارْتِيَاحًا عَظِيمًا وَكَانَتْ نَفْسِي كَثِيرًا مَا تَأَسَّفَ عَلَى تَرْكِ الْمُسْلِمِينَ لَهَا، فَقَلَّمَا أَجِدُ مَنْ يَشْتَغِلُ بِهَا، وَلَكِنِّي كُنْتُ أُقَدِّمُ لَهُمُ العُذْرَ بِتَطْوِيلِ الكُتُبِ الْمُؤَلَّفَةِ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ.

فَلَمَّا قَدِمْتُ مَدِينَةَ الْمَنْصُورَةِ جَمَعَتْنِي النَّوَادِي مَعَ (مَحْمُود بِكْ سَالِمٍ) القَاضِي بِمَحْكَمَةِ الْمَنْصُورَةِ الْمُخْتَلَطَةِ، فَوَجَدْتُ مِنْهُ عِلْمًا بِدِينِهِ تَقِفُ دُونَهُ فُحُولُ الرِّجَالِ وَتَتَأَخَّرُ عَنْ مُسَابَقَتِهِ فِيهِ الأَبْطَالُ، فَقَلَّمَا تُوضَعُ مَسْأَلَةٌ دِينِيَّةٌ إِلَّا وَجَدْتُهُ مُبَرِّزًا فِيهَا، مُفْصِحًا عَنِ الجَوَابِ عَنْهَا.

أَمَّا عِلْمُهُ بِسِيرَةِ الرَّسُولِ الأَكْرَمِ ﷺ فَعِنْدَهُ مِنْهَا الخَبَرُ اليَقِينُ، وَكُنْتُ كَثِيرًا مَا أَسْمَعُهُ يَتَشَوَّقُ لِعَمَلِ سِيرَةٍ خَالِيَةٍ مِنَ الحَشْوِ وَالتَّعْقِيدِ تَنْتَفِعُ بِهَا عَامَّةُ الْمُسْلِمِينَ، فَقُلْتُ: يَا للهِ! لَقَدْ وَافَقَ هَذَا السَّيِّدُ الكَرِيمُ مَا فِي نَفْسِي، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَرَى فِي عَزِيمَتِي قُصُورًا عَنْ تَنْفِيذِ رَغْبَتِهِ وَتَتْمِيمِ أُمْنِيَتِهِ، فَإِنَّ المَقَامَ عَظِيمٌ، وَصُعُوبَاتُهُ أَعْظَمُ، وَلَكِنْ لَمْ أَرَ مِنَ الأَمْرِ بَدًا تِلْقَاءَ مَا كُنْتُ أَسْمَعُهُ مِنْ كِبَارِ رِجَالِ الْمَنْصُورَةِ، فَإِنَّهُمْ أَكْثَرُوا مِنَ الأَمَانِي لِعَمَلِ هَذَا الكِتَابِ العَمِيمِ النَّفْعِ الجَزِيلِ الفَائِدَةِ، فَقُمْتُ مُعْتَمِدًا عَلَى اللهِ رَاجِيًا مِنْهُ أَنْ يُوَفِّقَنِي لِمَا فِيهِ رِضَاهُ، وَوَاصَلْتُ السَّيْرَ بِالسُّرَى حَتَّى بَلَغْتُ الْمُنَى، فَجَاءَ بِحَمْدِ اللهِ سَهْلَ المَنَالِ عَذْبَ المَوْرِدِ، تَنْتَفِعُ بِهِ العَامَّةُ، وَتَرْجِعُ إِلَيْهِ الخَاصَّةُ.

وَقَدْ كَانَ مَوْرِدِي فِي تَأْلِيفِهِ: القُرْآنَ الشَّرِيفَ وَصَحِيحَ السُّنَّةِ مِمَّا رَوَاهُ الإِمَامَانِ البُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ، وَلَمْ أَخْرُجْ عَنْهُمَا إِلَّا فِيمَا لَا بُدَّ مِنْ تَفْهِيمِ العِبَارَاتِ

فَكَانَ يُسَاعِدُنِي (الشِّـفَاءُ) لِلْقَاضِي عِيَاضٍ، وَ(السِّيرَةُ الحَلَبِيَّةُ وَالمَوَاهِبُ اللَّدُنِّيَّةُ) لِلْقَسْطَلَّانِي، وَ(إِحْيَاءُ عُلُومِ الدِّينِ) لِلْغَزَّالِيِّ.

هَذَا وَأَسْأَلُ اللهَ مِنْ فَيْضِ فَضْلِهِ أَنْ يُوفِّقَ أَئِمَّتَنَا وَأُمَـرَاءَنَا لِلاقْتِدَاءِ بِسَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا[١] رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَإِحْيَاءِ مَعَالِمِ دِينِهِ حَتَّى يُؤَيَّدُوا بِرُوحٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ، وَقَدْ آنَ أَنْ نَشْرَعَ فِيمَا قَصَدْنَاهُ مُسْتَعِينِينَ بِحَوْلِ اللهِ فَنَقُولَ:

النَّسَبُ الشَّرِيفُ:

السَّيِّدُ الأَكْرَمُ الَّذِي شَرُفَ النَّاس بِوُجُودِهِ[٢]،..........................

---

[١] **المَوْلى**: يُطْلَق عَلى عدَّة معانٍ، مِنها السيِّد كَما يُقالُ: هَذا موْلَى فُلانٍ، أيْ سيِّدهُ، وَلا شكَّ أنَّه سيدُنا، وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا مُحَمَّدُ يَا سَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا، وَخَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَاللهِ مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي الله**»(١)، يعْنِي أَبَاحَ ﷺ لهُم أنْ يقُولُوا: (أَنت سيِّدُنا)، لكنَّه قالَ: «لَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ» لئلا يعْتَدُوا.

[٢] قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الَّذي شرُف النَّاسُ بوجُودِه»، عبارةٌ ليست سدَيدةً، فقَد شرُف النَّاس برسالتِه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، أمَّا مجـرَّد وجودِه فإنَّه ﷺ لم يحـصل به للنَّاس شرفٌ إلا بعدَ أن بُعِث بالرِّسالة؛ ولهذا فالَّذينَ يحتفلونَ بعيدِ الميلادِ النَّبويِّ مُخطِئُون؛ لأنَّه لو قُدِّر أن يكون هناكَ احتفالٌ لكانَ الاحتفالُ بشَيئَيْن: ببِعْثَتِه وبهجْرَتِه، أمَّا بِعثتُه فقد شعَّ منها النُّور، وأمَّا هجرتُه فقد شعَّ منها المُلك والدَّولة، أمَّا ولادتُه فقَط فإنَّه لم يحصُل بها للنَّاس ذلك النورُ الَّذي حصَل بعْد بِعْثَتِه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٥٣، رقم ١٢٥٥١).

هُوَ مُحَمَّدُ، بْنُ عَبْدِ اللهِ مِنْ زَوْجِهِ آمِنَةَ[١] بِنْتِ وَهْبٍ الزُّهْرِيَّةِ القُرَشِيَّةِ، ابْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ مِنْ زَوْجِهِ فَاطِمَةَ بِنْتِ عَمْرٍو المَخْزُومِيَّةِ القُرَشِيَّةِ، وَكَانَ عَبْدُ المُطَّلِبِ شَيْخًا مُعَظَّمًا فِي قُرَيْشٍ يَصْدُرُونَ عَنْ رَأْيِهِ فِي مُشْكِلَاتِهِمْ وَيُقَدِّمُونَهُ فِي مُهِمَّاتِهِمْ[٢].

ابْنِ هَاشِمٍ مِنْ زَوْجِهِ سَلْمَى بِنْتِ عَمْرٍو النَّجَّارِيَّةِ الخَزْرَجِيَّةِ.

ابْنِ عَبْدِ مَنَافٍ مِنْ زَوْجِهِ عَاتِكَةَ بِنْتِ مُرَّةَ السُّلَمِيَّةِ.

لَكِنْ بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ أَجْمَعُوا رَأْيَهُمْ عَلَى أَلَّا يَتْرُكُوا بَنِي عَمِّهِمْ عَبْدِ الدَّارِ يَسْتَأْثِرُونَ بِهَذِهِ المَفَاخِرِ، وَكَادَ يُفْضِي الأَمْرُ إِلَى القِتَالِ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَ الأَمْرَ عُقَلَاءُ الفَرِيقَيْنِ فَأَعْطَوْا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ السِّقَايَةَ وَالرِّفَادَةَ، فَدَامَتَا فِيهِمْ إِلَى أَنِ انْتَهَتَا لِلْعَبَّاسِ ابْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ ثُمَّ لِبَنِيهِ مِنْ بَعْدِهِ، ....

= فقولُه: «شرُف النَّاس بوجودِه» فِيها نظرٌ، والصَّواب أن يُقال: برسالَتِه، أيْ: نالُوا الشَّرف برسالَتِه صلَّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِه وسلَّم.

[١] قولُه: «زوْجِه» أيْ آمِنَة زَوْج عبدِ اللهِ.

[٢] ويدُلُّ لهذَا أنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ في يوْم حُنَيْنٍ يقولُ: **«أَنَا النَّبِيُّ لاَ كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ المُطَّلِبْ»**(١)، ولم يقُلْ: أَنَا ابْنُ عبدِ اللهِ؛ وذلِك لأنَّ عبدَ المطَّلب أشهَرُ مِن عبدِ اللهِ في قُرَيْشٍ؛ لأَنَّه ذُو رأيٍ سديدٍ، ولأنَّه سيدٌ في قومِه، فانْتَمى النَّبيُّ ﷺ إليه في مقامِ الشَّجاعَةِ والإِقْدَامِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من قاد دابة غيره في الحرب، رقم (٢٨٦٤)، ومسلم: كتاب الجهد، باب في غزوة حنين، رقم (١٧٧٦).

أَمَّا الحِجَابَةُ فَبَقِيَتْ بِيَدِ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ وَأَقَرَّهَا لَهُمُ الشَّرْعُ، فَهِيَ فِيهِمْ إِلَى الآنِ، وَهُمْ بَنُو شَيْبَةَ بْنِ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ بْنِ عَبْدِ العُزَّى بْنِ عُثْمَانَ بْنِ عَبْدِ الدَّارِ، وَأَمَّا اللِّوَاءُ فَدَامَ فِيهِمْ حَتَّى أَبْطَلَهُ الإِسْلَامُ وَجَعَلَهُ حَقًّا لِلْخَلِيفَةِ عَلَى المُسْلِمِينَ يَضَعُهُ فِيمَنْ يَرَاهُ صَالِحًا لَهُ وَكَذَلِكَ النَّدْوَةُ.

وَقُصَيُّ ابْنُ كِلَابٍ مِنْ زَوْجِهِ فَاطِمَةَ بِنْتِ سَعْدٍ، وَهِيَ يَمَانِيَةٌ مِنْ أَزْدِ شَنُوءَةَ.

ابْنِ مُرَّةَ مِنْ زَوْجِهِ هِنْدِ بِنْتِ سُرَيْرٍ مِنْ بَنِي فِهْرِ بْنِ مَالِكٍ.

ابْنِ كَعْبٍ مِنْ زَوْجِهِ وَحْشِيَّةَ بِنْتِ شَيْبَانَ مِنْ بَنِي فِهْرٍ أيضًا.

ابْنِ لُؤَيٍّ مِنْ زَوْجِهِ أُمِّ كَعْبٍ مَارِيَّةَ بِنْتِ كَعْبٍ مِنْ قُضَاعَةَ.

ابْنِ غَالِبٍ مِنْ زَوْجِه أُمِّ لُؤَيٍّ سَلْمَى بِنْتِ عَمْرٍو الخُزَاعِيِّ.

ابْنِ فِهْرٍ مِنْ زَوْجِهِ أُمِّ غَالِبٍ لَيْلَى بِنْتِ سَعْدٍ مِنْ هُذَيْلٍ، وَفِهْرٌ هُوَ قُرَيْشٌ فِي قَوْلِ الأَكْثَرِينَ، وَكَانَتْ قُرَيْشٌ اثْنَتَي عَشْرَةَ قَبِيلَةً: بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ، وَبَنُو عَبْدِ الدَّارِ بْنِ قُصَيٍّ، وبَنُو أَسَدِ بْنِ عَبْدِ العُزَّى بْنِ قُصَيٍّ، وَبَنُو زُهْرَةَ بْنِ كِلَابٍ، وَبَنُو مَخْزُومِ بْنِ يَقَظَةَ بْنِ مُرَّةَ، وَبَنُو تَيْمِ بْنِ مُرَّةَ، وَبَنُو عَدِيِّ بْنِ كَعْبٍ، وَبَنُو سَهْمِ بْنِ عَمْرِو بْنِ هُصَيْصِ بْنِ كَعْبٍ، وَبَنُو عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ، وَبَنُو تَيْمِ بْنِ غَالِبٍ، وَبَنُو الحَارِثِ بْنِ فِهْرٍ، وَبَنُو مُحَارِبِ بْنِ فِهْرٍ، وَالمُقِيمُونَ مِنْهُمْ بِمَكَّةَ يُسَمَّوْنَ قُرَيْشَ البِطَاحِ، والَّذِينَ بِضَوَاحِيهَا قُرَيْشَ الظَّوَاهِرِ.

ابْنِ مَالِكٍ مِنْ زَوْجِهِ جَنْدَلَةَ بِنْتِ الحَارِثِ مِنْ جُرْهُمٍ.

ابْنِ النَّضْرِ مِنْ زَوْجِهِ عَاتِكَةَ بِنْتِ عَدْوانَ مِنْ قَيْسِ عِيلَانَ.

ابْنِ كِنَانَةَ مِنْ زَوْجِهِ بَرَّةَ بِنْتِ مُرِّ بْنِ أُدّ.

ابْنِ خُزَيْمَةَ مِنْ زَوْجِهِ عُوَانَةَ بِنْتِ سَعْدِ بْنِ قَيْسِ عِيلَانَ.

ابْنِ مُدْرِكَةَ مِنْ زَوْجِهِ سَلْمَى بِنْتِ أَسْلَمَ مِنْ قُضَاعَةَ.

ابْنِ إِلْياسَ مِنْ زَوْجِهِ خِنْدَفٍ، المَضْرُوبِ بِهَا المَثَلُ فِي الشَّرَفِ وَالمَنَعَةِ.

ابْنِ مُضَرَ مِنْ زَوْجِهِ الرَّبَابِ بِنْتِ جَنْدَةَ بْنِ مَعَدٍّ.

ابْنِ نَزَارِ مِنْ زَوْجِهِ سَوْدَةَ بِنْتِ عُكٍّ.

ابْنِ مَعَدٍّ مِنْ زَوْجِهِ مُعانَةَ بِنْتِ جَوْشَم مِنْ جُرْهُمٍ.

ابْنِ عَدْنَانَ.

هَذَا هُوَ النَّسَبُ المُتَّفَقُ عَلَى صِحَّتِهِ مِنْ عُلَمَاءِ التَّارِيخِ وَالمُحَدِّثِينَ، أَمَّا النَّسَبُ فَوْقَ ذَلِكَ فَلَا يَصِحُّ فِيهِ طَرِيقٌ، غَايَةُ الأَمْرِ أَنَّهُمْ أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ نَسَبَ الرَّسُولِ ﷺ يَنْتَهِي إِلَى إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ[١] أَبِي العَرَبِ المُسْتَعْرِبَةِ[٢]، نَسَبٌ شَرِيفٌ كَمَا تَرَى، آبَاءُ طَاهِرُونَ وَأُمَّهاتٌ طَاهِرَاتٌ.

---

[١] وَإجماعُهم هذا مستنِدٌ إلى القرآنِ الكريم، فإنَّ إبراهيمَ وإسماعيلَ كانَا يقولانِ: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾ [البقرة:١٢٩]، وقد أجمعَ المسلِمُونَ على أنَّه لم يوجَدْ رسولٌ مِن بَني إسماعيلَ إلا محمدٌ صلَّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِه وسلَّم.

[٢] قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العرب المستعربة»: لأنَّ العربَ نوعانِ: عربٌ عارِبَةٌ وعربٌ

لَمْ يَزَلِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يَنْتَقِلُ مِنْ أَصْلَابِ أُولَئِكَ إِلَى أَرْحَامِ هَؤُلَاءِ حَتَّى اخْتَارَهُ اللهُ هَادِيًا مَهْدِيًّا مِنْ أَوْسَطِ العَرَبِ نَسَبًا فَهُوَ مِنْ صَمِيمِ قُرَيْشٍ الَّتِي لَهَا القَدَمُ الأُولَى فِي الشَّرَفِ وَعُلُوِّ المَكَانَةِ بَيْنَ العَرَبِ وَلَا تَجِدُ فِي سِلْسِلَةِ آبَائِهِ إِلَّا كِرَامًا لَيْسَ فِيهِمْ مُسْتَرْذَلٌ، بَلْ كُلُّهُمْ سَادَةٌ قَادَةٌ، وَكَذَلِكَ أُمَّهَاتُ آبَائِهِ مِنْ أَرْفَعِ قَبَائِلِهِنَّ شَأْنًا، وَلَا شَكَّ أَنَّ شَرَفَ النَّسَبِ وَطَهَارَةَ المَوْلِدِ مِنْ شُرُوطِ النُّبُوَّةِ، وَكُلُّ اجْتِمَاعٍ بَيْنَ آبَائِهِ وَأُمَّهَاتِهِ كَانَ شَرْعِيًّا بِحَسَبِ الأُصُولِ العَرَبِيَّةِ، وَلَمْ يَنَلْ نَسَبَهُ شَيْءٌ مِنْ سِفَاحِ الجَاهِلِيَّةِ، بَلْ طَهَّرَهُ اللهُ مِنْ ذَلِكَ وَالحَمْدُ للهِ.

زواجُ عبْدِ الله بِآمِنَةَ وحمْلُها:

كَانَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ مِنْ أَحَبِّ وَلَدِ أَبِيهِ إِلَيْهِ فَزَوَّجَهُ آمِنَةَ بِنْتَ وَهْبِ ابْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ زُهْرَةَ بْنِ كِلَابٍ، وَسِنُّهُ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً، وَهِيَ يَوْمَئِذٍ مِنْ أَفْضَلِ نِسَاءِ قُرَيْشٍ نَسَبًا وَمَوْضِعًا، وَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهَا حَمَلَتْ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَمْ يَلْبَثْ أَبُوهُ أَنْ تُوُفِّيَ بَعْدَ الحَمْلِ بِشَهْرَيْنِ، وَدُفِنَ بِالمَدِينَةِ عِنْدَ أَخْوَالِهِ بَنِي عَدِيِّ بْنِ النَّجَّارِ، فَإِنَّهُ كَانَ قَدْ ذَهَبَ بِتِجَارَةٍ إِلَى الشَّامِ فَأَدْرَكَتْهُ مَنِيَّتُهُ بِالمَدِينَةِ وَهُوَ رَاجِعٌ، وَلَمَّا أَتَمَّتْ مُدَّةُ حَمْلِ آمِنَةَ وَضَعَتْ وَلَدَهَا، ....

= مستعرِبَة، فمَن أصلُهم العربيَّةُ هُم العرَبُ العارِبَة كقَحْطانَ فِي اليَمنِ، ومَن كان مستعرِبًا فقَد أخَذ العرَبيةَ عنْ هؤلاءِ كَإِسماعيلَ؛ لأنَّ الأصلَ أن لغةَ إسماعيلَ هي لغةُ أبيهِ إبراهيمَ وليست اللغةَ العربيةَ، لكنَّه أخذ العربيةَ حينما نزَل في مكةَ وأَتى إلَيْه مَن حولها فتعلَّموا العربيةَ، فسُمُّوا عربًا مستعرِبَةً، وهُم أفضَلُ مِن العرَب العارِبَة.

فَاسْتَبْشَرَ العَالَمُ بِهَذَا المَوْلُودِ الكَرِيمِ الَّذِي بَثَّ فِي أَرْجَائِهِ رُوحَ الآدَابِ، وَتَمَّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ[١].

وَقَدْ حَقَّقَ المَرْحُومُ مَحْمُودُ بَاشَا الفَلَكِيُّ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ صَبِيحَةَ يَوْمِ الإِثْنَيْنِ، تَاسِعَ رَبِيعٍ الأَوَّلِ، المَوَافِقَ لِلْيَوْمِ العِشْرِينَ مِنْ أَبْرِيلَ سَنَةَ إِحْدَى وَسَبْعِينَ وَخَمْسِ مِئَةٍ مِنَ المِيلَادِ، وَهُوَ يُوَافِقُ السَّنَةَ الأُولَى مِنْ حَادِثَةِ الفِيلِ، وَكَانَتْ وِلَادَتُهُ فِي دَارِ أَبِي طَالِبٍ، بِشِعْبِ بَنِي هَاشِمٍ، وَكَانَتْ قَابِلَتَهُ الشِّفَاءُ أُمُّ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، وَلَمَّا وُلِدَ أَرْسَلَتْ أُمُّهُ لِجَدِّهِ تُبَشِّرُهُ فَأَقْبَلَ مَسْرُورًا وَسَمَّاهُ مُحَمَّدًا، وَلَمْ يَكُنْ هَذَا الاسْمُ شَائِعًا قَبْلُ عِنْدَ العَرَبِ، وَلَكِنْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يُحَقِّقَ مَا قَدَّرَهُ وَذَكَرَهُ فِي الكُتُبِ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا الأَنْبِيَاءُ كَالتَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ، فَأَلْهَمَ جَدَّهُ أَنْ يُسَمِّيَهُ بِذَلِكَ إِنْفَاذًا لِأَمْرِهِ، وَكَانَتْ حَاضِنَتَهُ أُمُّ أَيْمَنَ بَرَكَةُ الحَبَشِيَّةُ أَمَةُ أَبِيهِ عَبْدِ اللهِ، وَأَوَّلُ مَنْ أَرْضَعَهُ ثُوَيْبَةُ أَمَةُ عَمِّهِ أَبِي لَهَبٍ.

الرَّضَاعُ:

وَكَانَ مِنْ عَادَةِ العَرَبِ أَنْ يَلْتَمِسُوا المَرَاضِعَ لِمَوَالِيدِهِمْ فِي البَوَادِي؛ لِيَكُونَ أَنْجَبَ لِلْوَلَدِ وَكَانُوا يَقُولُونَ: إِنَّ المُرَبَّى فِي المُدُنِ يَكُونُ كَلِيلَ الذِّهْنِ فَاتِرَ العَزِيمَةِ،

---

[١] قولُه: «استَبْشر العالَمُ بهذَا المولودِ» إن أرَاد بهذَا أنَّه فِي النِّهاية فهَذا حقٌّ أنَّ النَّاس فرِحُوا بهَذا الرَّسولِ الكَريمِ، وإِن قَصد أنَّه عِند وضعِه فهَذا ليْس بصَحيحٍ؛ لأنَّه لم يكُن عُلِم أنَّه نبيٌّ، وأمَّا ما ذُكر من أنَّه انشقَّ إيوانُ كِسْرى وحصَل كَذا وكَذا فِي مَكانِ كَذا، فهَذا لا أصْلَ لَهُ.

فَجَاءَتْ نِسْوَةٌ مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ يَطْلُبْنَ أَطْفَالًا يُرْضِعْنَهُمْ، فَكَانَ الرَّضِيعُ المَحْمُودُ مِنْ نَصِيبِ حَلِيمَةَ بِنْتِ أَبِي ذُؤَيْبِ السَّعْدِيَّةِ، وَاسْمُ زَوْجِهَا أَبُو كَبْشَةَ وَهُوَ الَّذِي كَانَتْ قُرَيْشٌ تَنْسِبُ لَهُ الرَّسُولُ ﷺ حِينَمَا يُرِيدُونَ الاسْتِهْزَاءَ بِهِ، فَيَقُولُونَ: هَذَا ابْنُ أَبِي كَبْشَةَ[١] يُكَلَّمُ مِنَ السَّمَاءِ، وَدَرَّتِ البَرَكَاتُ عَلَى أَهْلِ ذَاكَ البَيْتِ الَّذِينَ أَرْضَعُوهُ مُدَّةَ وُجُودِهِ بَيْنَهُمْ، وَكَانَتْ تَرْبُو عَلَى أَرْبَعِ سَنَواتٍ.

حَادِثَةُ شَقِّ الصَّدْرِ:

وَحَصَلَ لَهُ وَهُوَ بَيْنَهُمْ حَادِثَةٌ مُهِمَّةٌ، وَهِيَ شَقُّ صَدْرِهِ وَإِخْرَاجُ حَظِّ الشَّيْطَانِ مِنْهُ، فَأَحْدَثَ ذَلِكَ عِنْدَ حَلِيمَةَ خَوْفًا، فَرَدَّتْهُ إِلَى أُمِّهِ، وَحَدَّثَتْهَا قَائِلَةً: بَيْنَما هُوَ وَإِخْوَتُهُ فِي بَهْمٍ لَنَا خَلْفَ بُيُوتِنَا إِذْ أَتَى أَخُوهُ يَعْدُو، فَقَالَ لِي وَلِأَبِيهِ: ذَاكَ أَخِي القُرَشِيُّ قَدْ أَخَذَهُ رَجُلَانِ عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بِيضٌ فَأَضْجَعَاهُ، فَشَقَّا بَطْنَهُ، فَهُمَا يَسُوطَانِهِ، فَخَرَجْتُ أَنَا وَأَبُوهُ نَحْوَهَ، فَوَجَدْنَاهُ مُنْتَقِعًا لَوْنُه، فَالتَزَمْتُهُ وَالتَزَمُهُ أَبُوهُ، فَقُلْنَا لَهُ:

---

[١] ومن ذَلك قالَ أَبُو سُفيانَ حِين كلَّم هرَقْل عَن صِفَةِ النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِه وسلَّم- وشَعر بأَنَّ هرَقْل خاف قالَ: «لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ أَنْ يَخَافَهُ مَلِكُ بَنِي الأَصْفَرِ»(١)، أَمِر: يعْنِي عظُم، ومنْهُ قولُه تعالَى: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ [الكهف:٧١]، أيْ: عَظيمًا، وملِك بَنِي الأَصْفَر: هُو ملِك الرَّومِ، وفِي ذلِك الوَقْت كانَتِ الرَّوم والفُرْس أكبرَ دوْلَتينِ فِي الشَّرقِ الأَوْسَط، ثُمَّ أَمِر أَمْرُ رسُولِ اللهِ حتَّى فُتِحت الرُّومُ وفُتِحت الفُرْسُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى النبي ﷺ، رقم (٧)، ومسلم: كتاب الجهاد، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل، رقم (١٧٧٣).

مَا لَكَ يَا بُنَيَّ؟ فَقَالَ: جَاءَنِي رَجُلَانِ عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بِيضٌ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: أَهُوَ هُوَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَأَقْبَلَا يَبْتَدِرَانِي فَأَضْجَعَانِي، فَشَقَّا بَطْنِي، فَالتَمَسَا فِيهِ شَيْئًا، فَأَخَذَاهُ وَطَرَحَاهُ وَلَا أَدْرِي مَا هُوَ[١].

وَفَاةُ آمِنَةَ وَكَفَالَةُ عَبْدِ المُطَّلِبِ وَوَفَاتُه وَكَفَالَةُ أَبِي طَالِبٍ:

ثُمَّ إِنَّ أُمَّهُ أَخَذَتْهُ مِنْهَا، وَتَوَجَّهَتْ بِهِ إِلَى المَدِينَةِ لِزِيَارَةِ أَخْوَالِ أَبِيهِ بَنِي عَدِيِّ بْنِ النَّجَّارِ، وَبَيْنَمَا هِيَ عَائِدَةٌ أَدْرَكَتْهَا مَنِيَّتُهَا فِي الطَّرِيقِ، فَمَاتَتْ بِالأَبْوَاءِ[٢]،

---

[١] بعضُ العُلَماءِ يُنكِر هذَا الشَّقَّ، ويقُول أنَّ النَّبي -صلَّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِه وسلَّم- إنَّما شُقَّ صدرُه ليْلَةَ الإِسْراءِ، وأمَّا هذِه القصَّةُ فلَم تثْبُتْ، وهذَا هُو الأقْربُ.

[٢] أُشكِل على البَعْض في مسألَةِ والِدَي النَّبيِّ ﷺ، مَا حكْمُهما وقَدْ مَاتَا في الجاهليَّةِ، أهُما فِي النَّار؟ لكنَّ حلَّ هذَا الإشكالِ قَدْ بيَّنه الرَّسولُ -صلَّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِه وسلَّم- حِينَ جاءَه رجلٌ يسألُه عَن أَبِيه، فقَال لَهُ النَّبيُّ: «**هُوَ فِي النَّارِ**»، فلَمَّا انْصرَف الرَّجلُ كأنَّه مُغْضَبٌ ناداهُ النَّبي ﷺ وقَال: «**إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ**»(١)، وأمَّا أمُّه فيُفْتِينا عَن ذلكَ الرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فقَد قالَ ﷺ أنَّه استأْذَن اللهَ تعالَى أنْ يستَغْفِر لأمِّهِ فلمْ يأْذَنْ لَه، واستأْذَنَه أنْ يَزورَ قبْرَها فأذِن لَهُ(٢).

فإِن قِيل: ولكِنَّ العَقْل قد يأْبَى أنْ يكونَ والِدَا النَّبيِّ ﷺ في النَّار لمكَانَتِه عندَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؟

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان أن من مات على الكفر فهو في النار، رقم (٢٠٣).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب استئذان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربه عَزَّوَجَلَّ في زيارة قبر أمه، رقم (٩٧٦).

فَحَضَنَتْهُ أُمُّ أَيْمَنَ، وَكَفَلَهُ جَدُّهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ وَرَقَّ لَهُ رِقَّةً لَمْ تُعْهَدْ لَهُ فِي وَلَدِهِ، لِمَا كَانَ يَظْهَرُ عَلَيْهِ مِمَّا يَدلُّ عَلَى أَنَّ لَهُ شَأْنًا عَظِيمًا فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَكَانَ يُكْرِمُهُ غَايَةَ الإِكْرَامِ[١].

وَلَكِنْ لَمْ يَلْبَثْ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ أَنْ تُوُفِّيَ بَعْدَ ثَمَانِي سَنَوَاتٍ مِنْ عُمْرِ الرَّسُولِ ﷺ، فَكَفَلَهُ شَقِيقُ أَبِيهِ أَبُو طَالِبٍ، فَكَانَ لَهُ رَحِيمًا وَعَلَيْهِ غَيُورًا، وَكَانَ أَبُو طَالِبٍ مُقِلًّا مِنَ الْمَالِ فَبَارَكَ اللهُ لَهُ فِي قَلِيلِهِ، وَكَانَ الرَّسُولُ ﷺ فِي مُدَّةِ كَفَالَةِ عَمِّهِ مِثَالَ الْقَنَاعَةِ وَالْبُعْدِ عَنِ السَّفَاسِفِ الَّتِي يَشْتَغِلُ بِهَا الأَطْفَالُ عَادَةً كَمَا رَوَتْ ذَلِكَ أُمُّ أَيْمَنَ حَاضِنَتُهُ، فَكَانَ إِذَا أَقْبَلَ وَقْتُ الأَكْلِ جَاءَ الأَوْلَادُ يَخْتَطِفُونَ وَهُوَ قَانِعٌ بِمَا سَيُيَسِّرُهُ اللهُ لَهُ.

السَّفَرُ إِلَى الشَّامِ:

وَلَمَّا بَلَغَتْ سِنُّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً أَرَادَ عَمُّهُ وَكَفِيلُهُ السَّفَرَ بِتِجَارَةٍ إِلَى الشَّامِ، فَاسْتَعْظَمَ الرَّسُولُ ﷺ فِرَاقَهُ فَرَقَّ لَهُ وَأَخَذَهُ مَعَهُ، وَهَذِهِ هِيَ الرِّحْلَةُ الأُولَى، وَلَمْ يَمْكُثُوا فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا، وَقَدْ أَشْرَفَ عَلَى رِجَالِ الْقَافِلَةِ وَهُمْ بِقُرْبِ بُصْرَى بَحِيرَى الرَّاهِبُ،.........................

قُلنا: اقْبَل ما سمِعْتَ عَن الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ودَعِ المِرَاءَ، ومَا دامَ قدْ صحّ عَن النبيِّ ﷺ شيْئًا فَلا تَبْغِ بِه بَديلًا.

[١] وهَذا مِن تَمامِ قولِه تَعالَى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ [الضحى:٦]، فإِنَّ أَباه ماتَ وهُو حَمْل، وأمُّه ماتَتْ وهُو صَغِيرٌ، وكَفَله جدُّه عبْدُ المطَّلب وَهُو سيِّدُ ساداتِ قُرَيْشٍ، ومَع هَذا قدْ عطَفَه اللهُ علَيْه، فكَان يُكْرِمُه ويجلُّه أكثَر مِن وَلَدِه، فاللَّهُم لكَ الحَمْد.

فَسَأَلَهُمْ عَمَّا رَآهُ فِي كُتُبِهِمُ الْمُقَدَّسَةِ مِنْ بِعْثَةِ نَبِيٍّ مِنَ الْعَرَبِ فِي هَذَا الزَّمَنِ، فَقَالُوا: إِنَّهُ لَمْ يَظْهَرْ لِلْآنَ[١]، وَهَذِهِ العِبَارَةُ كَثِيرًا مَا كَانَ يَلْهَجُ بِهَا أَهْلُ الكِتَابِ مِنْ يَهُودٍ وَنَصَارَى قَبْلَ بِعْثَةِ الرَّسُولِ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٨٩].

حَرْبُ الفِجَارِ:

وَلَمَّا بَلَغَتْ سِنُّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عِشْرِينَ سَنَةً حَضَرَ حَرْبَ الفِجَارِ، وَهِيَ حَرْبٌ كَانَتْ بَيْنَ كِنَانَةَ وَمَعَهَا قُرَيْشٌ، وَبَيْنَ قَيْسٍ، وَسَبَبُهَا أَنَّهُ كَانَ لِلنُّعْمَانِ بْنِ الْمُنْذِرِ مَلِكِ العَرَبِ بِالحِيرَةِ تِجَارَةٌ يُرْسِلُهَا كُلَّ عَامٍ إِلَى سُوقِ عُكَاظَ لِتُبَاعَ لَهُ، وَكَانَ يُرْسِلُهَا فِي أَمَانِ رَجُلٍ ذِي مَنْعَةٍ وَشَرَفٍ فِي قَوْمِهِ لِيُجِيزَهَا، فَجَلَسَ يَوْمًا وَعِنْدَهُ البَرَّاضُ بْنُ قَيْسٍ الكِنَانِيُّ، وَكَانَ فَاتِكًا خَلِيعًا، خَلَعَهُ قَوْمُهُ لِكَثْرَةِ شَرِّهِ، وَعُرْوَةُ بْنُ عُتْبَةَ الرَّحَّالُ، فَقَالَ: مَنْ يُجِيزُ لِي تِجَارَتِي هَذِهِ حَتَّى يُبَلِّغَهَا عُكَاظَ؟ فَقَالَ البَرَّاضُ: أَنَا أُجِيزُهَا عَلَى بَنِي كِنَانَةَ، فَقَالَ النُّعْمَانُ: إِنَّمَا أُرِيدُ مَنْ يُجِيزُهَا عَلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ، فَقَالَ عُرْوَةُ: أَبَيْتَ اللَّعْنَ، أَكَلْبٌ خَلِيعٌ يُجِيزُهَا لَكَ؟ أَنَا أُجِيزُهَا عَلَى أَهْلِ الشِّيحِ وَالقَيْصُومِ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ وَتِهَامَةَ، فَقَالَ البَرَّاضُ: أَوَتُجِيزُهَا عَلَى كِنَانَةَ يَا عُرْوَةُ؟ قَالَ: وَعَلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ، فَأَسَرَّهَا فِي نَفْسِهِ، وَتَرَبَّصَ لَهُ حَتَّى إِذَا خَرَجَ بِالتِّجَارَةِ قَتَلَهُ غَدْرًا، ثُمَّ أَرْسَلَ رَسُولًا يُخْبِرُ قَوْمَهُ كِنَانَةَ بِالخَبَرِ، وَيُحَذِّرُهُمْ قَيْسًا قَوْمَ عُرْوَةَ،.............

---

[١] بعضُ العُلَماءِ يقُول: إنَّ قِصَّة بَحِيرى الرَّاهِب ليْسَتْ بِصَحيحَةٍ، والظَّاهِر أنَّها كما قَالُوا.

وَأَمَّا قَيْسٌ فَلَمْ تَلْبَثْ بَعْدَ أَنْ بَلَغَهَا الخَبَرُ أَنْ هَمَّتْ لِتُدْرِكَ ثَأْرَهَا حَتَّى أَدْرَكُوا قُرَيْشًا وَكِنَانَةَ بِنَخْلَةَ، فَاقْتَتَلُوا وَلَمَّا اشْتَدَّ البَأْسُ وَحَمِيَتْ قَيْسٌ احْتَمَتْ قُرَيْشٌ بِحَرَمِهَا، وَكَانَ فِيهِمْ رَسُولُ اللهِ، ثُمَّ إِنَّ قَيْسًا قَالُوا لِخُصُومِهِمْ: إِنَّا لَا نَتْرُكُ دَمَ عُرْوَةَ فَمَوْعِدُنَا عُكَاظُ العَامَ المُقْبِلَ وَانْصَرَفُوا إِلَى بِلَادِهِمْ يُحَرِّضُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَلَمَّا حَالَ الحَوْلُ جَمَعَتْ قَيْسٌ جُمُوعَهَا، وَكَانَتْ مَعَهَا ثَقِيفٌ وَغَيْرُهَا، وَجَمَعَتْ قُرَيْشٌ جُمُوعَهَا مِنْ كِنَانَةَ وَالأَحَابِيشِ، وَهُمْ حُلَفَاءُ قُرَيْشٍ، وَكَانَ رَئِيسَ بَنِي هَاشِمٍ الزُّبَيْرُ بْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وَمَعَهُ إِخْوَتُهُ أَبُو طَالِبٍ وَحَمْزَةُ وَالعَبَّاسُ وَابْنُ أَخِيهِ النَّبِيُّ الكَرِيمُ، وَكَانَ عَلَى بَنِي أُمَيَّةَ حَرْبُ بْنُ أُمَيَّةَ وَلَهُ القِيَادَةُ العَامَّةُ لِمَكَانِهِ فِي قُرَيْشٍ شَرَفًا وَسِنًّا، وَهَكَذَا كَانَ عَلَى كُلِّ بَطْنٍ مِنْ بُطُونِ قُرَيْشٍ رَئِيسٌ، ثُمَّ تَنَاجَزُوا الحَرْبَ، فَكَانَ يَوْمًا مِنْ أَشَدِّ أَيَّامِ العَرَبِ هَوْلًا، وَلِمَا اسْتُحِلَّ فِيهِ مِنْ حُرُمَاتِ مَكَّةَ الَّتِي كَانَتْ مُقَدَّسَةً عِنْدَ العَرَبِ سُمِّيَ يَوْمَ الفِجَارِ، وَكَادَتِ الدَّائِرَةُ تَدُورُ عَلَى قَيْسٍ حَتَّى انْهَزَمَ بَعْضُ قَبَائِلِهَا، وَلَكِنْ أَدْرَكَهُمْ مَنْ دَعَا المُتَحَارِبِينَ لِلصُّلْحِ عَلَى أَنْ يُحْصُوا قَتْلَى الفَرِيقَيْنِ، فَمَنْ وَجَدَ قَتْلَاهُ أَكْثَرَ أَخَذَ دِيَةَ الزَّائِدِ، فَكَانَتْ لِقَيْسٍ زِيَادَةٌ أَخَذُوا دِيَتَهَا مِنْ قُرَيْشٍ، وَتَعَهَّدَ بِهَا حَرْبُ ابْنُ أُمَيَّةَ، وَرَهَنَ لِسَدَادِهَا وَلَدَهُ أَبَا سُفْيَانَ.

وَهَكَذَا انْتَهَتْ هَذِهِ الحَرْبُ الَّتِي كَثِيرًا مَا تُشْبِهُ حُرُوبَ العَرَبِ، تَبْدَؤُهَا صَغِيرَاتُ الأُمُورِ حَتَّى أَلَّفَ اللهُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ، وَأَزَاحَ عَنْهُمْ هَذِهِ الضَّلَالَاتُ بِانْتِشَارِ نُورِ الإِسْلَامِ بَيْنَهُمْ[١].

---

[١] إِنْ قِيل: مِن أَيْن جَاء خبَرُ حرْب الفِجَار وغيرِها مفصَّلةً إِنْ لم تكُنْ وردت بإِسْنادٍ؟

حِلفُ الفُضُولِ:

وَعِنْدَ رُجُوعِ قُرَيْشٍ مِنْ حَرْبِ الفِجَارِ تَدَاعُوْا لِحِلْفِ الفُضُولِ، فَتَمَّ فِي دَارِ عَبْدِ اللهِ بْنِ جُدْعَانَ التَّيْمِيِّ أَحَدِ رُؤَسَاءِ قُرَيْشٍ، وَكَانَ المُتَحَالِفُونَ بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي المُطَّلِبِ ابْنَيْ عَبْدِ مَنَافٍ، وَبَنِي أَسَدِ بْنِ عَبْدِ العُزَّى، وَبَنِي زُهْرَةَ بْنِ كِلَابٍ، وَبَنِي تَيْمِ بْنِ مُرَّةَ، تَحَالَفُوا وَتَعَاقَدُوا أَلَّا يَجِدُوا بِمَكَّةَ مَظْلُومًا مِنْ أَهْلِهَا أَوْ مِنْ غَيْرِهِمْ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ إِلَّا قَامُوا مَعَهُ حَتَّى تُرَدَّ إِلَيْهِ مَظْلَمَتُهُ، وَقَدْ حَضَرَ هَذَا الحِلْفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَعَ أَعْمَامِهِ، وَقَالَ بَعْدَ أَنْ شَرَّفَهُ اللهُ بِالرِّسَالَةِ: «لَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ عُمُومَتِي حِلْفًا فِي دَارِ عَبْدِ اللهِ بْنِ جُدْعَانَ مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمْ[١]، وَلَوْ دُعِيتُ بِهِ فِي الإِسْلَامِ لَأَجَبْتُ»(١).

وَذَلِكَ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَبْعُوثٌ بِمَكَارِمِ الأَخْلَاقِ، وَهَذَا مِنْهَا،..................

= قلنا: الأَصْل فِي كُلِّ مَا يُروَى أن يكُونَ بإِسْنادٍ، لكن الوَاقِعَ أنَّ كثيرًا مِن رِوايات كُتب التَّاريخِ لَيْس لها إسنادٌ، لكنَّ النَّاس يتوارَثُونَها بيْنَهم وهِي شائِعَةٌ عامَّة، كما تجِدُ في عصْرِنا مثلًا شخْصًا يقول: حصَل في المعْركةِ الفُلانيَّةِ كذَا وكذَا مِن القَصصِ، ولَوْ ذهبْتَ تسألُ غيرَه عَن هذِه القَصص مَا وجدْتَ لهذَا سبيلًا، وروَايةُ هذَا النَّوعِ مِن القَصص لا حرَجَ منْهُا، فحكمُ نقلِها كحُكْم أخْبَار بَني إسْرائِيلَ.

[١] حُمْر: بسكُونِ الميمِ جَمْعُ (حمراء)، ويُخْطِئ مَن قرَأهَا (حُمُر) بالضَّم؛ فَالحُمُر جَمع (حِمار)، والنَّعم: هِي الإبِل، وكانَت العرَبُ تفخَرُ وتُفاخِرُ بها.

---

(١) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى (٦/ ٣٦٧، رقم ١٢٨٥٩).

وَقَدْ أَقَـرَّ دِينُ الإِسْلَامِ كَثِيرًا مِنْهَا يُرْشِدُكَ إِلَى هَذَا قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ»(١)، وَقَدْ دَعَا بِهَذَا الحِلْفِ كَثِيرُونَ فَأَنْصَفُوا[١].

رِحْلَتُهُ إِلَى الشَّامِ المَرَّةَ الثَّانِيَةَ:

وَلَمَّا بَلَغَتْ سِـنُّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خَمْـسًا وَعِشْرِينَ سَنَةً سَافَرَ إِلَى الشَّامِ المَرَّةَ الثَّانِيَةَ، وَذَلِكَ أَنَّ خَدِيجَةَ بِنْتَ خُوَيْلِدٍ الأَسَدِيَّةَ كَانَتْ سَيِّدَةً تَاجِرَةً ذَاتَ شَرَفٍ وَمَالٍ، تَسْتَأْجِرُ الرِّجَالَ فِي مَالِهَا وَتُضَارِبُهُمْ إِيَّاهُ، فَلَمَّا سَمِعَتْ عَنِ السَّيِّدِ مِنَ الأَمَانَةِ وَصِدْقِ الحَدِيثِ مَا لَمْ تَعْرِفْهُ فِي غَيْرِهِ حَتَّى سَمَّاهُ قَوْمُهُ الأَمِينَ، اسْتَأْجَرَتْهُ لِيَخْرُجَ فِي مَالِهَا إِلَى الشَّامِ تَاجِرًا، وَتُعْطِيهِ أَفْضَلَ مَا كَانَتْ تُعْطِي غَيْرَهُ، فَسَافَرَ مَعَ غُلَامِهَا مَيْسَرَةَ فَبَاعَا وَابْتَاعَا وَرَبِحَا رِبْحًا عَظِيمًا، وَظَهَرَ لِلسَّيِّدِ الكَرِيمِ فِي هَذِهِ السَّفْرَةِ مِنَ البَرَكَاتِ مَا حَبَّبَهُ فِي قَلْبِ مَيْسَرَةَ غُلَامِ خَدِيجَةَ.

زَوَاجُهُ خَدِيجَةَ:

فَلَـمَّا قَدِمَ مَكَّةَ وَرَأَتْ خَدِيجَـةُ رِبْحَهَا العَظِيمَ سُرَّتْ مِنَ الأَمِينِ عَلَيْهِ السَّلَامُ،....

---

[١] لا شكَّ أنَّ هذا الحِلْف الَّذي تعاهَدُوا في الجاهليَّةِ عَلى إقامَتِه ممَّا يقْتَضِيه الإِسْلامُ؛ لأنَّ مِن الواجِب ردَّ المظَالم إلى أهْلِها، وهؤُلاءِ إذا تحالَفُوا وهُمْ مِن قَبائِل شتَّى صارَ فِي هَذا قوَّةٌ على ردِّ المظالِمِ إلى أهْلِها، وَفي هَذا بَيانُ مكانَةِ هَذا البَلَدِ الحَرامِ -مكَّةَ المكرَّمةِ- حيْثُ يتَّفق النَّاس حتَّى في الجاهليَّةِ على ردِّ المظَالِمِ إلَى أهْلِهَا فِيه.

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٦٧٠، رقم ٤٢٢١) وقال: صحيح على شرط مسلم، وأخرجه البيهقى (١٠/ ١٩١، رقم ٢٠٥٧١).

وَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ تَخْطُبُهُ لِنَفْسِهَا، وَكَانَتْ سِنُّهَا نَحْوَ الأَرْبَعِينَ، وَهِيَ مِنْ أَوْسَطِ قُرَيْشٍ حَسَبًا، وَأَوْسَعِهِمْ مَالًا، فَقَامَ الأَمِينُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ أَعْمَامِهِ حَتَّى دَخَلَ عَلَى عَمِّهَا عَمْرِو بْنِ أَسَدٍ، فَخَطَبَهَا مِنْهُ بِوَاسِطَةِ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ، فَزَوَّجَهَا عَمُّهَا، وَقَدْ خَطَبَ أَبُو طَالِبٍ فِي هَذَا اليَوْمِ فَقَالَ: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي جَعَلَنَا مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ، وَزَرْعِ إِسْمَاعِيلَ وَضِئْضِيءِ مَعَدٍّ وَعُنْصَرِ مُضَرٍ، وَجَعَلَنَا حَضَنَةَ بَيْتِهِ، وَسُوَّاسَ حَرَمِهِ، وَجَعَلَهُ لَنَا بَيْتًا مَحْجُوجًا، وَحَرَمًا آمِنًا، وَجَعَلَنَا حُكَّامَ النَّاسِ، ثُمَّ إِنَّ ابْنَ أَخِي هَذَا -مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ- لَا يُوزَنُ بِهِ رَجُلٌ شَرَفًا وَنُبْلًا وَفَضْلًا، وَإِنْ كَانَ فِي المَالِ قِلٌّ فَإِنَّ المَالَ ظِلٌّ زَائِلٌ وَأَمْرٌ حَائِلٌ وَعَارِيَّةٌ مُسْتَرَدَّةٌ، وَهُوَ -وَاللهِ- بَعْدَ هَذَا لَهُ نَبَأٌ عَظِيمٌ وَخَطَرٌ جَلِيلٌ، وَقَدْ خَطَبَ إِلَيْكُمْ رَغْبَةً فِي كَرِيمَتِكُمْ خَدِيجَةَ، وَقَدْ بَذَلَ لَهَا مِنَ الصَّدَاقِ كَذَا».

وَعَلَى ذَلِكَ تَمَّ الأَمْرُ، وَقَدْ كَانَتْ مُتَزَوِّجَةً قَبْلَهُ بِأَبِي هَالَةَ، تُوُفِّيَ عَنْهَا وَلَهُ مِنْهَا وَلَدٌ اسْمُهُ هَالَةُ، وَهُوَ رَبِيبُ المُصْطَفَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

بِنَاءُ البَيْتِ:

وَلَمَّا بَلَغَتْ سِنُّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَمْسًا وَثَلَاثِينَ سَنَةً جَاءَ سَيْلٌ جَارِفٌ فَصَدَّعَ جُدْرَانَ الكَعْبَةِ بَعْدَ تَوْهِينِهَا مِنْ حَرِيقٍ كَانَ أَصَابَهَا قَبْلُ، فَأَرَادَتْ قُرَيْشٌ هَدْمَهَا لِيَرْفَعُوهَا وَيَسْقِفُوهَا، فَإِنَّهَا كَانَتْ رَضِيمَةً(١) فَوْقَ القَامَةِ، فَاجْتَمَعَتْ قَبَائِلُهُمْ لِذَلِكَ وَلَكِنَّهُمْ هَابُوا هَدْمَهَا لِمَكَانِهَا فِي قُلُوبِهِمْ، فَقَالَ لَهُمُ الوَلِيدُ بْنُ المُغِيرَةِ: أَتُرِيدُونَ بِهَدْمِهَا

---

(١) الرضيم والمرضوم: البِناءُ بالصَّخْر، انظر تاج العروس (٣٢/ ٢٦٢).

الإِصْـلَاحَ أَمِ الإِسَاءَةَ؟[١] قَالُوا: بَلِ الإِصْـلَاحَ، قَالَ: إِنَّ اللهَ لَا يُهْلِكُ الْمُصْلِحِينَ، وَشَرَعَ يَهْدِمُ فَتَبِعُوهُ وَهَدَمُوا حَتَّى وَصَلُوا إِلَى أَسَاسِ إِسْمَاعِيلَ.

وَهُنَاكَ وَجَدُوا صِحَافًا نُقِشَ فِيهَا كَثِـيرٌ مِنَ الحِكَمِ عَلَى عَادَةِ مَنْ يَضَعُونَ أَسَاسَ بِنَاءٍ شَهِيرٍ لِيَكُونَ تَذْكِرَةً لِلْمُتَأَخِّرِينَ بِعَمَلِ الْمُتَقَدِّمِينَ، ثُمَّ ابْتَدَؤُوا فِي البِنَاءِ وَأَعَدُّوا لِذَلِكَ نَفَقَةً لَيْسَ فِيهَا مَهْرُ بَغِيٍّ وَلَا بَيْعُ رِبًا، وَجَعَلَ الأَشْرَافُ مِنْ قُرَيْشٍ يَحْمِلُونَ الحِجَارَةَ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ، وَكَانَ العَبَّاسُ وَرَسُولُ اللهِ فِيمَنْ يَحْمِلُ، وَكَانَ الَّذِي يَلِي البِنَاءَ نَجَّارٌ رُومِـيٌّ اسْمُهُ بَاقُومْ، وَقَدْ خَصَّصَ لِكُلِّ رُكْنٍ جَمَاعَةً مِنَ العُظَـمَاءِ يَنْقِلُونَ إِلَيْهِ الحِجَارَةَ، وَقَدْ ضَاقَتْ بِهِمُ النَّفَقَةُ الطَّيِّبَةُ عَنْ إِتْمَامِهِ عَلَى قَوَاعِدِ إِسْمَاعِيلَ، فَأَخْرَجُوا مِنْهَا الحِجْرَ، وَبَنَوْا عَلَيْهِ جِدَارًا قَصِيرًا؛ عَلَامَةً عَلَى أَنَّهُ مِنَ الكَعْبَةِ، وَلَمَّا تَمَّ البِنَاءُ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ ذِرَاعًا بِحَيْثُ زِيدَ فِيهِ عَنْ أَصْلِهِ تِسْعَةَ أَذْرُعٍ، وَرُفِعَ البَابُ عَنِ الأَرْضِ بِحَيْثُ لَا يُصْعَدُ إِلَيْهِ إِلَّا بِدَرَجٍ، وَأَرَادُوا وَضْعَ الحَجَرِ الأَسْوَدِ مَوْضِعَهُ، فَاخْتَلَفَ أَشْرَافُهُمْ فِيمَنْ يَضَعُهُ، وَتَنَافَسُوا فِي ذَلِكَ حَتَّى كَادَتْ تَشُبُّ بَيْنَهُمْ نَارُ الحَرْبِ، وَدَامَ بَيْنَهُمْ هَذَا الخِصَامُ أَرْبَعَ لَيَالٍ، وَكَانَ أَسَنَّ رَجُلٍ فِي قُرَيْشٍ إِذْ ذَاكَ أَبُو أُمَيَّةَ بْنُ الْمُغِيرَةِ المَخْزُومِـيُّ عَمُّ خَالِدِ بْنِ الوَلِيدِ، فَقَالَ لَهُمْ: يَا قَوْمِ لَا تَخْتَلِفُوا،...

---

[١] قولُه: «أَتريدُونَ الإصلَاح أمِ الإساءَة؟» ينْبَغـي أن يكونَ مِيزانًا لكُلِّ ما يتهيَّب الإنسانُ مِن فعلِه، فيُقال: فمَن كانَ يُريد الإصلَاحَ قلنا له: لا بأْسَ، مثَال ذلِك: أن يُمْرَض بَعِـيرٌ لكَ فتكويه، فأنْتَ أردتَ الإصلَاحَ، وهذه قاعدةٌ معرُوفَةٌ حتَّـى في الشَّريعةِ الإسلاميَّة، قَال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ [البقرة:٢٢٠].

وَحَكِّمُوا بَيْنَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ بِحُكْمِهِ، فَقَالُوا: نَكِلُ الأَمْرَ لِأَوَّلِ دَاخِلٍ، فَكَانَ هَذَا الدَّاخِلُ هُوَ الأَمِينَ المَأْمُونَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَاطْمَأَنَّ الجَمِيعُ لَهُ لِمَا يَعْهَدُونَهُ فِيهِ مِنَ الأَمَانَةِ وَصِدْقِ الحَدِيثِ، وَقَالُوا: هَذَا الأَمِينُ رَضِيْنَاهُ، هَذَا مُحَمَّدٌ؛ لِأَنَّهُم كَانُوا يَتَحَاكَمُونَ إِلَيْهِ إِذْ كَانَ لَا يُدَارِي وَلَا يُمَارِي، فَلَمَّا أَخْبَرُوهُ الخَبَرَ بَسَطَ رِدَاءَهُ، وَقَالَ: لِتَأْخُذْ كُلُّ قَبِيلَةٍ بِنَاحِيَةٍ مِنَ الثَّوْبِ، ثُمَّ وَضَعَ فِيهِ الحَجَرَ، وَأَمَرَهُمْ بِرَفْعِهِ، حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى مَوْضِعِهِ فَأَخَذَهُ وَوَضَعَهُ فِيهِ، وَهَكَذَا انْتَهَتْ هَذِهِ المُشْكِلَةُ الَّتِي كَثِيرًا مَا يَكُونُ أَمْثَالُهَا سَبَبًا فِي انْتِشَارِ حُرُوبٍ هَائِلَةٍ بَيْنَ العَرَبِ، لَوْلَا أَنْ يَمُنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ بِعَاقِلٍ مِثْلِ أَبِي أُمَيَّةَ يُرْشِدُهُمْ إِلَى الخَيْرِ، وَحَكِيمٍ مِثْلِ الرَّسُولِ ﷺ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِمَا يُرْضِي جَمِيعَهُمْ، وَلَا يُسْتَغْرَبُ مِنْ قُرَيْشٍ تَنَافُسُهُمْ هَذَا؛ لِأَنَّ البَيْتَ قِبْلَةُ العَرَبِ وَكَعْبَتُهُمُ الَّتِي يَحُجُّونَ إِلَيْهَا، فَكُلُّ عَمَلٍ فِيهِ عَظِيمٌ بِهِ الفَخْرُ وَالسِّيَادَةُ، وَهُوَ أَوَّلُ بَيْتٍ وُضِعَ لِلْعِبَادَةِ بِشَهَادَةِ القُرْآنِ الكَرِيمِ، قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران:٩٦]، وَكَانَ يَلِي أَمْرَهُ بَعْدَ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ قَبِيلَةُ جُرْهُمٍ، فَلَمَّا بَغَوْا وَظَلَمُوا مَنْ دَخَلَ مَكَّةَ اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِمْ خُزَاعَةُ وَأَجْلَوْهُمْ عَنِ البَيْتِ وَوَلِيَتْهُ خُزَاعَةُ حِينًا مِنَ الدَّهْرِ، ثُمَّ أَخَذَتْهُ مِنْهُمْ قُرَيْشٌ فِي عَهْدِ قُصَيِّ بْنِ كِلَابٍ، وَبِسَبَبِهِ أَمِنُوا فِي بِلَادِهِمْ، فَكَانَتْ قَبَائِلُ العَرَبِ تَهَابُهُمْ، وَإِذَا احْتَمَوْا بِهِ كَانَ حِصْنًا أَمِينًا مِنَ اعْتِدَاءِ العَادِينَ، وَامْتَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ فِي تَنْزِيلِهِ، فَقَالَ فِي سُورَةِ العَنْكَبُوتِ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت:٦٧].

مَعِيشَتُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَبْلَ البِعْثَةِ:

لَمْ يَرِثْ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ وَالِدِهِ شَيْئًا، بَلْ وُلِدَ يَتِيمًا عَائِلًا، فَاسْتُرْضِعَ فِي بَنِي سَعْدٍ وَلَمَّا بَلَغَ مَبْلَغًا يُمَكِّنُهُ أَنْ يَعْمَلَ عَمَلًا كَانَ يَرْعَى الغَنَمَ مَعَ إِخْوَتِهِ مِنَ الرَّضَاعِ فِي البَادِيَةِ، وَكَذَلِكَ لَمَّا رَجَعَ إِلَى مَكَّةَ كَانَ يَرْعَاهَا لِأَهْلِهَا عَلَى قَرَارِيطَ، كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ(١)، وَوُجُودُ الأَنْبِيَاءِ فِي حَالِ التَّجَرُّدِ عَنِ الدُّنْيَا وَمَشَاغِلِهَا أَمْرٌ لَا بُدَّ مِنْهُ؛ لِأَنَّهُمْ لَوْ وُجِدُوا أَغْنِيَاءَ لَأَلْهَتْهُمُ الدُّنْيَا وَشُغِلُوا بِهَا عَنِ السَّعَادَةِ الأَبَدِيَّةِ، وَلِذَلِكَ تَرَى جَمِيعَ الشَّرَائِعِ الإِلَهِيَّةِ مُتَّفِقَةً عَلَى اسْتِحْسَانِ الزُّهْدِ فِيهَا وَالتَّبَاعُدِ عَنْهَا، وَحَالُ الأَنْبِيَاءِ السَّالِفِينَ أَعْظَمُ شَاهِدٍ عَلَى ذَلِكَ، فَكَانَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَزْهَدَ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا، وَكَذَلِكَ كَانَ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمُ، وَكَانَتْ حَالَتُهُمْ فِي صِغَرِهِمْ لَيْسَتْ سَعَةً، بَلْ كُلُّهُمْ سَوَاءٌ، تِلْكَ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ أَظْهَرَهَا اللهُ عَلَى أَنْبِيَائِهِ؛ لِيَكُونُوا نَمُوذَجًا لِمُتَّبِعِيهِمْ فِي الِامْتِنَاعِ عَنِ التَّكَالُبِ عَلَى الدُّنْيَا وَالتَّهَافُتِ عَلَيْهَا، وَذَلِكَ سَبَبُ البَلَايَا وَالمِحَنِ، وَكَذَلِكَ رِعَايَةُ الغَنَمِ، فَمَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا رَعَاهَا كَمَا أَخْبَرَ عَنْ ذَلِكَ الصَّادِقُ المَصْدُوقُ فِي حَدِيثِ البُخَارِيِّ(٢)، وَهَذِهِ أَيْضًا مِنْ بَالِغِ الحِكَمِ، فَإِنَّ الإِنْسَانَ إِذَا اسْتَرْعَى الغَنَمَ وَهِيَ أَضْعَفُ البَهَائِمِ سَكَنَ قَلْبُهُ الرَّأْفَةُ وَاللُّطْفُ تَعَطُّفًا[١]، ....

---

[١] هذا شيءٌ مشاهَدٌ، فإنَّ رُعاةَ الغنَم ألْيَنُ قلوبًا وأرْقُّ وأرْعَى، بخلافِ رُعاة الإبل فإنَّهم أشدُّ غلْظَةً وجفاءً، كما جاء ذلك عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**الفَخْرُ وَالخُيَلَاءُ**

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإجارة، باب رعي الغنم على قراريط، رقم (٢٢٦٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأطعمة، باب الكباث وهو ثمر الأراك، رقم (٥٤٥٣)، ومسلم: كتاب الأشربة، باب فضيلة الأسود من الكباث، رقم (٢٠٥٠).

فَإِذَا انْتَقَلَ مِنْ ذَلِكَ إِلَى رِعَايَةِ الخَلْقِ كَانَ لِمَا هُذِّبَ أَوَّلًا مِنَ الحِدَّةِ الطَّبِيعِيَّةِ وَالظُّلْمِ الغَرِيزِيِّ، فَيَكُونُ فِي أَعْدَلِ الأَحْوَالِ.

وَلَمَّا شَبَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَتَّجِرُ، وَكَانَ شَرِيكَهُ السَّائِبُ بْنُ أَبِي السَّائِبِ، وَذَهَبَ بِالتِّجَارَةِ لِخَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إِلَى الشَّامِ عَلَى جُعْلٍ يَأْخُذُهُ، وَلَمَّا شَرُفَتْ خَدِيجَةُ بِزَوَاجِهِ وَكَانَتْ ذَاتَ يَسَارٍ عَمِلَ فِي مَالِهَا، وَكَانَ يَأْكُلُ مِنْ نَتِيجَةِ عَمَلِهِ، وَحَقَّقَ اللهُ مَا امْتَنَّ عَلَيْهِ بِهِ فِي سُورَةِ الضُّحَى بِقَوْلِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى:٦-٨][١]، فَالإِيوَاءُ وَالإِغْنَاءُ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، وَالهِدَايَةُ بِالنُّبُوَّةِ، هَدَاهُ لِلْكِتَابِ وَالإِيمَانِ وَدِينِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلَمْ يَكُنْ يَدْرِي ذَلِكَ قَبْلُ، قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الشُّورَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢].

= فِي أَهْلِ الخَيْلِ وَالإِبِلِ وَالفَدَّادِينَ أَهْلِ الوَبَرِ وَالسَّكِينَةُ فِي أَهْلِ الغَنَمِ»(١)، فلِذلِكَ كانَ مِن حكْمَة اللهِ عَزَّوَجَلَّ أنَّ جميعَ الأنبياءِ رَعَوا الغَنَم؛ ليعْرِفوا: كَيف يُدبِّرونَها؟ وكيف يُصرِّفونَها؟ وكيف يمنَعُونَها عمَّا يضُرُّ؟ وكيْفَ يطْلُبون لها ما ينْفَع؟ معَ السَّكينَةِ الَّتي يُلقيها اللهُ عَزَّوَجَلَّ في قُلوب رُعاةِ الغَنَم.

[١] قالَ اللهُ تعالى في سُورَة الضُّحى: ﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى:١-٣]، لأنَّه لما أبْطَأَ عنْه الوَحْيُ قالَ بعْضُ النَّاس: إنَّ اللهَ تعالَى قَلاهُ وأبْغَضَه وتَركَه فأنْزَل اللهُ هَذهِ السُّورةَ تطْمِينًا له، ورَدًّا علَى قوْل هؤُلاءِ المفْترِينَ:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب المناقب، رقم (٣٤٩٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان فيه، رقم (٥٢).

= ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى:٤-٥]، فالآخِرةُ خيْرٌ مِن الأُولى، وذُكِرتْ هَذه الخيريةُ عَلى ثلاثَةِ أوْجُهٍ:

الأوَّل: مطْلَقـة: قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝١٦ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الأعلى:١٦-١٧]، ولم يقُل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: أنَّها خيرٌ لفُلانٍ أو فلانٍ، أو للمَوْصُوفِين بكَذا أو كَذا، بل علَى سَبيلِ الإطْلاقِ.

الثَّاني: مُقيدَةٌ بالمؤمنِين: فقالَ تَعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النساء:٧٧]، فقيَّدَها للمتَّقِين، فالآخِرةُ خير للمتَّقِين مِن الأُولَى، حتَّى وُجودُهم بِالبَرْزخ بعدَ المْوتِ خيرٌ مِن وُجودِهم فِي الدُّنْيا.

الثَّالث: خاصَّةٌ بالرَّسولِ ﷺ: فَقال اللهُ تَعالَى لِرَسولِه ﷺ: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى:٤-٥].

ثُمَّ برهَن تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ علَى ذَلِك بقَوْلِه: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾، والاستِفْهامُ هُنا للتَّقْريرِ، يعْنِي: قَد وَجدَك يَتِيمًا فآوَى.

وقولُه: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾، يَعْنـي وجَدَك غَيْر عالِمٍ قبْلَ أنْ يُنزِّل عليكَ الرِّسالَةَ، ﴿فَهَدَىٰ﴾ أيْ هَداك وهَدَى بِك أيْضًا.

قولُه: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا﴾، أيْ فَقِـيرًا ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ فأَغْناكَ، فكَيْف يُقالُ: إنَّ اللهَ تَركَه أوْ قَلاه؟

ثُم رتَّب علَى هذَا قولَه: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ﴾، فذَكَّره بحالِه أوَّلا، ﴿فَلَا تَقْهَرْ﴾، وفِي هذَا إشَارَةٌ إِلى أنَّ الإنْسـانَ ينْبَغي لَـه أنْ يُنزِّل نفْسَـه منْزِلةَ الآخَرِين الَّذينَ يحتَاجُونَ إلَيْه، فإذا

أَتاك فقِيرٌ يسأَلُك نزِّل نفسَك منزِلَة هذَا الفَقيرِ، ونزِّل هذَا الفَقِيرَ منزِلَةَ نفسِك، حتَّى يتبيَّن لَك مدَى إحسانِك علَيْه، وكَذلك إذَا سأَلَك جاهلٌ وأَنْتَ عندَك علْمٌ نزِّل نفسَك منْزِلة هَذا الجاهِلِ ونزِّلْه هُو منزلَةَ نفسِك وأنكَ تحتَاجُ إلَيْه حتَّى تعرِف مقدَارَ حاجَة النَّاس إلى مَا يسألونَهُ منْكَ، ولهَذا قالَ: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾.

قولُه: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾، والسَّائِل هُنا يشْمَل سائِلَ المالِ، وسائِلَ العِلْم.

فإِنْ قِيل: وَإذا سأَلَنَا شخْصٌ نعْرِفُ أنَّه غيرُ محتَاجٍ؟

قلْنَا: مِن كَمال الكَرَم أن يُعطِيَه إلَّا إذا خافَ أنْ يُفسِدَه، أي يُغْرِيه بِسؤَالِ النَّاس فهُنا لَا يُعْطِيه، ويكُونُ هَذا مِن باب المدَاوَاة والمعَالجَةِ، أمَّا إذا كانَ لا يَخْشى هذَا بحَيْث يكُونُ هَذا الرجلُ المسْؤُول معروفًا عنْد النَّاسِ بالكرَم والنَّاسُ يقْصُدونَه، وإِذا أعطَاهُم لم يكُن في ذَلك إغراءٌ لَهُم بسُؤالِ الآخَرين فالأَفْضل أنْ يُعطِيهم.

فإِنْ قِيل: بعْضُ النَّاس يسْأَلُ وقَدْ نعرِفُ عنْهُم أو يغْلِبُ علَينا الظَّنُّ بأنَّهم يسأَلُونَ لغَيْر حاجَةٍ، فماذا نفْعَلُ معَهُم؟

قُلْنا: الأَحْسَنُ أنْ تنْصَحه وتُبِينَ لَه أنَّ السؤَالَ لغَيْر ضَرورَةٍ حرَامٌ، وإِذَا كانَ وُلاةُ الأَمْر يمنَعُونَ مِن هذَا فأَخبِرْه، قُلْ لَه لا تَفْعَلْ فإِنِّي أخْشَى أنْ يَحْبِسك وُلاةُ الأُمورِ أوْ ما أشْبَه.

قولُه: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، ونعْمَةَ اللهِ هُنا هِي الهِدَايَةُ والإِيواءُ والغِنَاءُ، ويكُون التَّحدِيثُ بالنِّعمَة بالقَوْل، فيَحْمَد اللهَ علَى هَذه النِّعَم، ويذْكُر مَا كانَ علَيْه

سِيرَتُهُ فِي قَوْمِهِ قَبْلَ البِعْثَةِ:

كَانَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أَحْسَنَ قَوْمِهِ خُلُقًا وَأَبْعَدَهُمْ عَنِ الفُحْشِ وَالأَخْلَاقِ الَّتِي تُدَنِّسُ الرِّجَالَ، حَتَّى كَانَ أَفْضَلَ قَوْمِهِ مُرُوءَةً وَأَكْرَمَهُمْ مُخَالَطَةً وَخَيْرَهُمْ جِوَارًا وَأَعْظَمَهُمْ حِلْمًا وَأَصْدَقَهُمْ حَدِيثًا وَأَعْظَمَهُمْ أَمَانَةً، فَسَمَّوْهُ الأَمِينَ لِمَا جَمَعَ اللهُ فِيهِ مِنَ الأُمُورِ الصَّالِحَةِ الحَمِيدَةِ وَالفِعَالِ السَّدِيدَةِ مِنَ الحِلْمِ وَالصَّبْرِ وَالشُّكْرِ وَالعَدْلِ وَالتَّوَاضُعِ وَالعِفَّةِ وَالجُودِ وَالشَّجَاعَةِ وَالحَيَاءِ، حَتَّى شَهِدَ لَهُ بِذَلِكَ أَلَدُّ أَعْدَائِهِ النَّضْرُ بْنُ الحَارِثِ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ، حَيْثُ يَقُولُ: قَدْ كَانَ مُحَمَّدٌ فِيكُمْ غُلَامًا حَدَثًا أَرْضَاكُمْ فِيكُمْ وَأَصْدَقَكُمْ حَدِيثًا وَأَعْظَمَكُمْ أَمَانَةً حَتَّى إِذَا رَأَيْتُمْ فِي صِدْغَيْهِ الشَّيْبَ وَجَاءَكُمْ بِمَا جَاءَكُمْ قُلْتُمْ: سَاحِرٌ، لَا وَاللهِ مَا هُوَ بِسَاحِرٍ، قَالَ ذَلِكَ فِي مَعْرَضِ الاتِّفَاقِ عَلَى مَا يَقُولُونَهُ لِلْعَرَبِ الَّذِينَ يَحْضُرُونَ المَوْسِمَ؛ حَتَّى يَكُونُوا مُتَّفِقِينَ عَلَى قَوْلٍ مَقْبُولٍ يَقُولُونَهُ، وَلَمَّا سَأَلَ هِرَقْلُ مَلِكُ الرُّومِ أَبَا سُفْيَانَ قَائِلًا: هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قَالَ: لَا، فَقَالَ هِرَقْلُ: مَا كَانَ لِيَدْعَ الكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللهِ، وَرَدَ ذَلِكَ فِي أَوَّلِ صَحِيحِ البُخَارِيِّ[1].

وَقَدْ حَفِظَهُ اللهُ فِي صِغَرِهِ مِنْ كُلِّ أَعْمَالِ الجَاهِلِيَّةِ الَّتِي جَاءَ شَرْعُهُ الشَّرِيفُ بِضِدِّهَا وَبُغِّضَتْ إِلَيْهِ الأَوْثَانُ بُغْضًا شَدِيدًا حَتَّى مَا كَانَ يَحْضُرُ لَهَا احْتِفَالًا أَوْ عِيدًا

= وَما صَار إِلَيْه مِن الهِدَاية أَوْ الصحَّة والشِّفاء أَوْ الأَمْن، يْقصِد بِهذا الثَّناءَ علَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ لَا الفَخرَ علَى عِبَاد اللهِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (٧)، ومسلم: كتاب الجهاد، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل، رقم (١٧٧٣).

مِمَّا يَقُومُ بِهِ عُبَّادُهَا، وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَمَّا نَشَأْتُ بُغِّضَتْ إِلَيَّ الأَوْثَانُ وَبُغِّضَ إِلَيَّ الشِّعْرُ وَلَمْ أَهِمَّ بِشَيْءٍ مِمَّا كَانَتِ الجَاهِلِيَّةُ تَفْعَلُهُ إِلَّا مَرَّتَيْنِ، كُلُّ ذَلِكَ يَحُولُ اللهُ بَيْنِي وَبَيْنَ مَا أُرِيدُ مِنْ ذَلِكَ، ثُمَّ مَا هَمَمْتُ بِسُوءٍ بَعْدَهَا حَتَّى أَكْرَمَنِيَ اللهُ بِرِسَالَتِهِ، قُلْتُ لَيْلَةً لِغُلَامٍ كَانَ يَرْعَى مَعِي: لَوْ أَبْصَرْتَ لِي غَنَمِي حَتَّى أَدْخُلَ مَكَّةَ فَأَسْمُرَ كَمَا يَسْمُرُ الشَّبَابُ! فَخَرَجْتُ لِذَلِكَ حَتَّى جِئْتُ أَوَّلَ دَارٍ مِنْ مَكَّةَ أَسْمَعُ عَزْفًا بِالدُّفُوفِ وَالمَزَامِيرِ لِعُرْسِ بَعْضِهِمْ، فَجَلَسْتُ لِذَلِكَ فَضَرَبَ اللهُ عَلَى أُذُنَيَّ فَنِمْتُ، فَمَا أَيْقَظَنِي إِلَّا مَسُّ الشَّمْسِ، وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، ثُمَّ عَرَانِي مَرَّةً أُخْرَى مِثْلُ ذَلِكَ»[١].

وَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَا يَأْكُلُ مَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ، وَحَرَّمَ شُرْبَ الخَمْرِ عَلَى نَفْسِهِ مَعَ شُيُوعِهِ فِي قَوْمِهِ شُيُوعًا عَظِيمًا، وَذَلِكَ كُلُّهُ مِنَ الصِّفَاتِ الَّتِي يُحَلِّي اللهُ بِهَا أَنْبِيَاءَهُ؛ لِيَكُونُوا عَلَى تَمَامِ الاسْتِعْدَادِ لِتَلَقِّي وَحْيِهِ، فَهُمْ مَعْصُومُونَ مِنَ الأَدْنَاسِ قَبْلَ النُّبُوَّةِ وَبَعْدَهَا، أَمَّا قَبْلَ النُّبُوَّةِ فَلِيَتَأَهَّلُوا لِلْأَمْرِ العَظِيمِ الَّذِي سَيُسْنَدُ إِلَيْهِمْ، وَأَمَّا بَعْدَهَا فَلِيَكُونُوا قُدْوَةً لِأُمَمِهِمْ، عَلَيْهِمْ مِنَ اللهِ أَفْضَلُ الصَّلَوَاتِ وَأَتَمُّ التَّسْلِيمَاتِ.

ما أكرمه الله به قبل النبوة:

أَوَّلُ مِنْحَةٍ مِنَ اللهِ مَا حَصَلَ مِنَ البَرَكَاتِ عَلَى آلِ حَلِيمَةَ الَّذِينَ كَانَ مُسْتَرْضَعًا فِيهِمْ، فَقَدْ كَانُوا قَبْلَ حُلُولِهِ بِنَادِيهِمْ مُجْدِبِينَ، فَلَمَّا صَارَ بَيْنَهُمْ صَارَتْ غُنَيْمَاتُهُمْ تَؤُوبُ مِنْ مَرْعَاهَا وَإِنَّ أَضْرَاعَهَا لَتَسِيلُ لَبَنًا، وَيَرْحَمُ اللهُ البُوصِيرِيَّ حَيْثُ

---

(١) أخرجه ابن عساكر (٣/ ٤٦٩).

يَقُولُ فِي هَمْزِيَّتِهِ:

وَإِذَا سَخَّرَ الإِلَهُ أُنَاسًا لَسَعِيدٍ فَإِنَّهُمْ سُعَدَاءُ

ثُمَّ أَعْقَبَ ذَلِكَ مَا حَصَلَ مِنْ شَقِّ صَدْرِهِ وَإِخْرَاجِ حَظِّ الشَّيْطَانِ مِنْهُ، وَلَيْسَ هَذَا بِالعَجِيبِ عَلَى قُدْرَةِ اللهِ تَعَالَى، فَمَنِ اسْتَبْعَدَ ذَلِكَ كَانَ قَلِيلَ النَّظَرِ لَا يَعْرِفُ مِنْ قُوَّةِ اللهِ شَيْئًا؛ لِأَنَّ خَرْقَ العَادَاتِ لِلْأَنْبِيَاءِ لَيْسَ بِالأَمْرِ المُسْتَحْدَثِ وَلَا المُسْتَغْرَبِ وَمِنَ المُكْرُمَاتِ الإِلَهِيَّةِ تَسْخِيرُ الغَمَامَةِ لَهُ فِي سَفَرِهِ إِلَى الشَّامِ حَتَّى كَانَتْ تُظِلُّهُ فِي اليَوْمِ الصَّائِفِ لَا يَشْتَرِكُ مَعَهُ أَحَدٌ فِي القَافِلَةِ كَمَا رَوَى ذَلِكَ مَيْسَرَةُ غُلَامُ خَدِيجَةَ الَّذِي كَانَ مُشَارِكًا لَهُ فِي سَفَرِهِ، وَهَذَا مَا حَبَّبَهُ إِلَى خَدِيجَةَ حَتَّى خَطَبَتْهُ لِنَفْسِهَا، وَتَيَقَّنَتْ أَنَّ لَهُ فِي المُسْتَقْبَلِ شَأْنًا، وَلِذَلِكَ لَمَّا جَاءَتْهُ النُّبُوَّةُ كَانَتْ أَسْرَعَ النَّاسِ إِيمَانًا بِهِ، وَلَمْ تَنْتَظِرْ آيَةً أُخْرَى زِيَادَةً عَلَى مَا عَلِمَتْهُ مِنْ مَكَارِمِ الأَخْلَاقِ، وَمَا سَمِعَتْهُ مِنْ خَوَارِقِ العَادَاتِ.

وَمِنْ مِنَنِ اللهِ عَلَيْهِ مَا كَانَ يَسْمَعُهُ مِنَ السَّلَامِ عَلَيْهِ مِنَ الأَحْجَارِ وَالأَشْجَارِ، فَكَانَ إِذَا خَرَجَ لِحَاجَتِهِ أَبْعَدَ حَتَّى لَا يَرَى بِنَاءً، وَيُفْضِي إِلَى الشِّعَابِ وَبُطُونِ الأَوْدِيَةِ فَلَا يَمُرُّ بِحَجَرٍ وَلَا شَجَرٍ إِلَّا سَمِعَ: الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ، وَكَانَ يَلْتَفِتُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ وَخَلْفَهُ فَلَا يَرَى أَحَدًا، وَقَدْ حَدَّثَ بِذَلِكَ عَنْ نَفْسِهِ[1]، وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ كَبِيرُ إِشْكَالٍ، فَقَدْ سَخَّرَ اللهُ الجَمَادَاتِ لِلْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ، فَعَصَا مُوسَى التَقَمَتْ مَا صَنَعَ سَحَرَةُ فِرْعَوْنَ بَعْدَ أَنْ تَحَوَّلَتْ حَيَّةً تَسْعَى ثُمَّ رَجَعَتْ كَمَا كَانَتْ،

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٥٩، رقم ١٣٦٧).

وَلَمَّا ضَرَبَ بِهَا الحَجَرَ نَبَعَ مِنْهُ المَاءُ اثْنَتَيْ عَشَرَةَ عَيْنًا، لِكُلِّ سِبطٍ مِنْ أَسْبَاطِ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَيْنٌ، وَكَذَلِكَ غَيْرُهُ مِنَ الأَنْبِيَاءِ، سَخَّرَ اللهُ لَهُمْ مَا شَاءَ مِنْ أَنْوَاعِ الجَمَادَاتِ لِتَدُلَّ العُقَلَاءَ عَلَى عَظِيمِ قَدْرِهِمْ وَخَطَارَةِ شَأْنِهِمْ.

تَبْشِيرُ التَّوْرَاةِ بِهِ:

أَنْزَلَ اللهُ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى مُحْتَوِيَةً عَلَى الشَّرَائِعِ الَّتِي تُنَاسِبُ أَهْلَ ذَاكَ الزَّمَنِ، وَنَوَّهَ فِيهَا بِذِكْرِ كَثِيرٍ مِنَ الأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ عَلِمَ اللهُ أَنَّهُ سَيُرْسِلُهُمْ، فَمِمَّا جَاءَ فِيهَا تَبْشِيرًا بِرَسُولِنَا الكَرِيمِ خِطَابًا لِسَيِّدِنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَسَوْفَ أُقِيمُ لَهُمْ نَبِيًّا مِثْلَكَ مِنْ بَيْنِ إِخْوَتِهِمْ، وَأَجْعَلُ كَلَامِي فِي فَمِهِ، وَيُكَلِّمُهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ آمُرُهُ بِهِ، وَمَنْ لَمْ يُطِعْ كَلَامَهُ الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ بِاسْمِي فَأَنَا الَّذِي أَنْتَقِمُ مِنْهُ، فَأَمَّا النَّبِيُّ الَّذِي يَجْتَرِئُ عَلَيَّ بِالكِبْرِيَاءِ وَيَتَكَلَّمُ بِاسْمِي بِمَا لَمْ آمُرْهُ بِهِ أَوْ بِاسْمِ آلِهَةٍ أُخْرَى فَلْيُقْتَلْ، وَإِذَا أَحْبَبْتَ أَنْ تُمَيِّزَ بَيْنَ النَّبِيِّ الصَّادِقِ وَالكَاذِبِ، فَهَذِهِ عَلَامَتُكَ: أَنَّ مَا قَالَهُ ذَلِكَ النَّبِيُّ بِاسْمِ الرَّبِّ وَلَمْ يُحْدِثْ فَهُوَ كَاذِبٌ يُرِيدُ تَعْظِيمَ نَفْسِهِ وَلِذَلِكَ لَا تَخْشَاهُ». وَيَقُولُ اليَهُودُ إِنَّ هَذِهِ البِشَارَةَ لِيُوشَعَ بْنِ نُونَ خَلِيفَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَنْتَظِرُونَ فِي مُدَّةِ المَسِيحِ نَبِيًّا آخَرَ غَيْرَ المَسِيحِ، فَإِنَّهُمْ أَرْسَلُوا لِيُوحَنَّا المَعْمِدَانِ (يَحْيَى) يَسْأَلُونَهُ عَنْ نَفْسِهِ، فَقَالُوا لَهُ: أَنْتَ إِيلِيَا؟ فَقَالَ: لَا، فَقَالُوا: أَنْتَ المَسِيحُ؟ فَقَالَ: لَا، فَقَالُوا: أَنْتَ النَّبِيُّ؟ فَقَالَ: لَا، فَقَالُوا: مَا بَالُكَ إِذَنْ تُعَمِّدُ إِذَا كُنتَ لَسْتَ إِيلِيَا وَلَا المَسِيحَ وَلَا النَّبِيَّ؟»، فَهَذِهِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ التَّوْرَاةَ تُبَشِّرُ بِإِيلِيَا وَالمَسِيحِ وَنَبِيٍّ لَمْ يَأْتِ حَتَّى زَمَنِ المَسِيحِ، ثُمَّ إِنَّ التَّوْرَاةَ تَقُولُ فِي صِفَةِ النَّبِيِّ إِنَّهُ مِثْلُ مُوسَى،

وَقَدْ نَصَّتْ فِي آخِرِ سِفْرِ التَّثْنِيَةِ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَقُمْ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ نَبِيٌّ مِثْلُ مُوسَى، وَوَرَدَ فِي هَذِهِ البِشَارَةِ أَنَّ النَّبِيَّ الَّذِي يَفْتَرِي عَلَى اللهِ يُقْتَلُ، وَيُشْبِهُ ذَلِكَ فِي القُرْآنِ قَوْلَهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الحَاقَّةِ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾[1] [الحاقة:٤٤-٤٦]، وَنَبِيُّنَا ﷺ مَكَثَ بَيْنَ أَعْدَائِهِ الأَلِدَّاءِ مِنْ مُشْرِكِينَ وَيَهُودَ ثَلَاثًا وَعِشْرِينَ سَنَةً يَدْعُوهُمْ فِيهَا إِلَى اللهِ، وَمَعَ ذَلِكَ عَصَمَهُ اللهُ مِنْهُمْ.

وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ تَطْمِينًا لِخَاطِرِهِ فِي سُورَةِ المَائِدَةِ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧]، أَكَانَ يُعْجِزُ اللهَ وَهُوَ القَادِرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ أَنْ يُعَاقِبَ مَنْ يَنْسِبُ إِلَيْهِ مَا لَمْ يَقُلْهُ وَهُوَ الَّذِي قَالَ فِي سُورَةِ الشُّورَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الشورى:٢٤]، وَقَدْ أَخْبَرَتْنَا هَذِهِ البِشَارَةُ عَنِ العَلَامَةِ الَّتِي نَعْرِفُ بِهَا صِدْقَ النَّبِيِّ مِنْ كَذِبِهِ، وَهِيَ الإِخْبَارُ بِمَا سَيَأْتِي، وَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عَنْ أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ فَحَدَثَتْ كَمَا أَخْبَرَ عَنْهَا، وَمِنْهَا مَا لَا يَنْفَعُ مَعَهُ الحَدْسُ وَالتَّخْمِينُ كَالإِخْبَارِ بِأَنَّ الرُّومَ سَيُغْلَبُونَ بَعْدَ أَنْ قَهَرَهُمُ الفُرْسُ قَهْرًا شَدِيدًا،......................

[١] قالَ تعالَى: ﴿بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾، والأَقاوِيلُ جمْع قوْلٍ، فكان هذَا التَّهديدُ لمن تقوَّلَ بعْض الأَقاويلِ، فكيفَ لو تقوَّل الرِّسالَة كامِلَةً فإنَّه لا شَكَّ يكُون مِن بَاب أوْلى؛ فلَو أنَّه تقوَّل بعضَ الأقاويلِ، ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ يعْنِي بالقوَّة، ولا يُنافِي هذَا أنْ يكُونَ اللهُ تعالَى له يَمِينٌ كَما جاءَت بِه السنَّةُ، ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾، والوَتِينُ عرْقٌ في القلْبِ، إذَا انقَطعَ هلَك الإنسانُ، هَذا وهُو النَّبي -صلَّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِه وسلَّم- فكَيْف بغيْرِه ممَّن يتقوَّلونَ علَى اللهِ بغيرِ علمٍ ويُفتون بغيرِ علمٍ، نسأَلُ اللهَ العافِيةَ.

حَتَّى كَادُوا يَحْتَلُّونَ القُسْطَنْطِينِيَّةَ عَاصِمَةَ مُلْكِهِمْ، فَالإِخْبَارُ إِذَنْ بِأَنَّ الرُّومَ سَيَرُدُّونَ مَا فُقِدَ مِنْهُمْ بَعْدَ بِضْعِ سِنِينَ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ، وَلِذَلِكَ اسْتَغْرَبَهُ جِدًّا بَعْضُ الْمُشْرِكِينَ مِنْ قُرَيْشٍ، وَرَاهَنَ عَلَى ذَلِكَ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَقَدْ حَقَّقَ اللهُ الخَبَرَ فَاسْتَحَقَّ الصِّدِّيقُ الرَّهْنَ[١]، وَهَذَا قَلِيلٌ مِنْ كَثِيرٍ سَيَأْتِيكَ تَفْصِيلُهُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

---

[١] لأنَّ قريشًا استبْعدوا أنْ ينتَصِر الرُّومُ على الفُرْس، ولكِنَّ المؤمنِينَ باللهِ واليَوْم الآخِر أيْقَنوا هذَا، فراهَنَهم أبُو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فغلَبَهم، وأخَذ شيخُ الإسْلام مِن هذا أنَّه تجوزُ المراهنَة في مسائِل العِلْم(١)، فهذه القضيَّةُ ليْسَت مِن الأُمور الثَّلاثَة الَّتِي يجوزُ فِيها الرِّهانُ، لكنَّها مسألَةُ علْمٍ.

وما قالَه شيخُ الإسلامِ هو الحقُّ لأنَّ العِلْم نوعٌ مِن الجهادِ في سبيلِ اللهِ، ولكِنْ إِذا كَان قصدُ الإنسانِ مجرَّدَ المغالَبَةِ فهل يجوزُ له ذلِك؟ هذا محلُّ نظرٍ، أمَّا إذا كان مقْصودُه إظهارَ الحقِّ حتَّى يبْذُل كلُّ واحدٍ منْهما جهدَه لبَيانِ الحقِّ، فهذَا لا شكَّ في جوازِه، أمَّا إذا قصد مجرَّدَ المغالبةِ ففيها نظرٌ، فإن نظرْنا إلى المصلَحةِ مِن ظُهور الحقِّ بغضِّ النَّظر عن نيَّة الرَّجُل قلْنا: إنَّه يجُوز، وإن نظَرْنا إلى وعيدِ مَن طَلب العِلْمَ ليُماري بِه السُّفهاءَ أو ليُجادِلَ به العُلماءَ فعلَيْه الوَعِيد(٢) قلْنا: إنَّه لا يجوزُ، لكنَّ الَّذي يظهَرُ لي -واللهُ أعلمُ- أن نمنعَ مِن المراهنةِ بقصد الغلَبَة فقَط؛ لأنَّ هذا لا يصدُق علَيْه أنَّه جاهدَ لتكُون كلمَةُ اللهِ هي العُلْيا.

---

(١) الاختيارات الفقهية (ص:٤٩٨)، والفتاوى الكبرى لابن تيمية (٥/ ٤١٥).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء فيمن يطلب بعلمه الدنيا، رقم (٢٦٥٤)، وابن ماجه: المقدمة، باب الانتفاع بالعلم والعمل به، رقم (٢٥٣).

وَرَوَى القَاضِي عِياضُ فِي الشِّفَاءِ أَنَّ عَطَاءَ بنَ يَسَارِ سَأَلَ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو ابْنِ العَاصِ عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَقَالَ: أَجَلْ، وَاللهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي القُرْآنِ: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ المُتَوَكِّلَ، لَيْسَ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ، وَلَا صَخَّابٍ فِي الأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَةَ بِالسَّيِّئَةِ، وَلَكِنْ لِيَعْفُو وَيَغْفِرَ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللهُ حتَّى يُقِيمَ بِهِ المِلَّةَ العَرْجَاءَ، بِأَنْ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيَفْتَحَ بِهِ أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا وَقُلُوبًا غُلْفًا»، وَرُوِيَ مِثْلُهُ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَّامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهُوَ الَّذِي كَانَ رَئِيسَ اليَهُودِ فَلَمْ تُعْمِهِ الرِّيَاسَةُ حَتَّى يَتْرُكَ الدِّينَ القَوِيمَ[1]، وَكَذَلِكَ كَعْبُ الأَحْبَارِ، وَفِي بَعْضِ طُرُقِ الحَدِيثِ: «وَلَا صَخِبٌ فِي الأَسْوَاقِ، وَلَا قَوَّالٌ لِلْخَنَا، أُسَدِّدُهُ لِكُلِّ جَمِيلٍ، وَأَهَبُ لَهُ كُلَّ خُلُقٍ كَرِيمٍ، وَأَجْعَلُ السَّكِينَةَ لِبَاسَهُ، وَالبِرَّ شِعَارَهُ، وَالتَّقْوَى ضَمِيرَهُ، وَالحِكْمَةَ مَقُولَهُ، وَالصِّدْقَ وَالوَفَاءَ طَبِيعَتَهُ، وَالعَفْوَ وَالمَعْرُوفَ خُلُقَهُ، وَالعَدْلَ سِيرَتَهُ، وَالحَقَّ شَرِيعَتَهُ، وَالهُدَى إِمَامَهُ، وَالإِسْلَامَ مِلَّتَهُ، وَأَحْمَدَ اسْمَهُ، أَهْدِي بِهِ بَعْدَ الضَّلَالَةِ، وَأُعَلِّمُ بِهِ بَعْدَ الجَهَالَةِ، وَأَرْفَعُ بِهِ بَعْدَ الخَمَالَةِ،

فإن قِيل: لماذا نفْرَح بانْتِصار الرُّوم علَى المجوسِ؟

قُلنا: لأنَّ الرُّوم نصَارَى، والمجوسُ ليْسوا أهلَ كتابٍ، فنَفْرح بانْتِصار مَن هُو أهوَنُ علَى المسلِمينَ مِن الآخِر، ولا يضُرُّنا هذَا لأنَّنا لم نفرَح بانْتِصارِه، ولكِنْ لأنَّه أهوَنُ علَى المسْلِمينَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب كراهية السخب في السوق، رقم (٢١٢٥).

وَأُسَمِّي بِهِ بَعْدَ النُّكْرَةِ، وَأُكَثِّرُ بِهِ بَعْدَ القِلَّةِ، وَأُغْنِي بِهِ بَعْدَ العَيْلَةِ، وَأَجْمَعُ بِهِ بَعْدَ الفُرْقَةِ، وَأُؤَلِّفُ بِهِ بَيْنَ قُلُوبٍ مُخْتَلِفَةٍ وَأَهْوَاءٍ مُتَشَتِّتَةٍ، وَأُمَمٍ مُتَفَرِّقَةٍ، وَأَجْعَلُ أُمَّتَهُ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ».

وَقَدْ أَخْبَرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ صِفَتِهِ فِي التَّوْرَاةِ فَقَالَ وَهُوَ الصَّادِقُ الأَمِينُ: «عَبْدِي أَحْمَدُ الْمُخْتَارُ، مَوْلِدُهُ مَكَّةُ، وَمُهَاجَرُهُ المَدِينَةُ -أَوْ قَالَ: طِيبَةُ-، وَأُمَّتُهُ الحَمَّادُونَ اللهَ عَلَى كُلِّ حَالٍ»(١).

تَبْشِيرُ الإِنْجِيلِ:

بَشَّرَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَوْمَهُ فِي الإِنْجِيلِ بِالفَارْقِلِيطِ، وَمَعْنَاهُ قَرِيبٌ مِنْ مُحَمَّدٍ أَوْ أَحْمَدَ، وَيُصَدِّقُهُ فِي القُرْآنِ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الصَّفِّ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦]، وَقَدْ وَصَفَ المَسِيحُ هَـٰذَا الفَارْقِلِيطَ بِأَوْصَافٍ لَا تَنْطَبِقُ إِلَّا عَلَى نَبِيِّنَا، فَقَالَ: «إِنَّهُ يُوَبِّخُ العَالَمَ عَلَى خَطِيئَتِهِ، وَإِنَّهُ يُعَلِّمُهُمْ جَمِيعَ الحَقِّ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ يَنْطِقُ مِنْ عِنْدِهِ، بَلْ يَتَكَلَّمُ بِكُلِّ مَا يَسْمَعُ»، وَهَذَا مَا وَرَدَ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ فِي سُورَةِ النَّجْمِ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣-٤]، وَقَدْ وَرَدَ فِي إِنْجِيلِ بَرْنَابَا -الَّذِي ظَهَرَ مُنْذُ زَمَنٍ قَرِيبٍ وَأَخْفَتْهُ حُجُبُ الجَهَالَةِ- ذِكْرُ اسْمِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ صَرَاحَةً.

---

(١) أخرجه الدارمي في سننه (١/ ١٧، رقم ٧).

حَرَكَةُ الأَفْكَارِ قَبْلَ البِعْثَةِ:

وَهَذَا يُسَهِّلُ لَكَ فَهْمَ الحَرَكَةِ العَظِيمَةِ مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ قُبَيْلَ البِعْثَةِ، فَكَانَ اليَهُودُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى عَرَبِ المَدِينَةِ بِرَسُولٍ مُنْتَظَرٍ، فَقَدْ حَدَّثَ عَاصِمُ بْنُ عَمْرِو بْنِ قَتَادَةَ عَنْ رِجَالٍ مِنْ قَوْمِهِ، قَالُوا: إِنَّمَا دَعَانَا لِلْإِسْلَامِ -مَعَ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى لَنَا- مَا كُنَّا نَسْمَعُ مِنْ أَحْبَارِ يَهُودَ، كُنَّا أَهْلَ شِرْكٍ وَأَصْحَابَ أَوْثَانٍ وَكَانُوا أَهْلَ كِتَابٍ عِنْدَهُمْ عِلْمٌ لَيْسَ لَنَا، وَكَانَتْ لَا تَزَالُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ شُرُورٌ، فَإِذَا نِلْنَا مِنْهُمْ بَعْضَ مَا يَكْرَهُونَ قَالُوا لَنَا: قَدْ تَقَارَبَ زَمَانُ نَبِيٍّ يُبْعَثُ الآنَ، نَقْتُلُكُمْ مَعَهُ قَتْلَ عَادٍ وَإِرَمْ، فَكَثِيرًا مَا نَسْمَعُ ذَلِكَ مِنْهُمْ، فَلَمَّا بَعَثَ اللهُ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا أَجَبْنَا حِينَ دَعَانَا إِلَى اللهِ، وَعَرَفْنَا مَا كَانُوا يَتَوَعَّدُونَنَا بِهِ، فَبَادَرْنَاهُمْ إِلَيْهِ فَآمَنَّا وَكَفَرُوا[١].

وَإِنَّمَا قَالَ لَهُمُ اليَهُودُ: نَقْتُلُكُمْ مَعَهُ قَتْلَ عَادٍ وَإِرَمْ؛ لِأَنَّ مِنْ صِفَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي كُتُبِهِمْ أَنَّ هَذَا النَّبِيَّ يَسْتَأْصِلُ المُشْرِكِينَ بِالقُوَّةِ،..........................

---

[١] هذا مذكورٌ في القُرآنِ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [البقرة:٨٩]، وسببُ ذَلك الحسَدُ؛ لأنَّ محمَّدًا -صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِه وسلَّم- مِن بَني إسماعِيلَ، واليَهودُ مِن بَني إسرائيلَ، هكذا قِيلَ، وفِي نفْسِي قلقٌ مِن أنَّ سبَب ذلِك هو الحسَدُ؛ لأنَّهم يعْرِفونَ في التَّوراةِ أن محمَّدًا ﷺ يُبعَث مِن العَرب، فكيْفَ يُقال: إنَّهم كفرُوا بِه حسَدًا؟ لأنَّ محمدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مذكورٌ في التَّوراةِ والإِنْجيلِ فهُو معْروفٌ، اللَّهم إلَّا إذا كانُوا لَمَّا رأَوْا إقبالَ النَّاس علَيْه حسَدُوه؛ لا لأنَّه مِن بَني إسماعِيلَ، ولكِنْ لأنَّ النَّاس أقْبَلُوا علَيْه وآمَنوا بِه فحسَدُوه.

وَلَمْ يَكُونُوا يَظُنُّونَ أَنَّ الحَسَدَ وَالبَغْيَ سَيَتَمَكَّنَانِ مِنْ أَفْئِدَتِهِمْ فَيَنْبُذُونَ الدِّينَ القَيِّمَ فَيَحِقَّ عَلَيْهِمُ العَذَابُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَكَانَ أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ المُتَنَصِّرُ العَرَبِيُّ كَثِيرًا مَا يَقُولُ: إِنِّي لَأَجِدُ فِي الكُتُبِ صِفَةَ نَبِيٍّ يُبْعَثُ فِي بِلَادِنَا، وَحَدَّثَ سَلْمَانُ الفَارِسِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ صَحِبَ قِسِّيسًا، فَكَانَ يَقُولُ لَهُ: يَا سَلْمَانُ إِنَّ اللهَ سَوْفَ يَبْعَثُ رَسُولًا اسْمُهُ أَحْمَدُ، يَخْرُجُ مِنْ جِبَالِ تِهَامَةَ، عَلَامَتُهُ أَنَّهُ يَأْكُلُ الهَدِيَّةَ وَلَا يَأْكُلُ الصَّدَقَةَ»، وَهَذَا الحَدِيثُ كَانَ مِنْ أَسْبَابِ إِسْلَامِ سَلْمَانَ، وَلَمَّا رَاسَلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُلُوكَ الأَرْضِ لَمْ يُهِنْ كِتَابَهُ إِلَّا كِسْرَى الَّذِي لَيْسَ عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنْ الكِتَابِ، وَأَمَّا جَمِيعُ مُلُوكِ النَّصَارَى كَالنَّجَاشِيِّ مَلِكِ الحَبَشَةِ، وَالمُقَوْقِسِ مَلِكِ مِصْرَ، وَقَيْصَرَ مَلِكِ الرُّومِ، فَأَكْرَمُوا وِفَادَةَ رُسُلِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ كَالنَّجَاشِيِّ، وَمِنْهُمْ مَنْ رَدَّ رَدًّا لَطِيفًا وَكَادَ يُسْلِمُ لَوْلَا غَلَبَةُ المُلْكِ كَقَيْصَرَ، وَمِنْهُمْ مَنْ هَادَى كَالمُقَوْقِسِ، وَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قُوَّةٍ يُرْهِبُ بِهَا هَؤُلَاءِ المُلُوكِ، اللَّهُمَّ مَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ المَسِيحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَشَّرَ بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِهِ، وَوَافَقَتْ صِفَاتُ رَسُولِنَا مَا عِنْدَهُمْ، فَأَجَابُوا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، وَأَمَّا مَا سُمِعَ مِنَ الهَوَاتِفِ وَالكُهَّانِ قُبَيْلَ زَمَنِهِ فَهُوَ مَا لَا يَدْخُلُ تَحْتَ حَصْرٍ، وَلَيْسَ بَعْدَ مَا ذَكَرْتُهُ لَكَ زِيَادَةٌ لِمُسْتَكْثِرٍ، وَمَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ فَالأَعْمَالُ الَّتِي جَادَ اللهُ بِهَا عَلَى يَدَيْهِ وَالأَقْوَالُ الَّتِي أَتَانَا بِهَا أَعْظَمُ مُقَوٍّ لِحُجَّتِهِ وَمُؤَيِّدٍ لِدَعْوَتِهِ، وَسَيَأْتِي عَلَيْكَ بَيَانُ ذَلِكَ كُلِّهِ بِأَجْلَى بَيَانٍ، فَتَأَمَّلْهُ تَرْشُدْ، هَدَاكَ اللهُ إِلَى الصِّرَاطِ السَّوِيِّ.

بَدْءُ الوَحْيِ:

لَمَّا بَلَغَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سِنَّ الكَمَالِ -وَهِيَ أَرْبَعُونَ سَنَةً- أَرْسَلَهُ اللهُ لِلْعَالَمِينَ؛ بَشِيرًا وَنَذِيرًا؛ لِيُخْرِجَهُمْ مِنَ ظُلُمَاتِ الجَهَالَةِ إِلَى نُورِ العِلْمِ[١].

وَكَانَ ذَلِكَ فِي أَوَّلِ فِبْرَايِرِ سَنَةَ ٦١٠ مِنَ المِيلَادِ كَمَا أَوْضَحَهُ المَرْحُومُ مَحْمُودُ بَاشَا الفَلَكِيُّ، تَبَيَّنَ بَعْدَ دِقَّةِ البَحْثِ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي ١٧ رَمَضَانَ سَنَةَ ١٣ قَبْلَ الهِجْرَةِ، وَذَلِكَ يُوافِقُ يُولْيُو سَنَةَ ٦١٠، وَأَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ الوَحْيُ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، وَذَلِكَ لِمَا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ اللهِ فِي خَلْقِهِ مِنَ التَّدْرِيجِ فِي الأُمُورِ كُلِّهَا حَتَّى تَصِلَ إِلَى دَرَجَةِ الكَمَالِ، وَمِنَ الصَّعْبِ جِدًّا عَلَى البَشَرِ تَلَقِّي الوَحْيِ مِنَ المَلَكِ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ[٢].

---

[١] قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مِن ظُلُمات الجهَالةِ إلى نُور العِلْم» الصَّوابُ أنْ يكونَ أعمَّ، فهُو أخرَجَهُم مِن ظُلمَة الجهَالةِ إلى نُور العِلْم، ومِن ظُلمَة الشِّرك إلى نُور الإيمانِ، ومِن ظُلمَة الأخْلاقِ والمعامَلةِ إلى نُور أحسن الأخْلَاق والمعامَلةِ، فهُو أعمُّ ممَّا قالَه.

[٢] الفَتْرةُ مِن بَدْءِ الوَحي بالرُّؤيَا الصَّادقَةِ إلى نُزولِ القُرآنِ ستَّةُ أشهرٍ، وإذا نُسبَت ستَّةُ أشْهرٍ إلى زَمن النُّبوَّة الَّذي هُو ثلاثٌ وعشْرُونَ سنَةً، كانَتْ جُزءًا مِن ستَّةٍ وأرْبَعينَ جُزءًا، ولهذَا جَاء في الحدِيث أنَّ الرُّؤيَا الصَّالحةَ جزءٌ مِن ستَّةٍ وأرْبَعينَ جُزْءًا مِن النُّبوَّة(١).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التعبير، باب رؤيا الصالحين جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة، رقم (٦٩٨٨)، ومسلم: كتاب الرؤيا، رقم (٢٢٦٣).

ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الخَلَاءُ؛ لِيَبْتَعِدَ عَنْ ظُلُمَاتِ هَذَا العَالَمِ، وَيَنْقَطِعَ عَنِ الخَلْقِ إِلَى اللهِ، فَإِنَّ فِي العُزْلَةِ صَفَاءَ السَّرِيرَةِ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءَ فَيَتَعَبَّدُ فِيهِ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ العَدَدِ، فَتَارَةً عَشْرًا، وَتَارَةً أَكْثَرَ إِلَى شَهْرٍ، وَكَانَتْ عِبَادَتُهُ عَلَى دِينِ أَبِيهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَيَأْخُذُ لِذَلِكَ زَادَهُ، فَإِذَا فَرَغَ رَجَعَ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءَ، فَبَيْنَمَا هُوَ قَائِمٌ فِي بَعْضِ الأَيَّامِ عَلَى الجَبَلِ إِذْ ظَهَرَ لَهُ شَخْصٌ، وَقَالَ: أَبْشِرْ يَا مُحَمَّدُ! أَنَا جِبْرِيلُ وَأَنْتَ رَسُولُ اللهِ إِلَى هَذِهِ الأُمَّةِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: اقْرَأْ، قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ[١]، فَإِنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أُمِّيٌّ، لَمْ يَتَعَلَّمِ القِرَاءَةَ قَبْلًا، فَأَخَذَهُ فَغَطَّهُ بِالنَّمَطِ الَّذِي كَانَ يَنَامُ عَلَيْهِ حَتَّى بَلَغَ مِنْهُ الجَهْدُ.

ثُمَّ أَرْسَلَهُ فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَهُ فَغَطَّهُ ثَانِيَةً، ثُمَّ أَرْسَلَهُ فَقَالَ: اقْرَأْ قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَهُ فَغَطَّهُ الثَّالِثَةَ، ثُمَّ أَرْسَلَهُ فَقَالَ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:١-٥]، فَرَجَعَ بِهَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ مِمَّا أَلَمَّ بِهِ مِنَ الرَّوْعِ الَّذِي اسْتَلْزَمَتْهُ مُقَابَلَةُ المَلَكِ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ زَوْجِهِ، فَقَالَ: «**زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي**»، لِتَزُولَ عَنْهُ هَذِهِ القُشَعْرِيرَةُ، فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الخَبَرَ: «**لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي**»؛..............................

---

[١] قولُه ﷺ: «**مَا أَنَا بِقَارِئٍ**»، يَعْنِي لستُ أعْرِف القراءَة، وليْس المرادُ أنَّه يُريدُ أن يتظاهر بمَعْصِية جِبْريلَ، بلْ هُو لا يعْرِف القراءةَ لأنَّه كانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أُميًّا لا يقرأُ ولا يكْتبُ، كما قَال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت:٤٨].

لِأَنَّ المَلَكَ غَطَّهُ حَتَّى كَادَ يَمُوتُ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عِلْمٌ قَبْلَ ذَلِكَ بِجِبْرِيلَ، وَلَا بِشَكْلِهِ، فَقَالَتْ: كَلَّا! وَاللهِ مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتُكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ، فَلَا يُسَلِّطُ اللهُ عَلَيْكَ الشَّيَاطِينَ وَالأَوْهَامَ، وَلَا مِرَاءَ أَنَّ اللهَ اخْتَارَكَ لِهِدَايَةِ قَوْمِكَ[١].

وَلِتَتَأَكَّدَ خَدِيجَةُ مِمَّا ظَنَّتْهُ أَرَادَتْ أَنْ تَتَثَبَّتَ مِمَّنْ لَهُمْ عِلْمٌ بِحَالِ الرُّسُلِ مِمَّنِ اطَّلَعُوا عَلَى كُتُبِ الأَقْدَمِينَ، فَانْطَلَقَتْ بِهِ حَتَّى أَتَتْ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلٍ ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ، وَكَانَ امْرَأً قَدْ تَنَصَّرَ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الكِتَابَ العِبْرَانِيَّ، فَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجِيلِ بْالعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ يَا ابْنَ عَمِّ! اسْمَعْ مِنِ ابْنِ أَخِيكَ،..............................

[١] هذا يدُلُّ على ذكَائِها وعقْلِها حيْثُ أقْسَمْتُ أنَّ اللهَ تعَالى لَا يُخزيه، أيْ لا يُذِلُّه ويرديه، وبيَّنَتْ ذَلِك قالَت: «إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ»، هَذِه صفَةٌ، «وتَحْمِلُ الكَلَّ» الضَّعيفَ، تحمِلُه حتَّى ينْهَض ويقُوم، «وَتُكْسِبُ المَعْدُومَ» يعْني تجْعَل المعْدِم كاسِبًا، «وَتَقْرِي الضَّيْفَ» أيْ تُقدِّم له قِراهُ مِن مأْكَلٍ ومشْرَبٍ ومنَامٍ، ومَا أشْبَه ذلِك، «وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ» يعْنِي على ما ينُوبُ مِن الحَقِّ إذَا عرض علَيْك، فإنَّك تُعِين علَيْه، وهَذا قَبْلَ الرِّسالَةِ، فكيْف بعدَ الرِّسالة؟

فاستدلَّتْ بِهذه الخِصال الحَميدةِ على أنَّ اللهَ تعَالى لا يُخزيهِ، وفراسَتُها فِيما ذكَرَتْه مِن أنَّ اللهَ لا يُخزيه قد تحقَّقتْ بلا شكٍّ.

وهذَا يدُلُّ علَى أنَّ الإنسانَ إذا كانَ علَى كرمِ أخلاقٍ، فإنَّ هذا عنوانُ سعادتِه، وأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يُخزيه، أَسألُ اللهَ تعالى أن يجعلَنا وإيَّاكم منهم.

فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي! مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللهُ عَلَى مُوسَى لِأَنَّهُ يَعْرِفُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ إِلَى أَنْبِيَائِهِ هُوَ جِبْرِيلُ، ثُمَّ قَالَ: يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا شَابًّا جَلْدًا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ مِنْ بِلَادِكَ الَّتِي نَشَأْتَ بِهَا لِمُعَادَاتِهِمْ إِيَّاكَ وَكَرَاهِيَتِهِمْ لَكَ حِينَمَا تُطَالِبُهُمْ بِتَغْيِيرِ اعْتِقَادَاتٍ وَجَدُوا عَلَيْهَا آبَاءَهُمْ، فَاسْتَغْرَبَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَا نُسِبَ لِقَوْمِهِ مَعَ مَا يَعْلَمُهُ مِنْ حُبِّهِمْ لَهُ لِاتِّصَافِهِ بِمَكَارِمِ الأَخْلَاقِ وَصِدْقِ القَوْلِ حَتَّى سَمَّوْهُ الأَمِينَ، وَقَالَ: أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟ قَالَ: لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَقَدْ نَطَقَ بِذَلِكَ القُرْآنُ الكَرِيمُ، قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم:١٣]، وَلِتَمَامِ تَصْدِيقِ وَرَقَةَ بِرِسَالَةِ الرَّسُولِ الأَكْرَمِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: «وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا مُعَضَّدًا[١]، ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ»(١).

---

[١] لهذا يُمكن أنْ نقُول إنَّ أوَّلَ مؤمنٍ بعدَ النُّبوةِ -لا بعْدَ الرِّسالةِ- هُو ورَقةُ؛ لأنَّ هذا يدُلُّ على إيمانِه، أمَّا أوَّلُ مَن آمَن بِه بعدَ الرِّسالة فهُو أَبُو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لذا فإنَّ بعضَ العلماءِ عدَّ ورقةَ مِن الصَّحابَة، وبعضُهم قالَ: ليس صحابِيًّا؛ لأنَّه لم يُدرِك الرِّسالةَ، وكَفى بِه فخرًا أنه أيَّد الرسولَ في هذِه الحالِ الحَرِجَةِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (١٦٠).

فَتْرَةُ الوَحْيِ:

وَفَتَرَ الوَحْيُ مُدَّةً لَمْ يَتَّفِقْ عَلَيْهَا المُؤَرِّخُونَ، وَأَرْجَحُ أَقْوَالِهِمْ فِيهَا أَرْبَعُونَ يَوْمًا؛ لِيَشْتَدَّ شَوْقُ الرَّسُولِ لِلْوَحْيِ، وَقَدْ كَانَ، فَإِنَّ الحَالَ اشْتَدَّ بِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَتَّى صَارَ كُلَّمَا أَتَى ذِرْوَةَ جَبَلٍ بَدَا لَهُ أَنْ يَرْمِيَ نَفْسَهُ مِنْهَا حَذَرًا مِنْ قَطِيعَةِ اللهِ لَهُ بَعْدَ أَنْ أَرَاهُ نِعْمَتَهُ الكُبْرَى، وَهِيَ اخْتِيَارُهُ لِأَنْ يَكُونَ وَاسِطَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ، فَيَتَبَدَّى لَهُ المَلَكُ قَائِلًا: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ حَقًّا، فَيَطْمَئِنَّ خَاطِرُهُ وَيَرْجِعُ عَمَّا عَزَمَ عَلَيْهِ، حَتَّى أَرَادَ اللهُ أَنْ يُظْهِرَ لِلْوُجُودِ نُورَ الدِّينِ فَعَادَ إِلَيْهِ الوَحْيُ(١).

عَوْدُ الوَحْيِ:

فَبَيْنَمَا هُوَ يَمْشِي إِذْ سَمِعَ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعَ إِلَيْهِ بَصَرَهُ، فَإِذَا المَلَكُ الَّذِي جَاءَهُ بِحِرَاءَ جَالِسٌ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَرُعِبَ مِنْهُ لِتَذَكُّرِ مَا فَعَلَهُ فِي المَرَّةِ الأُولَى فَرَجَعَ، وَقَالَ: دَثِّرُونِي دَثِّرُونِي، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾، حَذِّرِ النَّاسَ مِنْ عَذَابِ اللهِ إِنْ لَمْ يَرْجِعُوا عَنْ غَيِّهِمْ وَمَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ، ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾، خُصَّهُ بِالتَّعْظِيمِ وَلَا تُشْرِكْ مَعَهُ فِي ذَلِكَ غَيْرَهُ، ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾، لِتَكُونَ مُسْتَعِدًّا لِلْوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ إِذْ لَا يَلِيقُ بِالمُؤْمِنِ أَنْ يَكُونَ مُسْتَقْذَرًا نَجِسًا[١].

---

[١] استدَلَّ الفقهاءُ بِهذه الآيةِ علَى وُجوبِ طَهارَة الثَّوْب، وقِيلَ: إنَّ المرادَ بقَوْلِه: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ لبَاسُ التَّقوى، يعْنِي طهِّرهَا مِن الأدْرَان والأقْذَارِ والمعَاصِي، والظَّاهِرُ أنَّها تشْمَل الثِّيابَ الحسيَّةَ والمعنويَّةَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التعبير، باب أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة، رقم (٦٩٨٢).

﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾[١] أَيِ: اهْجُرْ أَسْبَابَ الرِّجْـزِ، وَهُوَ العَذَابُ، بِأَنْ تُطِيعَ اللهَ وَتُنَفِّذَ أَمْرَهُ، فَهَذَا لَيْسَ مِنْ شَأْنِ الكِرَامِ، ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾[٢] عَلَى مَا سَيَلْحَقُكَ مِنْ أَذَى قَوْمِكَ حِينَمَا تَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ.

---

[١] الفاءُ في قولِه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾، وكذلِك قوله تعالَى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾، قالوا إنَّها أُتِي بها لتَحْسينِ اللَّفظ؛ لأنَّ ما سبَقها مفعولٌ بِه لما بعْدَها، فإذَا قِيل: (ربَّك كبرْ، وثيابَك طهِّر، والرُّجزَ اهْجُر) صَحَّ واستقامَ الكلامُ، لكِن أُتي بالفَاء لتَزْيين اللَّفظ، فيكونُ سهلًا على اللِّسانِ، ومقبولًا لدَى الآذانِ.

وقولُه تعَالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾، أي لا تهَبْ أحدًا هِبةً وأنْت تطمَعُ أن تستَعِيضَ مِن الموَهوبِ أكْثر مما وُهِب؛ أي مِن أجْل أن يرُدَّ علَيْك بأكثرَ، فلا تهَبْ له -مثلًا- شيئًا بخمْسَةِ رِيالاتٍ مِن أجْل أن يهَب لكَ شيئًا بخمسين ريالًا، فلَيس هذا من عادَة الكُرَماء، بل عادةُ الكُرماء أن يُهْدُوا ولا يتشوَّفُوا للعِوَض إطلاقًا، لكن لو أن المهْدَى إلَيْه عاوَضَك بمكافأَتِك بما هُوَ أكْثَر بدون نيةٍ منْك فهذَا جائزٌ؛ لأنَّ النبي -صلَّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِه وسلَّم- كان يقبل الهديَّة ويُثيب عليها(١).

[٢] قولُه: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾، يشمَلُ أنواعَ الصَّبْر الثَّلاث:

١- الصَّبر على طَاعةِ الله.

٢- الصَّبر عن محارمِ الله.

٣- الصَّبر على أقدارِ الله.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب المكافأة على الهبة، رقم (٢٥٨٥).

الدَّعْوَةُ سِرًّا:

فَقَامَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالأَمْرِ وَدَعَا لِعِبَادَةِ اللهِ أَقْوَامًا جُفَاةً لَا دِينَ لَهُمْ إِلَّا أَنْ يَسْجُدُوا لِأَصْنَامٍ لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ، وَلَا حُجَّةَ لَهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ مُتَّبِعُونَ لِمَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ، وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ مِنْ مَكَارِمِ الأَخْلَاقِ إِلَّا مَا كَانَ مُرْتَبِطًا بِالعِزَّةِ وَالأَنَفَةِ، وَهُوَ الَّذِي كَثِيرًا مَا كَانَ سَبَبًا فِي الغَارَاتِ وَالحُرُوبِ وَإِهْرَاقِ الدِّمَاءِ، فَجَاءَهُمْ رَسُولُ اللهِ بِمَا لَا يَعْرِفُونَهُ فَذَوُو العُقُولِ السَّلِيمَةِ بَادَرُوا إِلَى التَّصْدِيقِ وَخَلْعِ الأَوْثَانِ، وَمَنْ أَعْمَتْهُ الرِّيَاسَةُ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ كَيْلَا تُسْلَبَ مِنْهُ عَظَمَتُهُ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَطَعَ عَلَيْهِ نُورُ الإِسْلَامِ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ زَوْجُهُ.

وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ابْنُ عَمِّهِ، وَكَانَ مُقِيمًا عِنْدَهُ يُطْعِمُهُ وَيَسْقِيهِ، وَيَقُومُ بِأَمْرِهِ؛ لِأَنَّ قُرَيْشًا كَانُوا قَدْ أَصَابَتْهُمْ مَجَاعَةٌ، وَكَانَ أَبُو طَالِبٍ مُقِلًّا كَثِيرَ الأَوْلَادِ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِعَمِّهِ العَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ: إِنَّ أَخَاكَ أَبَا طَالِبٍ كَثِيرُ العِيَالِ، وَالنَّاسُ فِيمَا تَرَى مِنَ الشِّدَّةِ، فَانْطَلِقْ بِنَا إِلَيْهِ لِنُخَفِّفَ مِنْ عِيَالِهِ، تَأْخُذُ وَاحِدًا وَأَنَا وَاحِدًا، فَانْطَلَقَا وَعَرَضَا عَلَيْهِ الأَمْرَ، فَأَخَذَ العَبَّاسُ جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، وَأَخَذَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلِيًّا، فَكَانَ فِي كَفَالَتِهِ كَأَحَدِ أَوْلَادِهِ إِلَى أَنْ جَاءَتِ النُّبُوَّةُ،

وفي قولِه تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ إشارةٌ إلى أنه سيَلْقَى أذًى يحتاج إلى صبرٍ، وهَذا هُو الوَاقِع؛ ولهذا لَمَّا قال في سُورَة الإِنْسانِ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا﴾ فقالَ: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾، ولَمْ يقُل: فاشْكُر نعمتَه، ولكِن لَمَّا كان إنزالُ القُرآن علَيْه فيه زيادَةُ تكليفٍ ومِحَنٍ قالَ: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾.

وَقَدْ نَاهَزَ الاِحْتِلَامَ، فَكَانَ تَابِعًا لِلنَّبِيِّ فِي كُلِّ أَعْمَالِهِ، وَلَمْ يَتَدَنَّسْ بِدَنَسِ الجَاهِلِيَّةِ مِنْ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ وَاتِّبَاعِ الهَوَى.

وَأَجَابَ أَيْضًا زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ بْنِ شُرَحْبِيلَ الكَلْبِيُّ مَوْلَاهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَكَانَ يُقَالُ لَهُ زَيْدَ بْنَ مُحَمَّدٍ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا اشْتَرَاهُ أَعْتَقَهُ وَتَبَنَّاهُ، وَكَانَ المُتَبَنَّى مُعْتَبَرًا كَابْنٍ حَقِيقِيٍّ يَرِثُ وَيُورَثُ.

وَأَجَابَتْ أَيْضًا أُمُّ أَيْمَنَ حَاضِنَتُهُ الَّتِي زَوَّجَهَا لِمَوْلَاهُ زَيْدٍ.

وَأَوَّلُ مَنْ أَجَابَهُ مِنْ غَيْرِ أَهْلِ بَيْتِهِ أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي قُحَافَةَ بْنِ عَامِرِ بْنِ عَمْرِو بْنِ كَعْبِ بْنِ سَعْدِ بْنِ تَيْمِ بْنِ مُرَّةَ التَّيْمِيُّ القُرَشِيُّ، كَانَ صَدِيقًا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، يَعْلَمُ مَا اتَّصَفَ بِهِ مِنْ مَكَارِمِ الأَخْلَاقِ، وَلَمْ يَعْهَدْ عَلَيْهِ كَذِبًا مُنْذُ اصْطَحَبَا، فَأَوَّلَ مَا أَخْبَرَهُ بِرِسَالَةِ اللهِ أَسْرَعَ بِالتَّصْدِيقِ، وَقَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، أَهْلُ الصِّدْقِ أَنْتَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، وَكَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صَدْرًا مُعَظَّمًا فِي قُرَيْشٍ عَلَى سِعَةٍ مِنَ المَالِ وَكَرَمِ الأَخْلَاقِ، وَكَانَ مِنْ أَعَفِّ النَّاسِ، سَخِيًّا يَبْذُلُ المَالَ، مُحَبَّبًا فِي قَوْمِهِ، حَسَنَ المُجَالَسَةِ؛ وَلِذَلِكَ كُلِّهِ كَانَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِمَنْزِلَةِ الوَزِيرِ، فَكَانَ يَسْتَشِيرُهُ فِي أُمُورِهِ كُلِّهَا، وَقَالَ فِي حَقِّهِ: «**مَا دَعَوْتُ أَحَدًا إِلَى الإِسْلَامِ إِلَّا كَانَتْ لَهُ كَبْوَةٌ غَيْرَ أَبِي بَكْرٍ**»[1].

وَكَانَتِ الدَّعْوَةُ إِلَى الإِسْلَامِ سِرًّا؛ حَذَرًا مِنْ مُفَاجَأَةِ العَرَبِ بِأَمْرٍ شَدِيدٍ كَهَذَا فَيَصْعُبُ اسْتِسْلَامُهُمْ، فَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَا يَدْعُو إِلَّا مَنْ يَثِقُ بِهِ.

---

(١) أخرجه الديلمي (٤/ ٩٢، رقم ٦٢٨٦).

وَدَعَا أَبُو بَكْرٍ إِلَى الإِسْلَامِ مَنْ يَثِقُ بِهِ مِنْ رِجَالِ قُرَيْشٍ فَأَجَابَهُ جَمْعٌ:

▪ مِنْهُمْ: عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ بْنِ أَبِي العَاصِ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ الأُمَوِيُّ القُرَشِيُّ، وَلَمَّا عَلِمَ عَمُّهُ الحَكَمُ بِإِسْلَامِهِ أَوْثَقَهُ كِتَافًا، وَقَالَ: تَرْغَبُ عَنْ دِينِ آبَائِكَ إِلَى دِينٍ مُسْتَحْدَثٍ؟! وَاللهِ لَا أُحُلُّكَ حَتَّى تَدَعَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ، فَقَالَ عُثْمَانُ: وَاللهِ لَا أَدَعُهُ وَلَا أُفَارِقُهُ، فَلَمَّا رَأَى الحَكَمُ صَلَابَتَهُ فِي الحَقِّ تَرَكَهُ، وَكَانَ كَهْلًا يُنَاهِزُ الثَّلَاثِينَ مِنْ عُمْرِهِ.

▪ وَمِنْهُمْ: الزُّبَيْرُ بْنُ العَوَّامِ بْنِ خُوَيْلِدِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ العُزَّى بْنِ قُصَيٍّ القُرَشِيُّ، وَأُمُّهُ صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ المُطَّلِبِ[١]، وَكَانَ عَمُّ الزُّبَيْرِ يُرْسِلُ الدُّخَانَ عَلَيْهِ وَهُوَ مُقَيَّدٌ لِيَرْجِعَ إِلَى دِينِ آبَائِهِ، فَقَوَّاهُ اللهُ بِالثَّبَاتِ، وَكَانَ شَابًّا لَا يَتَجَاوَزُ سِنَّ الاِحْتِلَامِ.

▪ وَمِنْهُمْ: عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفِ بْنِ عَبْدِ عَوْفِ بْنِ الحَارِثِ بْنِ زُهْرَةَ بْنِ كِلَابٍ القُرَشِيُّ الهَاشِمِيُّ، وَكَانَ اسْمُهُ فِي الجَاهِلِيَّةِ عَبْدَ عَمْرٍو فَسَمَّاهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ.

▪ وَمِنْهُمْ: سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ مَالِكُ بْنُ أُهَيْبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ زُهْرَةَ بْنِ كِلَابٍ الزُّهْرِيُّ القُرَشِيُّ، وَلَمَّا عَلِمَتْ أُمُّهُ حَمْنَةُ بِنْتُ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ أُمَيَّةَ بِإِسْلَامِهِ قَالَتْ لَهُ: يَا سَعْدُ! بَلَغَنِي أَنَّكَ قَدْ صَبَأْتَ، فَوَاللهِ لَا يُظِلُّنِي سَقْفٌ مِنَ الحَرِّ وَالبَرْدِ،

[١] إِذَنْ هُو ابْنُ صفيَّةَ بنْتِ عبْدِ المطَّلبِ عمةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِه وسلَّم.

وَإِنَّ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ عَلَيَّ حَرَامٌ حَتَّى تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ، وَبَقِيَتْ كَذَلِكَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ[١]، فَجَاءَ سَعْدُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَشَكَا إِلَيْهِ أَمْرَ أُمِّهِ فَنَزَلَ فِي ذَلِكَ تَعْلِيمًا قَوْلُ اللهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ العَنْكَبُوتِ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت:٨][٢]، وصَّاهُ جَلَّ ذِكْرُهُ بِوَالِدَيْهِ، وَأَمَرَهُ بِالإِحْسَانِ إِلَيْهِمَا مُؤْمِنَيْنِ كَانَا أَوْ كَافِرَيْنِ، أَمَّا إِذَا دَعَوَاهُ لِلْإِشْرَاكِ فَالمَعْصِيَةُ مُتَحَتِّمَةٌ؛ لِأَنَّ كُلَّ حَقٍّ -وَإِنْ عَظُمَ- سَاقِطٌ، هَنَا فَلَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الخَالِقِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ مَنْ آمَنَ مِنْكُمْ وَمَنْ أَشْرَكَ، فَأُجَازِيكُمْ حَقَّ جَزَائِكُمْ، وَفِي خِتَامِ هَذِهِ الآيَةِ فَائِدَتَانِ:

- التَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّ الجَزَاءَ إِلَى اللهِ، فَلَا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِجَفْوَتِهِمَا لِإِشْرَاكِهِمَا.
- وَالحَضُّ عَلَى الثَّبَاتِ فِي الدِّينِ؛ لِئَلَّا يَنَالَا شَرَّ جَزَاءٍ فِي الأُخْرَى.

---

[١] هذا إضرابٌ عنِ الطَّعامِ، وإضرابٌ عنِ الاستِظْلال أيضًا، إذَن الإضرابُ عنِ الطَّعام كانَ لَهُ أصلٌ مِن قديمٍ، ولكنَّه -لا شكَّ- مِن السَّفهِ، وأنَّه لو ماتَ المُضرِبُ عن الطَّعامِ والشَّرابِ فقَد قتَلَ نفْسَه.

[٢] قولُه تَعالى: ﴿لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾، أمَّا أن يجاهداه على أن يشرك به ما له به علمٌ فهذا لا يمكن أصلًا، إذ لا يمكن لأحدٍ أن يأتي بعلمٍ على شريكٍ لله عَزَّوَجَلَّ، وهذا في قوله تعالى: ﴿وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا﴾، وعلى هذا فيكون هذا الوَصْفُ كالتَّعليل للحُكْم، يعني: لا تطعهما لأنَّه ليس لهما علمٌ بذلك، وفي سُورةِ لُقْمانَ قالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾.

▪ وَمِنْهُمْ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عُثْمَانَ بْنِ عَمْرِو بْنِ كَعْبِ بْنِ سَعْدِ بْنِ تَيْمِ بْنِ مُرَّةَ التَّيْمِيُّ القُرَشِيُّ، وَقَدْ كَانَ عَرَفَ مِنَ الرُّهْبَانِ ذِكْرَ الرَّسُولِ وَصِفَتَهُ، فَلَمَّا دَعَاهُ أَبُو بَكْرٍ وَسَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللهِ مَا نَفَعَهُ اللهُ بِهِ وَرَأَى الدِّينَ مَتِينًا بَعِيدًا عَمَّا عَلَيْهِ العَرَبُ مِنَ المَثَالِبِ بَادَرَ إِلَى الإِسْلَامِ.

ويُؤخَذ من سُورَة لُقْمانَ أنَّه إذا كانت أمُّ الإنسانِ كَافرةً وأَبُوه مسلمًا كالرَّجُل يتزوَّج سَبِيَّة فيتبع المؤمِن ويُحكم بإسلامِه، فإذا كانَ طفلًا لم يبْلُغْ أنْ يصحَّ منه إسلامٌ أو رِدَّةٌ فإنَّه تَبَعٌ للمُؤْمن.

ولهذا قالَ العلماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إن الولَد يتبع في النَّسَبِ أباهُ على كل حالٍ، ويتَبع في الولاء أمَّه في الرِّقِّ والحريَّةِ، ويتْبَع في الدِّين خيرَ الأَبَوَيْن. أما قولُهم: «يتبع في الحريةِ والرِّقِّ الأمَّ»، فهَذا يعْني أنَّه لو تزوَّج حرٌّ أمةً وأَتَتْ منْهُ بأولادٍ فأولادُه أرقَّاءُ لمالكِ الأمِّ؛ ولهذا اخْتَار شيخُ الإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ الرَّجل إذا كان حرًّا وتزوَّج أمَةً بشَرْطِ أنْ يكُونَ أولادُها أحرارًا فإنَّ ذلِكَ جائزٌ[1]، واستدَلَّ لهذا بقوْلِ الإمامِ أحْمَد رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا تزوَّج الحُرُّ أمةً رقَّ نصفُه»[2]، أي صار نصْفُه رقيقًا، يعْنِي الأولادَ، لكِنْ في هذا القولِ نظَرٌ، والصَّوابُ أنَّه لا يجوز نِكَاحُ الأَمَةِ إلَّا بالشَّرْطَيْن المذْكُورَيْن فِي كتَاب اللهِ[3].

(١) الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٣/ ٩٤).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٣/ ٤٦٦، رقم: ١٦٠٦٥)، والدارمي في سننه (٢/ ٤٨٧، رقم: ٣١٣٥)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٢٦٨، رقم: ١٣١٠٣).

(٣) هو قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۚ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء:٢٥].

▪ وَمِمَّنْ سَبَقُوا إِلَى الإِسْلَامِ صُهَيْبُ الرُّومِيُّ، وَكَانَ مِنَ المَوَالِي.

▪ وَعَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ العَنْسِيُّ، وَقَدْ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَمَا مَعَهُ إِلَّا خَمْسَةُ أَعْبُدٍ وَامْرَأَتَانِ وَأَبُو بَكْرٍ[1]، وَكَذَلِكَ أَسْلَمَ أَبُوهُ يَاسِرُ وَأُمُّهُ سُمَيَّةُ.

▪ وَمِنَ السَّابِقِينَ الأَوَّلِينَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ، كَانَ يَرْعَى الغَنَمَ لِبَعْضِ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ، فَلَمَّا رَأَى الآيَاتِ البَاهِرَةَ وَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ مَكَارِمِ الأَخْلَاقِ تَرَكَ عِبَادَةَ الأَوْثَانِ، وَلَزِمَ رَسُولَ اللهِ، وَكَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَثِيرَ الدُّخُولِ عَلَى الرَّسُولِ لَا يُحْجَبُ، وَيَمْشِي أَمَامَهُ، وَيَسْتُرُهُ إِذَا اغْتَسَلَ، وَيُوقِظُهُ إِذَا نَامَ، وَيُلْبِسُهُ نَعْلَيْهِ إِذَا قَامَ، فَإِذَا جَلَسَ أَدْخَلَهُمَا فِي ذِرَاعَيْهِ.

▪ وَمِنَ السَّابِقِينَ الأَوَّلِينَ أَبُو ذَرٍّ الغِفَارِيُّ، وَكَانَ مِنْ أَعْرَابِ البَادِيَةِ، فَصِيحًا حُلْوَ الحَدِيثِ، وَلَمَّا بَلَغَهُ مَبْعَثُ رَسُولِ اللهِ قَالَ لِأَخِيهِ: ارْكَبْ إِلَى هَذَا الوَادِي فَاعْلَمْ لِي عِلْمَ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ يَأْتِيهِ الخَبَرُ مِنَ السَّمَاءِ، وَاسْمَعْ مِنْ قَوْلِهِ ثُمَّ ائْتِنِي، فَانْطَلَقَ الأَخُ حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ وَسَمِعَ مِنْ قَوْلِ الرَّسُولِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَبِي ذَرٍّ فَقَالَ: رَأَيْتُهُ يَأْمُرُ بِمَكَارِمِ الأَخْلَاقِ، وَيَقُولُ كَلَامًا مَا هُوَ بِالشِّعْرِ، فَقَالَ: مَا شَفَيْتَنِي مِمَّا أَرَدْتُ، فَتَزَوَّدَ وَحَمَلَ قِرْبَةً لَهُ فِيهَا مَاءٌ حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ، فَأَتَى المَسْجِدَ، فَالتَمَسَ النَّبِيَّ ﷺ وَلَا يَعْرِفُهُ، وَكَرِهَ أَنْ يَسْأَلَ عَنْهُ لِمَا يَعْرِفُهُ مِنْ كَرَاهَةِ قُرَيْشٍ لِكُلِّ مَنْ يُخَاطِبُ رَسُولَ اللهِ، حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ اللَّيْلُ رَآهُ عَلِيٌّ فَعَرَفَ أَنَّهُ غَرِيبٌ، فَأَضَافَهُ عِنْدَهُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: **«لو كنت متخذا خليلا»**، رقم (٣٦٦٠).

وَلَمْ يَسْأَلْ أَحَدٌ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ عَنْ شَيْءٍ عَلَى قَاعِدَةِ الضِّيَافَةِ عِنْدَ العَرَبِ لَا يُسْأَلُ الضَّيْفُ عَنْ سَبَبِ قُدُومِهِ إِلَّا بَعْدَ ثَلَاثٍ، فَلَمَّا أَصْبَحَ احْتَمَلَ قِرْبَتَهُ وَزَادَهُ إِلَى المَسْجِدِ، وَظَلَّ ذَلِكَ اليَوْمَ وَلَا يَرَاهُ الرَّسُولُ، حَتَّى أَمْسَى فَعَادَ إِلَى مَضْجَعِهِ، فَمَرَّ بِهِ عَلِيٌّ، فَقَالَ: أَمَا آنَ لِلرَّجُلِ أَنْ يَعْرِفَ مَنْزِلَهُ الَّذِي أُضِيفَ بِهِ بِالأَمْسِ؟ فَأَقَامَهُ فَذَهَبَ مَعَهُ لَا يَسْأَلُ وَاحِدٌ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ عَنْ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا كَانَ اليَوْمُ الثَّالِثُ عَادَ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ لَهُ عَلِيٌّ: أَلَا تُحَدِّثُنِي مَا الَّذِي أَقْدَمَكَ؟ قَالَ: إِنْ أَعْطَيْتَنِي عَهْدًا وَمِيثَاقًا لَتُرْشِدُنِي فَعَلْتُ، فَفَعَلَ فَأَخْبَرَهُ، قَالَ: فَإِنَّهُ حَقٌّ وَهُوَ رَسُولُ اللهِ، فَإِذَا أَصْبَحْتَ فَاتَّبِعْنِي، فَإِنِّي إِنْ رَأَيْتُ شَيْئًا أَخَافُهُ عَلَيْكَ قُمْتُ كَأَنِّي أُرِيقُ المَاءَ، فَإِنْ مَضَيْتُ فَاتَّبِعْنِي حَتَّى تَدْخُلَ مُدْخَلِي، فَفَعَلَ فَانْطَلَقَ يَتَّبِعُ أَثَرَهُ، حَتَّى دَخَلَ عَلَى النَّبِيِّ وَدَخَلَ مَعَهُ، فَسَمِعَ مِنْ قَوْلِهِ وَأَسْلَمَ مَكَانَهُ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**ارْجِعْ إِلَى قَوْمِكَ فَأَخْبِرْهُمْ حَتَّى يَأْتِيَكَ أَمْرِي**»، قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَصْرُخَنَّ بِهَا بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ، فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى المَسْجِدَ، فَنَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَقَامَ القَوْمُ فَضَرَبُوهُ حَتَّى أَضْجَعُوهُ، وَأَتَى العَبَّاسُ فَأَكَبَّ عَلَيْهِ، وَقَالَ: وَيْلَكُمْ أَوَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ مِنْ غِفَارٍ، وَأَنَّ طَرِيقَ تِجَارَتِكُمْ إِلَى الشَّامِ عَلَيْهِ؟ فَأَنْقَذَهُ مِنْهُمْ، ثُمَّ عَادَ مِنَ الغَدِ لِمِثْلِهَا فَضَرَبُوهُ وَثَارُوا إِلَيْهِ، فَأَكَبَّ العَبَّاسُ عَلَيْهِ، رَوَاهُ البُخَارِيُّ[1]، وَكَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ أَصْدَقِ النَّاسِ قَوْلًا، وَأَزْهَدِهِمْ فِي الدُّنْيَا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، رقم (٣٨٦١)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٢٤٧٤).

▪ وَمِنَ السَّابِقِينَ سَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ العَدَوِيُّ القُرَشِيُّ، وَزَوْجُهُ فَاطِمَةُ بِنْتُ الخَطَّابِ، أُخْتُ عُمَرَ.

▪ وَأُمُّ الفَضْلِ لُبَابَةُ بِنْتُ الحَارِثِ الهِلَالِيَّةُ، زَوْجُ العَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ.

▪ وَعُبَيْدَةُ بْنُ الحَارِثِ بْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ.

▪ وَأَبو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الأَسَدِ المَخْزُومِيُّ القُرَشِيُّ، ابْنُ عَمَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَزَوْجُ أُمِّ سَلَمَةَ.

▪ وَعُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ الجُمَحِيُّ القُرَشِيُّ، وَأَخَوَاهُ قُدَامَةُ وَعَبْدُ اللهِ.

▪ وَالأَرْقَمُ بْنُ أَبِي الأَرْقَمِ المَخْزُومِيُّ القُرَشِيُّ.

▪ وَمِنَ السَّابِقِينَ الأَوَّلِينَ خَالِدُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ العَاصِ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ الأُمَوِيُّ القُرَشِيُّ، كَانَ أَبُوهُ سَيِّدَ قُرَيْشٍ، إِذَا اعْتَمَّ لَمْ يَعْتَمَّ قُرَشِيٌّ إِجْلَالًا لَهُ، وَكَانَ خَالِدُ بْنُ سَعِيدٍ قَدْ رَأَى فِي مَنَامِهِ أَنَّهُ سَيَقَعُ فِي هَاوِيَةٍ فَأَدْرَكَهُ رَسُولُ اللهِ، وَخَلَّصَهُ مِنْهَا، فَجَاءَ إِلَيْهِ وَقَالَ: إِلَامَ تَدْعُو يَا مُحَمَّدُ؟ قَالَ: «**أَدْعُوكَ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنْ تَخْلَعَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ حَجَرٍ لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ، وَالإِحْسَانِ إِلَى وَالِدَيْكَ، وَأَنْ لَا تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ الفَقْرِ، وَأَنْ لَا تَقْرَبَ الفَاحِشَةَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَأَنْ لَا تَقْتُلَ نَفْسًا حَرَّمَ اللهُ قَتْلَهَا إِلَّا بِالحَقِّ، وَأَنْ لَا تَقْرَبَ مَالَ اليَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ، وَأَنْ تُوفِيَ الكَيْلَ وَالمِيزَانَ بِالقِسْطِ، وَأَنْ تَعْدِلَ فِي قَوْلِكَ وَلَوْ حَكَمْتَ عَلَى ذَوِي قُرْبَاكَ، وَأَنْ تُوفِيَ لِمَنْ عَاهَدْتَ**»[1]،

---

(١) أخرجه ابن عساكر (٣/ ٤٦٩).

فَأَسْلَمَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وَحِينَئِذٍ غَضِبَ عَلَيْهِ أَبُوهُ وَآذَاهُ حَتَّى مَنَعَهُ القُوتَ، فَانْصَرَفَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَكَانَ يَلْزَمُهُ وَيَعِيشُ مَعَهُ، وَيَغِيبُ عَنْ أَبِيهِ فِي ضَوَاحِي مَكَّةَ، وَأَسْلَمَ بَعْدَهُ أَخُوهُ عَمْرُو بْنُ سَعِيدٍ.

وَهَكَذَا دَخَلَ هَؤُلَاءِ الأَشْرَافُ فِي دِينِ الإِسْلَامِ، وَلَمْ يَكُنْ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ سَيْفٌ يَضْرِبُ بِهِ أَعْنَاقَهُمْ حَتَّى يُطِيعُوهُ صَاغِرِينَ، وَلَيْسَ مَعَهُ مَا يُرْغَبُ فِيهِ حَتَّى يَتْرُكَ هَؤُلَاءِ العُظَمَاءُ آبَاءَهُمْ وَذَوِي الثَّرْوَةِ مِنْهُمْ وَيَتَّبِعُوا الرَّسُولَ لِيَأْكُلُوا مِنْ فَضْلِ مَالِهِ، بَلْ كَانَ الكَثِيرُ مِنْهُمْ وَاسِعَ الثَّرْوَةِ أَكْثَرَ مِنْهُ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ كَأَبِي بَكْرٍ وَعُثْمَانَ وَخَالِدِ بْنِ سَعِيدٍ وَغَيْرِهِمْ.

وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُ مِنَ المَوَالِي اخْتَارُوا الأَذَى وَالجُوعَ وَالمَشَقَّاتِ مَعَ اتِّبَاعِ الرَّسُولِ، بِحَيْثُ لَوِ اتَّبَعُوا سَادَتَهُمْ لَكَانُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا أَهْدَأَ بَالًا، وَأَنْعَمَ عِيشَةً، اللَّهُمَّ لَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا مِنْ هِدَايَةِ اللهِ وَسُطُوعِ أَنْوَارِ الدِّينِ عَلَيْهِمْ، حَتَّى أَدْرَكُوا مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الضَّلَالَةِ، وَمَا عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ مِنَ الهُدَى[١].

الجَهْرُ بِالتَّبْلِيغِ:

مَضَتْ كُلُّ هَذِهِ المُدَّةِ وَالنَّبِيُّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ لَا يُظْهِرُ الدَّعْوَةَ فِي مَجَامِعِ قُرَيْشٍ العُمُومِيَّةِ، وَلَمْ يَكُنِ المُسْلِمُونَ يَتَمَكَّنُونَ مِنْ إِظْهَارِ عِبَادَتِهِمْ حَذَرًا مِنْ تَعَصُّبِ قُرَيْشٍ، فَكَانَ كُلُّ مَنْ أَرَادَ العِبَادَةَ ذَهَبَ إِلَى شِعَابِ مَكَّةَ يُصَلِّي مُسْتَخْفِيًا،.........

---

[١] كلُّ أُولئك الكِرامُ الَّذينَ سبقُوا للإِسْلامِ يُمكِنُ للإِنْسانِ أنْ يعْرِف عنْهُم أَكْثَر حِين يرْجعُ إِلى كِتابِ (الإِصابَةِ فِي تمْييزِ الصَّحابَةِ) لابْنِ حَجَر.

وَلَمَّا دَخَلَ فِي الدِّينِ مَا يَرْبُو عَلَى الثَّلَاثِينَ، وَكَانَ مِنَ اللَّازِمِ اجْتِمَاعُ الرَّسُولِ بِهِمْ لِيُرْشِدَهُمْ وَيُعَلِّمَهُمُ اخْتَارَ لِذَلِكَ دَارَ الأَرْقَمِ بْنِ أَبِي الأَرْقَمِ وَهُوَ مِمَّنْ ذَكَرْنَا إِسْلَامَهُمْ، وَمَكَثَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَدْعُو سِرًّا، حَتَّى نَزَلَ عَلَيْهِ قَوْلُه تَعَالَى فِي سُورَةِ الحِجْرِ: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر:٩٤]، فَبَدَّلَ الدَّعْوَةَ سِرًّا بِالدَّعْوَةِ جَهْرًا مُمْتَثِلًا أَمْرَ رَبِّهِ، وَاثِقًا بِوَعْدِهِ وَنَصْرِهِ، فَصَعَدَ عَلَى الصَّفَا فَجَعَلَ يُنَادِي: «**يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ**»، لِبُطُونِ قُرَيْشٍ فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا لِيَنْظُرَ الخَبَرَ، فَجَاءَ أَبُو لَهَبِ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَقُرَيْشٌ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَرَأَيْتُم لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟**» قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا، قَالَ: «**فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**»، فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ، أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟ فَأَنْزَلَ اللهُ فِي شَأْنِهِ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾ [سورة المسد][1]، وَالقَصْدُ مِنْ حَمْلِ الحَطَبِ المَشْيُ بِالنَّمِيمَةِ؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ تَقُولُ عَلَى رَسُولِ اللهِ الأَكَاذِيبَ فِي نَوَادِي النِّسَاءِ.

ثُمَّ نَزَلَ عَلَيْهِ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، وَهُمْ بَنُو هَاشِمٍ وَبَنُو الْمُطَّلِبِ وَبَنُو نَوْفَلٍ وَبَنُو عَبْدِ شَمْسٍ أَوْلَادُ عَبْدِ مَنَافٍ، ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢١٥ فَإِنْ عَصَوْكَ﴾، أَي العَشِيرُ الأَقْرَبُونَ، ﴿فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾، رقم (٤٧٧٠).

تَعْمَلُونَ ﴾ [الشعراء:٢١٤-٢١٧]، فَجَمَعَهُمْ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وَقَالَ لَهُمْ: «إِنَّ الرَّائِدَ لَا يَكْذِبُ أَهْلَهُ، وَاللهِ لَوْ كَذَبْتُ النَّاسَ جَمِيعًا مَا كَذَبْتُكُمْ، وَلَوْ غَرَرْتُ النَّاسَ جَمِيعًا مَا غَرَرْتُكُمْ، وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنِّي لَرَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ خَاصَّةً، وَإِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَاللهِ لَتَمُوتُنَّ كَمَا تَنَامُونَ وَلَتُبْعَثُنَّ كَمَا تَسْتَيْقِظُونَ وَلَتُحَاسَبُنَّ بِمَا تَعْمَلُونَ، وَلَتُجْزَوُنَّ بِالإِحْسَانِ إِحْسَانًا وَبِالسُّوءِ سُوءًا، وَإِنَّهَا لَجَنَّةٌ أَبَدًا أَوْ لَنَارٌ أَبَدًا»(١). فَتَكَلَّمَ القَوْمُ كَلَامًا لَيِّنًا غَيْرَ عَمِّهِ أَبِي لَهَبٍ الَّذِي كَانَ خَصْمًا لَدُودًا، فَإِنَّهُ قَالَ: خُذُوا عَلَى يَدَيْهِ قَبْلَ أَنْ تَجْتَمِعَ عَلَيْهِ العَرَبُ، فَإِنْ أَسْلَمْتُمُوهُ حِينَئِذٍ ذَلَلْتُم، وَإِنْ مَنَعْتُمُوهُ قُتِلْتُمْ، فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: وَاللهِ لَنَمْنَعَنَّهُ مَا بَقِينَا[١].

ثُمَّ انْصَرَفَ الجَمْعُ، وَلَمَّا جَهَرَ رَسُولُ اللهِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بِالدَّعْوَةِ سَخِرَتْ مِنْهُ قُرَيْشٌ، وَاسْتَهْزَؤُوا بِهِ فِي مَجَالِسِهِمْ، فَكَانَ إِذَا مَرَّ عَلَيْهِمْ يَقُولُونَ:................

---

[١] في هذَا حكمَةٌ، وهِي أنَّ أعمامَه انقَسُموا أربعةَ أقْسامٍ: كافِرٌ، ومسْلِمٌ، والكَافر قِسْمان: عدوٌّ لدُودٌ وهُو أبُو لهبٍ، وصدِيقٌ حميمٌ وهُوَ أبو طالبٍ، كانَ مُدافعًا ناصِرًا، أمَّا المسْلِم فهُم أيضًا قسمانِ: قسْمٌ تأخَّر إسلامُه، ولم يكُنْ له سابِقَةٌ، وهُو العبَّاس بْن عبدِ المطَّلب، وآخَرُ تقدَّم إسلامُه وكانَ له سابِقةٌ، وأبْلَى بَلاءً حسنًا وقُتِل شهيدًا وهُو حمْزَة.

وهَذا مِن حكْمَة اللهِ عَزَّوَجَلَّ أنْ جعَل أعمامَه انقَسَمُوا هَذه الأقسامَ الأربعَ: مُسلِمٌ سابِقٌ، ومسلِمٌ دُونَه، وكافِرٌ لدُودٌ، وكافِرٌ صدِيقٌ.

---

(١) أخرجه الطبراني في الأحاديث الطوال (١/ ٢٥٧).

هَذَا ابْنُ أَبِي كَبْشَةَ يُكَلَّمُ مِنَ السَّمَاءِ، وَهَذَا غُلَامُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ يُكَلَّمُ مِنَ السَّمَاءِ، لَا يَزِيدُونَ عَلَى ذَلِكَ، فَلَمَّا عَابَ آلِهَتَهُمْ وَسَفَّهَ عُقُولَهُمْ وَقَالَ لَهُمْ: وَاللهِ يَا قَوْمِ، لَقَدْ خَالَفْتُمْ دِينَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ، ثَارَتْ فِي رُؤُوسِهِمْ حَمِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةِ غَيْرَةً عَلَى تِلْكَ الْآلِهَةِ الَّتِي كَانَ يَعْبُدُهَا آبَاؤُهُمْ، فَذَهَبُوا إِلَى عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ سَيِّدِ بَنِي هَاشِمٍ، الَّذِي أَخَذَ عَلَى نَفْسِهِ حِمَايَتَهُ مِنْ أَيْدِي أَعْدَائِهِ، فَطَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يُخْلِيَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ أَوْ يَكُفَّهُ عَمَّا يَقُولُ فَرَدَّهُمْ رَدًّا جَمِيلًا، فَانْصَرَفُوا عَنْهُ وَمَضَى رَسُولُ اللهِ لِمَا يُرِيدُهُ لَا يَصُدُّهُ عَنْ مُرَادِهِ شَيْءٌ، فَتَزَايَدَ الْأَمْرُ، وَأَضْمَرَتْ قُرَيْشٌ الْحِقْدَ وَالْعَدَاوَةَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وَحَثَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَى ذَلِكَ، ثُمَّ مَشَوْا إِلَى أَبِي طَالِبٍ مَرَّةً أُخْرَى، وَقَالُوا لَهُ: إِنَّ لَكَ سِنًّا وَشَرَفًا وَمَنْزِلَةً مِنَّا، وَإِنَّا قَدْ طَلَبْنَا مِنْكَ أَنْ تَنْهَى ابْنَ أَخِيكَ فَلَمْ تَنْهَهُ عَنَّا، وَإِنَّا وَاللهِ لَا نَصْبِرُ عَلَى هَذَا مِنْ شَتْمِ آبَائِنَا وَتَسْفِيهِ عُقُولِنَا وَعَيْبِ آلِهَتِنَا، فَإِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا احْتَجُّوا بِالتَّقْلِيدِ فِي اسْتِمْرَارِهِمْ عَلَى عَدَمِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ ذَمَّهُمْ لِعَدَمِ اسْتِعْمَالِ عُقُولِهِمْ فِيمَا خُلِقَتْ لَهُ، قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٧٠]، وَقَالَ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة:١٠٤]، وَقَالَ فِي سُورَةِ لُقْمَانَ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [لقمان:٢١]، وَقَالَ فِي سُورَةِ الزُّخْرُفِ فِي بَيَانِ حُجَّتِهِمُ الدَّاحِضَةِ: ﴿قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٣]، وَلَمَّا

شَبَّهَهُمْ بِمَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الأُمَمِ فِي هَذِهِ المَقَالَةِ الدَّالَّةِ عَلَى التَّعَصُّبِ وَالعِنَادِ قَالَ: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف:٢٤]، فَلَـمَّا تَمَسَّكُوا بِحُجَّةِ التَّقْلِيدِ لِآبَائِهِمْ جَرَّ ذَلِكَ إِلَى وَصْفِ آبَائِهِمْ بِعَدَمِ العَقْلِ وَعَدَمِ الهِدَايَةِ، فَهَاجَ ذَلِكَ أَضْغَانَهُمْ، وَقَالُوا لِأَبِي طَالِبٍ: إِمَّا أَنْ تَكُفَّهُ أَوْ نُنَازِلَهُ وَإِيَّاكَ فِي ذَلِكَ حَتَّى يَهْلِكَ أَحَدُ الفَرِيقَيْنِ، ثُمَّ انْصَرَفُوا، فَعَظُمَ عَلَى أَبِي طَالِبٍ انْصِرَافُ قَوْمِهِ، وَلَمْ يَطِبْ نَفْسًا بِخُذْلَانِ ابْنِ أَخِيهِ، فَقَالَ لَهُ: يَا ابْنَ أَخِي! إِنَّ القَوْمَ جَاءُوا لِي فَقَالُوا لِي كَذَا، فَأَبْقِ عَلَى نَفْسِكَ وَلَا تُحَمِّلْنِي مِنَ الأَمْرِ مَا لَا أُطِيقُ، فَظَنَّ الرَّسُولُ أَنَّ عَمَّهُ خَاذِلُهُ، فَقَالَ: «**وَاللهِ يَا عَمِّي، لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي وَالقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الأَمْرَ مَا فَعَلْتُ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللهُ أَوْ أَهْلَكَ دُونَهُ**»، ثُمَّ بَكَى وَوَلَّى، فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: أَقْبِلْ يَا ابْنَ أَخِي، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: اذْهَبْ فَقُلْ مَا أَحْبَبْتَ، وَاللهِ لَا أُسْلِمُكَ[1].

الإِيذَاءُ:

وَرَأَى رَسُولُ اللهِ مِنَ المُشْرِكِينَ كَثِيرَ الأَذَى، وَعَظِيمَ الشِّدَّةِ، خُصُوصًا إِذَا ذَهَبَ إِلَى الصَّلَاةِ عِنْدَ البَيْتِ، وَكَانَ مِنْ أَعْظَمِهِمْ أَذًى لِرَسُولِ اللهِ جَمَاعَةٌ سُمُّوا لِكَثْرَةِ أَذَاهُمْ بِالمُسْتَهْزِئِينَ:

- فَأَوَّلُهُمْ وَأَشَدُّهُمْ أَبُو جَهْلٍ عَمْرُو بْنُ هِشَامِ بْنِ المُغِيرَةِ المَخْزُومِيُّ القُرَشِيُّ، قَالَ يَوْمًا: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ أَتَى مَا تَرَوْنَ مِنْ عَيْبِ دِينِكُمْ وَشَتْمِ

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٢٧٧).

آلِهَتِكُمْ وَتَسْفِيهِ أَحْلَامِكُمْ وَسَبِّ آبَائِكُمْ، إِنِّي أُعَاهِدُ اللهَ لَأَجْلِسَنَّ لَهُ غَدًا بِحَجَرٍ لَا أُطِيقُ حَمْلَهُ، فَإِذَا سَجَدَ فِي صَلَاتِهِ رَضَخْتُ بِهِ رَأْسَهُ، فَأَسْلِمُونِي عِنْدَ ذَلِكَ أَوِ امْنَعُونِي، فَلْيَصْنَعْ بِي بَعْدَ ذَلِكَ بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ مَا بَدَا لَهُمْ، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَخَذَ حَجَرًا كَمَا وَصَفَ، ثُمَّ جَلَسَ لِرَسُولِ اللهِ يَنْتَظِرُهُ، وَغَدَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَمَا كَانَ يَغْدُو إِلَى صَلَاتِهِ وَقُرَيْشٌ فِي أَنْدِيَتِهِمْ يَنْتَظِرُونَ مَا أَبُو جَهْلٍ فَاعِلٌ، فَلَمَّا سَجَدَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ احْتَمَلَ أَبُو جَهْلٍ الحَجَرَ وَأَقْبَلَ نَحْوَهُ، حَتَّى إِذَا دَنَا مِنْهُ رَجَعَ مُنْهَزِمًا مُنْتَقِعًا لَوْنُهُ مِنَ الفَزَعِ، وَرَمَى حَجَرَهُ مِنْ يَدِهِ، فَقَامَ إِلَيْهِ رِجَالٌ مِنْ قُرَيْشٍ فَقَالُوا: مَا لَكَ يَا أَبَا الحَكَمِ؟ قَالَ: قُمْتُ إِلَيْهِ لِأَفْعَلَ مَا قُلْتُ لَكُمْ، فَلَمَّا دَنَوْتُ مِنْهُ عَرَضَ لِي فَحْلٌ مِنَ الإِبِلِ، وَاللهِ مَا رَأَيْتُ مِثْلَهُ قَطُّ، هَمَّ بِي أَنْ يَأْكُلَنِي، فَلَمَّا ذُكِرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ قَالَ: ذَاكَ جِبْرِيلُ، وَلَوْ دَنَا لَأَخَذَهُ[(١)].

وَكَانَ أَبُو جَهْلٍ كَثِيرًا مَا يَنْهَى الرَّسُولَ عَنْ صَلَاتِهِ فِي البَيْتِ، فَقَالَ لَهُ مَرَّةً بَعْدَ أَنْ رَآهُ يُصَلِّي: أَلَمْ أَنْهَكَ عَنْ هَذَا؟ فَأَغْلَظَ لَهُ رَسُولُ اللهِ القَوْلَ، وَهَدَّدَهُ فَقَالَ: أَتُهَدِّدُنِي وَأَنَا أَكْثَرُ أَهْلِ الوَادِي نَادِيًا؟ فَأَنْزَلَ اللهُ تَهْدِيدًا لَهُ فِي آخِرِ سُورَةِ اقْرَأْ: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾ [العلق:١٥-١٩]، وَمِنْ أَذِيَّتِهِ لِلرَّسُولِ مَا حَكَاهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ مِنْ رِوَايَةِ البُخَارِيِّ[(٢)]، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ فِي المَسْجِدِ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: أَلَا رَجُلٌ يَقُومُ إِلَى فَرْثِ جَزُورِ بَنِي فُلَانٍ فَيُلْقِيهِ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ سَاجِدٌ؟

---

(١) السير والمغازي (١٩٩، ٢٠٠)، وتاريخ الإسلام (السيرة) (١٥٣، ١٥٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب المرأة تطرح عن المصلي شيئًا من الأذى، رقم (٥٢٠).

فَقَامَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مَعيط بْنِ أَبِي عَمْرِو بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ، وَجَاءَ بِذَلِكَ الفَرْثِ فَأَلْقَاهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَلَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ كَانُوا بِالْمَسْجِدِ عَلَى إِلْقَائِهِ عَنْهُ لِضَعْفِهِمْ عَنْ مُقَاوَمَةِ عَدُوِّهِمْ، وَلَمْ يَزَلْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سَاجِدًا حَتَّى جَاءَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُهُ فَأَخَذَتِ القَذَرَ وَرَمَتْهُ، فَلَمَّا قَامَ دَعَا عَلَى مَنْ صَنَعَ هَذَا الصُّنْعَ القَبِيحَ، فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِالْمَلَأِ مِنْ قُرَيْشٍ**» وَسَمَّى أَقْوَامًا، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: فَرَأَيْتُهُمْ قُتِلُوا يَوْمَ بَدْرٍ.

وَمِمَّا حَصَلَ لِرَسُولِ اللهِ مَعَ أَبِي جَهْلٍ أَنَّ هَذَا ابْتَاعَ أَجْمَالًا مِنْ رَجُلٍ يُقَالُ لَهُ: الإِرَاشِيَّ، فَمَطَلَهُ بِأَثْمَانِهَا، فَجَاءَ الرَّجُلُ مَجْمَعَ قُرَيْشٍ يُرِيدُ مِنْهُمْ مُسَاعَدَةً عَلَى أَخْذِ مَالِهِ، فَدَلُّوهُ عَلَى رَسُولِ اللهِ لِيُنْصِفَهُ مِنْ أَبِي جَهْلٍ؛ اسْتِهْزَاءً لِمَا يَعْلَمُونَهُ مِنْ أَفْعَالِ ذَلِكَ الشَّقِيِّ بِالرَّسُولِ، فَتَوجَّهَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ، وَطَلَبَ مِنْهُ الْمُسَاعَدَةَ عَلَى أَبِي جَهْلٍ، فَخَرَجَ مَعَهُ حَتَّى ضَرَبَ عَلَيْهِ بَابَهُ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، فَخَرَجَ مُنْتَقِعًا لَوْنُهُ، فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ: «أَعْطِ هَذَا حَقَّهُ»، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: لَا تَبْرَحُ حَتَّى تَأْخُذَهُ، فَلَمْ يَبْرَحِ الرَّجُلُ حَتَّى أَخَذَ دَيْنَهُ، فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: وَيْلَكَ يَا أَبَا الحَكَمِ! مَا رَأَيْنَا مِثْلَ مَا صَنَعْتَ، قَالَ: وَيْحَكُمْ، وَاللهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ ضَرَبَ عَلَيَّ بَابِي حَتَّى سَمِعْتُ صَوْتَهُ فَمُلِئْتُ مِنْهُ رُعْبًا، ثُمَّ خَرَجْتُ إِلَيْهِ وَإِنَّ فَوْقَ رَأْسِي فَحْلًا مِنَ الإِبِلِ، مَا رَأَيْتُ مِثْلَهُ قَطُّ، لَوْ أَبَيْتُ أَوْ تَأَخَّرْتُ لَأَكَلَنِي.

▪ وَمِنْ جَمَاعَةِ الْمُسْتَهْزِئِينَ أَبُو لَهَبِ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَمُّ رَسُولِ اللهِ، كَانَ أَشَدَّ عَلَيْهِ مِنَ الأَبَاعِدِ، فَكَانَ يَرْمِي القَذَرَ عَلَى بَابِهِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ جَارًا لَهُ، فَكَانَ الرَّسُولُ يَطْرَحُهُ وَيَقُولُ: يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ أَيُّ جِوَارٍ هَذَا؟.

▪ وَكَانَتْ تُشَارِكُهُ فِي قَبِيحِ عَمَلِهِ زَوْجُهُ أُمُّ جَمِيلٍ بِنْتُ حَرْبِ بْنِ أُمَيَّةَ، فَكَانَتْ كَثِيرًا مَا تَسُبُّ رَسُولَ اللهِ، وَتَتَكَلَّمُ فِيهِ بِالنَّمَائِمِ، وَخُصُوصًا بَعْدَ أَنْ نَزَلَ فِيهَا وَفِي زَوْجِهَا سُورَةُ أَبِي لَهَبٍ.

▪ وَمِنَ الْمُسْتَهْزِئِينَ عُقْبَةُ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ، كَانَ الْجَارَ الثَّانِيَ لِرَسُولِ اللهِ، وَكَانَ يَعْمَلُ مَعَهُ كَأَبِي لَهَبٍ، صَنَعَ مَرَّةً وَلِيمَةً وَدَعَا لَهَا كُبَرَاءَ قُرَيْشٍ، وَفِيهِمْ رَسُولُ اللهِ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَاللهِ لَا آكُلُ طَعَامَكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِاللهِ**» فَتَشَهَّدَ، فَبَلَغَ ذَلِكَ أُبَيَّ بْنَ خَلَفٍ الْجُمَحِيَّ الْقُرَشِيَّ، وَكَانَ صَدِيقًا لَهُ، فَقَالَ: مَا شَيْءٌ بَلَغَنِي عَنْكَ؟ قَالَ: لَا شَيْءَ دَخَلَ مَنْزِلِي رَجُلٌ شَرِيفٌ، فَأَبَى أَنْ يَأْكُلَ طَعَامِي حَتَّى أَشْهَدَ لَهُ، فَاسْتَحْيَيْتُ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ بَيْتِي وَلَمْ يَطْعَمْ، فَشَهِدْتُ لَهُ، قَالَ أُبَي: وَجْهِي مِنْ وَجْهِكَ حَرَامٌ إِنْ لَقِيتَ مُحَمَّدًا فَلَمْ تَطَأْ عُنُقَهُ وَتَبْزُقَ فِي وَجْهِهِ وَتَلْطُمَ عَيْنَهُ، فَلَمَّا رَأَى عُقْبَةُ رَسُولُ اللهِ فَعَلَ بِهِ ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ فِيهِ فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان:٢٧-٢٩]، وَمِنْ أَشَدِّ مَا صَنَعَهُ ذَلِكَ الشَّقِيُّ بِرَسُولِ اللهِ مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ(١)، قَالَ: بَيْنَمَا النَّبِيُّ يُصَلِّي فِي حِجْرِ الكَعْبَةِ إِذْ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ، فَوَضَعَ ثَوْبَهُ فِي عُنُقِ رَسُولِ اللهِ، فَخَنَقَهُ خَنْقًا شَدِيدًا، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى أَخَذَهُ بِمِنْكَبِهِ، وَدَفَعَهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَالَ: أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ؟! وَقَدْ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: «**لو كنت متخذا خليلا**»، رقم (٣٦٧٨).

جَاءَكُمْ بِالبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ.

▪ وَمِنْ جَمَاعَةِ الْمُسْتَهْزِئِينَ العَاصِ بْنُ وَائِلٍ السَّهْمِيُّ القُرَشِيُّ، وَالِدُ عَمْرِو بْنِ العَاصِ، كَانَ شَدِيدَ العَدَاوَةِ لِرَسُولِ اللهِ، وَكَانَ يَقُولُ: غَرَّ مُحَمَّدٌ أَصْحَابَهُ أَنْ يَحْيَوْا بَعْدَ المَوْتِ، وَاللهِ مَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ، فَقَالَ اللهُ رَدًّا عَلَيْهِ فِي دَعْوَاهُ فِي سُورَةِ الجَاثِيَةِ: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية:٢٤]، وَكَانَ عَلَيْهِ دَيْنٌ لِخَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ أَحَدِ رِجَالِ الْمُسْلِمِينَ فَتَقَاضَاهُ إِيَّاهُ، فَقَالَ العَاصِ: أَلَيْسَ يَزْعُمُ مُحَمَّدٌ أَنْتَ الَّذِي عَلَى دِينِهِ أَنَّ فِي الجَنَّةِ مَا يَبْتَغِي أَهْلُهَا مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ أَوْ ثِيَابٍ أَوْ خَدَمٍ؟ قَالَ خَبَّابٌ: بَلَى، قَالَ: فَأَنْظِرْنِي إِلَى هَذَا اليَوْمِ فَسَأُوتَى مَالًا وَوَلَدًا وَأَقْضِيكَ دَيْنَكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ فِي سُورَةِ مَرْيَمَ: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم:٧٧-٨٠].

▪ وَمِنْ جَمَاعَةِ الْمُسْتَهْزِئِينَ الأَسْوَدُ بْنُ عَبْدِ يَغُوثَ الزُّهْرِيُّ القُرَشِيُّ مِنْ بَنِي زُهْرَةَ أَخْوَالِ رَسُولِ اللهِ، كَانَ إِذَا رَأَى أَصْحَابَ النَّبِيِّ مُقْبِلِينَ يَقُولُ: قَدْ جَاءَكُمْ مُلُوكُ الأَرْضِ، اسْتِهْزَاءً بِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا مُتَقَشِّفِينَ، ثِيَابُهُمْ رَثَّةٌ وَعَيْشُهُمْ خَشِنٌ، وَكَانَ يَقُولُ لِرَسُولِ اللهِ سُخْرِيَةً: أَمَا كُلِّمْتَ اليَوْمَ مِنَ السَّمَاءِ؟

▪ وَمِنْهُمُ الأَسْوَدُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ الأَسَدِيُّ، ابْنُ عَمِّ خَدِيجَةَ، كَانَ هُوَ وَشِيعَتُهُ إِذَا مَرَّ عَلَيْهِمُ الْمُسْلِمُونَ يَتَغَامَزُونَ، وَفِيهِمْ نَزَلَ فِي سُورَةِ الْمُطَفِّفِينَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ

أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين:٢٩-٣٢].

▪ وَمِنْهُمُ الوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَة، عَمُّ أَبِي جَهْلٍ، كَانَ مِنْ عُظَمَاءِ قُرَيْشٍ، وَفِي سَعَةٍ مِنَ العَيْشِ، سَمِعَ القُرْآنَ مَرَّةً مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ لِقَوْمِهِ بَنِي مَخْزُوم: وَاللهِ لَقَدْ سَمِعْتُ مِنْ مُحَمَّدٍ آنِفًا كَلَامًا مَا هُوَ مِنْ كَلَامِ الإِنْسِ وَلَا مِنْ كَلَامِ الجِنِّ، وَإِنَّ لَهُ لَحَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّ أَعْلَاهُ لَمُثْمِرٌ، وَإِنَّ أَسْفَلَهُ لَمُغْدِقٌ، وَإِنَّهُ يَعْلُو وَمَا يُعْلَى، فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: صَبَأَ وَاللهِ الوَلِيدُ، لَتَصْبَأَنَّ قُرَيْشٌ كُلُّهَا، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: أَنَا أَكْفِيكُمُوهُ، فَتَوَجَّهَ وَقَعَدَ إِلَيْهِ حَزِينًا، وَكَلَّمَهُ بِمَا أَحْمَاهُ، فَقَامَ فَأَتَاهُمْ فَقَالَ: تَزْعُمُونَ أَنَّ مُحَمَّدًا مَجْنُونٌ، فَهَلْ رَأَيْتُمُوهُ يُهَوِّسُ؟ وَتَقُولُونَ إِنَّهُ كَاهِنٌ، فَهَلْ رَأَيْتُمُوهُ يَتَكَهَّنُ؟ وَتَزْعُمُونَ أَنَّهُ شَاعِرٌ، فَهَلْ رَأَيْتُمُوهُ يَتَعَاطَى شِعْرًا قَطُّ؟ وَتَزْعُمُونَ أَنَّهُ كَذَّابٌ، فَهَلْ جَرَّبْتُمْ عَلَيْهِ شَيْئًا مِنَ الكَذِبِ؟ فَقَالُوا فِي كُلِّ ذَلِكَ: اللَّهُمَّ لَا، ثُمَّ قَالُوا: فَمَا هُوَ؟ فَفَكَّرَ قَلِيلًا ثُمَّ قَالَ: مَا هُوَ إِلَّا سَاحِرٌ، أَمَا رَأَيْتُمُوهُ يُفَرِّقُ بَيْنَ الرَّجُلِ وَأَهْلِهِ وَوَلَدِهِ وَمَوَالِيهِ؟ فَارْتَجَّ النَّادِي فَرَحًا، فَأَنْزَلَ اللهُ فِي شَأْنِ الوَلِيدِ فِي سُورَةِ الْمُدَّثِرِ، مُخَاطِبًا لِرَسُولِهِ: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر:١١- ٢٦]، وَأَنْزَلَ فِيهِ أَيْضًا فِي سُورَةِ نُ: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾، كَثِيرِ الحَلِفِ، وَكَفَى بِهَذَا زَاجِرًا لِمَنِ اعْتَادَ الحَلِفَ، ﴿مَّهِينٍ﴾ حَقِيرٍ، وَأَرَادَ بِهِ الكَذَّابَ؛ لِأَنَّهُ حَقِيرٌ

فِي نَفْسِهِ، ﴿هَمَّازٍ﴾ عَيَّابٍ طَعَّانٍ، ﴿مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾ بِنَقْلِ الأَحَادِيثِ لِلإِفْسَادِ بَيْنَ النَّاسِ، ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ﴾ غَلِيظٍ جَافٍ، ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ دَخِيلٍ، ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ [القلم:١٠-١٦]، كِنَايَةٌ عَنِ الإِذْلَالِ وَالتَّحْقِيرِ؛ لِأَنَّ الوَجْهَ أَكْرَمُ عُضْوٍ، وَالأَنْفُ أَشْرَفُ مَا فِيهِ، وَلِذَلِكَ اشْتَقُّوا مِنْهُ كُلَّ مَا يَدُلُّ عَلَى العَظَمَةِ كَالأَنَفَةِ، وَهِيَ الحَمِيَّةُ، فَالوَسْمُ عَلَى أَشْرَفِ عُضْوٍ دَلِيلُ الإِذْلَالِ وَالإِهَانَةِ[١].

▪ وَمِنَ المُسْتَهْزِئِينَ النَّضْرُ بْنُ الحَارِثِ العَبْدَرِيُّ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ بْنِ قُصَيٍّ، كَانَ إِذَا جَلَسَ رَسُولُ اللهِ مَجْلِسًا لِلنَّاسِ يُحَدِّثُهُمْ وَيُذَكِّرُهُمْ مَا أَصَابَ مَنْ قَبْلَهُمْ، قَالَ النَّضْرُ: هَلُمُّوا يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، فَإِنِّي أَحْسَنُ مِنْهُ حَدِيثًا، ثُمَّ يُحَدِّثُ عَنْ مُلُوكِ فَارِسَ، وَكَانَ يَعْلَمُ أَحَادِيثَهُمْ، وَيَقُولُ: مَا أَحَادِيثُ مُحَمَّدٍ إِلَّا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ، وَفِيهِ نَزَلَ فِي سُورَةِ لُقْمَانَ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ

---

[١] وَمِمَّا نَاسَبَهُ أيضًا أن الخُرطُومَ منه يخرُج الكَلامُ، فكَان من المناسِبِ أنْ يكُونَ العذابُ علَى مَا حصَل بِه الجُرْم، ونظيرُ هذَا قولُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِه وسلَّم: «وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ»(١)، لَمَّا حصلَتِ المخالَفةُ فِيها في الوُضوءِ، وقولُه: «مَا أَسْفَلَ مِنَ الكَعْبَيْنِ فَفِي النَّارِ»(٢)، لما حصَلتِ المخالَفةُ فِيها نزَل عن الكَعْبَيْن، والمهمُّ أنَّه ذكر الخُرطُومَ لأنَّه المحَلُّ الَّذي حصَلَتْ بِه المعصِيَةُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب من رفع صوته بالعلم، رقم (٦٠)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب وجوب غسل الرجلين بكمالهما، رقم (٢٤٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب ما أسفل من الكعبين فهو في النار، رقم (٥٧٨٧).

بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان:٦-٧].

وَكُلُّ هَـؤُلَاءِ انْتَقَمَ اللهُ مِنْهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي التَّنْزِيلِ فِي سُـورَةِ الحِجْرِ: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر:٩٥-٩٦]، وَقَدْ وَضَعَ اللهُ جَلَّ ذِكْرُهُ الوَعْدَ فِي صُـورَةِ المَاضِي لِلتَّحَقُّقِ مِنْ وُقُـوعِهِ؛ لِأَنَّ الآيَةَ مَكِّيَّةٌ، وَهَـلَاكُ هَذِهِ الفِئَةِ كَانَ بَعْدَ الهِجْرَةِ، فَمِنْهُمْ مَنْ قُتِلَ كَأَبِي جَهْلٍ وَالنَّضْرِ بْنِ الحَارِثِ وَعُقْبَةِ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ، وَمِنْهُمْ مَنِ ابْتَلَاهُ اللهُ بِأَمْرَاضٍ شَدِيدَةٍ فَهَلَكَ مِنْهَا كَأَبِي لَهَبٍ وَالعَاصِ بْنِ وَائِلٍ وَالوَلِيدِ بْنِ المُغِيرَةِ.

إِسْلَامُ حَمْزَةَ:

وَكَانَ بَعْضُ إِيذَائِهِمْ هَـذَا سَبَبًا لِإِسْلَامِ عَمِّهِ حَمْـزَةَ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، فَقَدْ أَدْرَكَتْهُ الحَمِيَّةُ عِنْدَمَا عَيَّرَتْهُ بَعْضُ الجَوَارِي بِإِيذَاءِ أَبِي جَهْلٍ لِابْنِ أَخِيهِ، فَتَوَجَّهَ إِلَى ذَلِكَ الشَّقِيِّ وَغَاضَبَهُ وَسَبَّهُ، وَقَالَ: كَيْفَ تَسُبُّ مُحَمَّدًا وَأَنَا عَلَى دِينِهِ، ثُمَّ أَنَارَ اللهُ بَصِيرَتَهُ بِنُورِ اليَقِـينِ، حَتَّى صَارَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ إِسْلَامًا، وَأَشَدِّهِمْ غَـيْرَةً عَلَى المُسْلِمِينَ، وَأَقْوَاهُمْ شَكِيمَةً عَلَى أَعْدَاءِ الدِّينِ، حَتَّى سُمِّيَ أَسَدُ اللهِ.

وَكَمَا أُوذِيَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أُوذِيَ أَصْحَابُهُ لِاتِّبَاعِهِمْ لَهُ، خُصُوصًا مَنْ لَيْسَ لَهُ عَشِيرَةٌ تَحْـمِيهِ وَتَرُدُّ كَيْدَ عَدُوِّهِ عَنْهُ، وَكُلُّ هَـذَا الأَذَى كَانَ حُلْوًا فِي أَعْيُنِهِمْ مَا دَامَ فِيهِ رِضَاءُ اللهِ، فَلَمْ يُفْتَنُوا عَنْ دِينِهِمْ، بَلْ ثَبَّتَهُمُ اللهُ حَتَّى أَتَمَّ أَمْرَهُ عَلَى أَيْدِيهِمْ، وَصَارُوا مُلُوكَ الأَرْضِ بَعْدَ أَنْ كَانُوا مُسْتَضْعَفِينَ فِيهَا، كَمَا قَالَ جَلَّ

ذِكْـرُهُ فِي سُـورَةِ القَصَصِ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص:٥]، وَقَدْ حَقَّقَ مَا أَرَادَ.

▪ وَمِـنَ الَّذِينَ أُوذُوا فِي اللهِ بِلَالُ بْنُ رَبَاحٍ، كَانَ مَمْلُـوكًا لِأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ الجُمَحِيِّ القُرَشِيِّ، فَكَانَ يَجْعَلُ فِي عُنُقِهِ حَبْلًا، وَيَدْفَعُهُ إِلَى الصِّبْيَانِ يَلْعَبُونَ بِهِ، وَهُوَ يَقُولُ: أَحَدٌ أَحَدٌ، لَمْ يَشْغَلْهُ مَا هُوَ فِيهِ عَنْ تَوْحِيدِ اللهِ، وَكَانَ أُمَيَّةُ يَخْرُجُ بِهِ فِي وَقْتِ الظَّهِيرَةِ فِي الرَّمْضَاءِ- وَهِيَ الرَّمْلُ الشَّدِيدُ الحَرَارَةِ لَوْ وُضِعَتْ عَلَيْهِ قِطْعَةُ لَحْمٍ لَنَضِجَتْ- ثُمَّ يَأْمُرُ بِالصَّخْرَةِ العَظِيمَةِ فَتُوضَعُ عَلَى صَدْرِهِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: لَا تَزَالُ هَكَذَا حَتَّى تَمُوتَ أَوْ تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ وَتَعْبُدَ اللَّاتِ وَالعُزَّى، فَيَقُولُ: أَحَدٌ أَحَدٌ.

مَرَّ بِهِ أَبُو بَكْرٍ يَوْمًا فَقَالَ: يَا أُمَيَّةُ! أَمَا تَتَّقِي اللهَ فِي هَذَا المِسْكِينِ؟ حَتَّى مَتَى تُعَذِّبُهُ؟! قَالَ: أَنْتَ أَفْسَدْتَهُ فَأَنْقِذْهُ مِمَّا تَرَى. فَاشْـتَرَاهُ مِنْهُ وَأَعْتَقَهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ فِيهِ وَفِي أُمَيَّةَ فِي سُورَةِ اللَّيْلِ: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل:١٤-٢١] بِمَا يُعْطِيهِ اللهُ فِي الأُخْرَى جَزَاءَ أَعْمَالِهِ.

وَقَدْ نَبَّهَ اللهُ جَلَّ ذِكْرُهُ عَلَى أَنَّ بَذْلَ الصِّدِّيقِ مَالَهُ فِي شِرَاءِ بِلَالٍ وَعِتْقَهُ لَمْ يَكُنْ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ، وَكَفَى بِهَذَا شَرَفًا وَفَضْلًا لِلصِّدِّيقِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-، وَقَدْ أَعْتَقَ غَيْرَ بِلَالٍ جَمَاعَةً مِنَ الأَرِقَّاءِ أَسْلَمُوا فَعَابَهُمْ مَوَالِيهِمْ.

▪ وَمِنْهُمْ حَمَامَةُ أُمُّ بِلَالٍ.

▪ وَعَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ، كَانَ يُعَذَّبُ حَتَّى لَا يَدْرِي مَا يَقُولُ.

▪ وَأَبُو فُكَيْهَةَ، كَانَ عَبْدًا لِصَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ.

▪ وَمِنْهُمُ امْرَأَةٌ تُسَمَّى زِنِّيرَةَ، عُذِّبَتْ فِي اللهِ حَتَّى عَمِيَتْ، فَلَمْ يَزِدْهَا ذَلِكَ إِلَّا إِيمَانًا، وَكَانَ أَبُو جَهْلٍ يَقُولُ: أَلَا تَعْجَبُونَ لِهَؤُلَاءِ وَأَتْبَاعِهِمْ، لَوْ كَانَ مَا أَتَى بِهِ مُحَمَّدٌ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ، أَفَتَسْبِقُنَا زِنِّيرَةُ إِلَى رُشْدٍ؟! فَأَنْزَلَ اللهُ فِي سُورَةِ الأَحْقَافِ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف:١١].

▪ وَمِمَّنْ أَعْتَقَ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَ شِرَائِهِ أُمُّ عُنَيْسٍ، كَانَتْ أَمَةً لِبَنِي زُهْرَةَ، وَكَانَ يُعَذِّبُهَا الأَسْوَدُ بْنُ عَبْدِ يَغُوثَ.

▪ وَمِمَّنْ عُذِّبَ فِي اللهِ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ وَأَخُوهُ وَأَبُوهُ وَأُمُّهُ، كَانُوا يُعَذَّبُونَ بِالنَّارِ فَمَرَّ بِهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**صَبْرًا آلَ يَاسِرٍ، فَمَوْعِدُكُمُ الجَنَّةَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِآلِ يَاسِرٍ**»[1]، وَقَدْ فَعَلَتْ. أَمَّا أَبُو عَمَّارٍ وَأُمُّهُ فَمَاتَا تَحْتَ العَذَابِ رَحِمَهُمَا اللهُ، وَأَمَّا هُوَ فَثَقُلَ عَلَيْهِ العَذَابُ فَقَالَ بِلِسَانِهِ كَلِمَةَ الكُفْرِ، فَإِنَّ أَبَا جَهْلٍ كَانَ يَجْعَلُ لَهُ دُرُوعًا مِنَ الحَدِيدِ فِي اليَوْمِ الصَّائِفِ وَيُلْبِسُهُ إِيَّاهَا، فَقَالَ المُسْلِمُونَ: كَفَرَ عَمَّارٌ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**عَمَّارٌ مَلِيءٌ إِيمَانًا مِنْ فَرْقِهِ**[2] **إِلَى قَدَمِهِ**»، وَأَنْزَلَ اللهُ فِي شَأْنِهِ اسْتِثْنَاءً فِي حُكْمِ المُرْتَدِّ، فَقَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ فِي سُورَةِ النَّحْلِ: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ

(١) أخرجه أبو نعيم فى الحلية (١/ ١٤٠)، وابن عساكر (٤٣/ ٣٧١).

(٢) أخرجه أبو نعيم فى الحلية (١/ ١٣٩).

إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النحل:١٠٦].

▪ وَمِمَّنْ أُوذِيَ فِي اللهِ خَبَّابُ بْنُ الأَرَتِّ، سُبِيَ فِي الجَاهِلِيَّةِ فَاشْتَرَتْهُ أُمُّ أَنْمَارٍ، وَكَانَ حَدَّادًا، وَكَانَ النَّبِيُّ يَأْلَفُهُ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، فَلَمَّا شَرَّفَهُ اللهُ بِهَا أَسْلَمَ خَبَّابٌ، فَكَانَتْ مَوْلَاتُهُ تُعَذِّبُهُ بِالنَّارِ، فَتَأْتِي بِالحَدِيدَةِ المُحَمَّاةِ فَتَجْعَلُهَا عَلَى ظَهْرِهِ لِيَكْفُرَ، فَلَا يَزِيدُهُ إِلَّا إِيمَانًا.

وَجَاءَ خَبَّابٌ مَرَّةً إِلَى رَسُولِ اللهِ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً فِي ظِلِّ الكَعْبَةِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَلَا تَدْعُو اللهَ لَنَا؟ فَقَعَدَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مُحْمَرًّا وَجْهُهُ فَقَالَ: «**إِنَّهُ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ لَيُمَشَّطُ أَحَدُهُمْ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ عَظْمِهِ مِنْ لَحمٍ وَعَصَبٍ، وَيُوضَعُ المِنْشَارُ عَلَى فَرْقِ رَأْسِ أَحَدِهِمْ فَيُشَقُّ، مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَلَيُظْهِرَنَّ اللهُ تَعَالَى هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتٍ لَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ**»[1].

قَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وَهُوَ فِي هَذِهِ الحَالِ الشَّدِيدَةِ الَّتِي لَا يَتَصَوَّرُ فِيهَا أَعْقَلُ العُقَلَاءِ وَأَنْبَلُ النُّبَلَاءِ قُوَّةً مُنْتَظَرَةً أَوْ سَعَادَةً مُسْتَقْبَلَةً، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ وَحْيٌ يُوحَى إِلَيْهِ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى تَثْبِيتًا لِلْمُؤْمِنِينَ أَوَّلَ سُورَةِ العَنْكَبُوتِ: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة، رقم (٣٨٥٢).

مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت:١-٣].

▪ وَمِمَّنْ أُوذِي فِي اللهِ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، وَلَـمَّا اشْتَدَّ عَلَيْهِ الأَذَى أَجْمَعَ أَمْرَهُ عَلَى الهِجْرَةِ مِنْ مَكَّةَ إِلَى جِهَةِ الحَبَشَةِ، فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى بَرْكَ الغِمَادِ[١]، فَلَقِيَهُ ابْنُ الدَّغِنَّةِ، وَهُوَ سَيِّدُ قَبِيلَةٍ عَظِيمَةٍ اسْمُهَا القَارَّةُ، فَقَالَ: إِلَى أَيْنَ يَا أَبَا بَكْرٍ؟ فَقَالَ: أَخْرَجَنِي قَوْمِي، فَأُرِيدُ أَنْ أَسِيحَ فِي الأَرْضِ وَأَعْبُدَ رَبِّي، فَقَالَ ابْنُ الدَّغِنَّةِ: مِثْلُكَ يَا أَبَا بَكْرٍ لَا يَخْرُجُ، إِنَّكَ تُكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ، فَأَنَا لَكَ جَارٌ، فَارْجِعْ وَاعْبُدْ رَبَّكَ بِبَلَدِكَ، فَرَجَعَ وَارْتَحَلَ ابْنُ الدَّغِنَّةِ مَعَهُ، وَطَافَ فِي أَشْرَافِ قُرَيْشٍ، فَقَالَ لَهُمْ: أَبُو بَكْرٍ لَا يُخْرَجُ مِثْلُهُ، أَتُخْرِجُونَ رَجُلًا يُكْسِبُ المَعْدُومَ، وَيَصِلُ الرَّحِمَ، وَيَحْمِلُ الكَلَّ، وَيَقْرِي الضَّيْفَ، وَيُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ! فَلَمْ تُكَذِّبْ قُرَيْشٌ بِجِوَارِ ابْنِ الدَّغِنَّةِ، وَقَالُوا لَهُ: مُرْ أَبَا بَكْرٍ فَلْيَعْبُدْ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، فَلْيُصَلِّ فِيهَا مَا شَاءَ، وَلْيَقْرَأْ مَا شَاءَ، وَلَا يُؤْذِينَا بِذَلِكَ وَلَا يَسْتَعْلِنْ، فَإِنَّا نَخْشَى أَنْ يَفْتِنَ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا، فَقَالَ ذَلِكَ ابْنُ الدَّغِنَّةِ لِأَبِي بَكْرٍ، فَلَبِثَ بِذَلِكَ يَعْبُدُ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، وَلَا يَسْتَعْلِنُ بِصَلَاتِهِ، وَلَا يَقْرَأُ فِي غَيْرِ دَارِهِ، ثُمَّ بَدَا لِأَبِي بَكْرٍ فَابْتَنَى مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ، وَكَانَ يُصَلِّي فِيهِ وَيَقْرَأُ القُرْآنَ، فَيَنْقَذِفُ عَلَيْهِ نِسَاءُ المُشْرِكِينَ وَأَبْنَاؤُهُمْ وَهُمْ يَعْجَبُونَ مِنْهُ وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ.

وَكَانَ رَجُلًا بَكَّاءً لَا يَمْلِكُ عَيْنَيْهِ إِذَا قَرَأَ القُرْآنَ، فَأَفْزَعَ ذَلِكَ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ،

---

(١) برك الغماد: موضع بناحية اليمن، مما يلي ساحل البحر، وقال ابن فارس: بضم الغين، وفي التوضيح: برك الغماد: موضع في أقاصي هجر.

فَأَرْسَلُوا إِلَى ابْنِ الدَّغِنَّةِ، فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ فَقَالُوا: إِنَّا كُنَّا قَدْ أَجَرْنَا أَبَا بَكْرٍ بِجِوَارِكَ عَلَى أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، فَقَدْ جَاوَزَ ذَلِكَ، فَابْتَنَى مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ فَأَعْلَنَ بِالصَّلَاةِ وَالقِرَاءَةِ فِيهِ، وَإِنَّا قَدْ خَشِينَا أَنْ يَفْتِنَ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا، فَإِنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَى أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ بِفِنَاءِ دَارِهِ فَعَلَ، وَإِنْ أَبَى إِلَّا أَنْ يُعْلِنَ ذَلِكَ فَسَلْهُ أَنْ يَرُدَّ إِلَيْكَ ذِمَّتَكَ، فَإِنَّا قَدْ كَرِهْنَا أَنْ نُخْفِرَكَ[1]، وَلَسْنَا مُقِرِّينَ لِأَبِي بَكْرٍ الِاسْتِعْلَانَ.

فَأَتَى ابْنُ الدَّغِنَّةِ أَبَا بَكْرٍ فَقَالَ: قَدْ عَلِمْتَ الَّذِي عَاقَدْتُ لَكَ عَلَيْهِ، فَإِمَّا أَنْ تُقْصِرَ عَلَى ذَلِكَ، وَإِمَّا أَنْ تُرْجِعَ إِلَيَّ ذِمَّتِي، فَإِنِّي لَا أُحِبُّ أَنْ تَسْمَعَ العَرَبُ أَنِي أُخْفِرْتُ فِي رَجُلٍ عَقَدْتُ لَهُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَإِنِّي أَرُدُّ عَلَيْكَ جِوَارَكَ وَأَرْضَى بِجِوَارِ اللهِ، رَوَاهُ البُخَارِيُّ[2].

وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لِإِيصَالِ أَذًى عَظِيمٍ إِلَى أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَبِالجُمْلَةِ فَلَمْ يَخْلُ أَحَدٌ مِنَ المُسْلِمِينَ مِنْ أَذِيَّةٍ لَحِقَتْهُ، وَلَكِنَّ كُلَّ ذَلِكَ ضَاعَ سُدًى تِلْقَاءَ ثَبَاتِهِمْ وَعَظِيمِ إِيمَانِهِمْ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يُسْلِمُوا لِغَرَضٍ دُنْيَوِيٍّ يَرْجُونَ حُصُولَهُ فَيَسْهُلَ إِرْجَاعُهُمْ، وَلَكِنْ وَفَّقَهُمُ اللهُ لِإِدْرَاكِ حَقِيقَةِ الإِيمَانِ فَرَأَوْا كُلَّ شَيْءٍ دُونَهُ سَهْلًا.

وَلَمَّا رَأَى كُفَّارُ قُرَيْشٍ أَنَّ ذَلِكَ الأَذَى لَمْ يُجْدِهِمْ نَفْعًا، بَلْ كُلَّمَا زَادُوا المُسْلِمِينَ أَذًى ازْدَادَ يَقِينُهُمْ، اجْتَمَعُوا لِلشُّورَى فِيمَا بَيْنَهُمْ فَقَالَ لَهُمْ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ العَبْشَمِيُّ مِنْ بَنِي عَبْدِ شَمْسِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ، وَكَانَ سَيِّدًا مُطَاعًا فِي قَوْمِهِ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ

(١) أخفر بالألف نقض العهد، وخفر وفى به.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، رقم (٣٩٠٥).

أَلَا أَقُومُ لِمُحَمَّدٍ فَأُكَلِّمَهُ وَأَعْرِضَ عَلَيْهِ أُمُورًا عَلَّهُ يَقْبَلُ بَعْضَهَا فَنُعْطِيهِ إِيَّاهَا، وَيَكُفَّ عَنَّا؟ فَقَالُوا يَا أَبَا الوَلِيدِ: فَقُمْ إِلَيْهِ فَكَلِّمْهُ. فَذَهَبَ إِلَى رَسُولِ اللهِ وَهُوَ يُصَلِّي فِي المَسْجِدِ، وَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي إِنَّكَ مِنَّا -حَيْثُ قَدْ عَلِمْتَ- مِنْ خِيَارِنَا حَسَبًا وَنَسَبًا، وَإِنَّكَ قَدْ أَتَيتَ قَوْمَكَ بِأَمْرٍ عَظِيمٍ، فَرَّقْتَ بِهِ جَمَاعَتَهُمْ، وَسَفَّهْتَ أَحْلَامَهُمْ، وَعِبْتَ آلِهَتَهُمْ وَدِينَهُمْ، وَكَفَّرْتَ مَنْ مَضَى مِنْ آبَائِهِمْ، فَاسْمَعْ مِنِّي أَعْرِضْ عَلَيْكَ أُمُورًا تَنْظُرُ فِيهَا لَعَلَّكَ تَقْبَلُ مِنْهَا بَعْضَهَا! فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**قُلْ يَا أَبَا الوَلِيدِ أَسْمَعْ**»، فَقَالَ يَا ابْنَ أَخِي! إِنْ كُنْتَ تُرِيدُ بِمَا جِئْتَ بِهِ مِنْ هَذَا الأَمْرِ مَالًا جَمَعْنَا لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا حَتَّى تَكُونَ أَكْثَرَنَا مَالًا، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ شَرَفًا سَوَّدْنَاكَ عَلَيْنَا حَتَّى لَا نَقْطَعَ أَمْرًا دُونَكَ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ مُلْكًا مَلَّكْنَاكَ عَلَيْنَا، وَإِنْ كَانَ هَذَا الَّذِي يَأْتِيكَ رِئْيًا مِنَ الجِنِّ لَا تَسْتَطِيعُ رَدَّهُ عَنْ نَفْسِكَ طَلَبْنَا لَكَ الطِّبَّ، وَبَذَلْنَا فِيهِ أَمْوَالَنَا حَتَّى نُبْرِئَكَ مِنْهُ، وَإِنَّهُ رُبَّمَا غَلَبَ التَّابِعُ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُدَاوَى، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَقَدْ فَرَغْتَ يَا أَبَا الوَلِيدِ؟**» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «**فَاسْمَعْ مِنِّي**»، فَقَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَوَّلَ سُورَةِ فُصِّلَتْ: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٌ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٌ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٍ ﴿٨﴾ ۞ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ

ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً
لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ
أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ
ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً
مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟
إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [فصلت:١-١٤].

فَأَمْسَكَ عُتْبَةُ بِفِيهِ، وَنَاشَدَهُ الرَّحِمَ أَنْ يَكُفَّ عَنْ ذَلِكَ، فَلَمَّا رَجَعَ عُتْبَةُ سَأَلُوهُ فَقَالَ: وَاللهِ لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلًا مَا سَمِعْتُ مِثْلَهُ قَطُّ، وَاللهِ مَا هُوَ بِالشِّعْرِ وَلَا بِالكَهَانَةِ وَلَا بِالسِّحْرِ، يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ أَطِيعُونِي فَاجْعَلُوهَا بِي، خَلُّوا بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ مَا هُوَ فِيهِ، فَاعْتَزِلُوهُ، فَوَاللهِ لَيَكُونَنَّ لِكَلَامِهِ الَّذِي سَمِعْتُ نَبَأٌ، فَإِنْ تُصِبْهُ العَرَبُ فَقَدْ كُفِيتُمُوهُ بِغَيْرِكُمْ، وَإِنْ يَظْهَرْ عَلَى العَرَبِ فَعِزُّهُ عِزُّكُمْ، فَقَالُوا: لَقَدْ سَحَرَكَ مُحَمَّدٌ، فَقَالَ: هَذَا رَأْيٌ.

ثُمَّ عَرَضُوا عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يُشَارِكَهُمْ فِي عِبَادَتِهِمْ، وَيُشَارِكُوهُ فِي عِبَادَتِهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ فِي ذَلِكَ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [سورة الكافرون]، فَلَا تَتَوَهَّمُوا أَنِّي أُجِيبُكُمْ لِطَلَبِكُمْ مِنَ الإِشْرَاكِ بِاللهِ[١].

---

[١] هذه السُّورَة كما رأيتُم فيها تكرارُ جُمَل، فقِيل: إنَّ هذا من باب التَّوكيدِ،

فَأَيِسُوا مِنْهُ وَطَلَبُوا بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَنْزِعَ مِنَ القُرْآنِ مَا يَغِيظُهُمْ مِنْ ذَمِّ الأَوْثَانِ وَالوَعِيدِ الشَّدِيدِ، فَيَأْتِيَ بِقُرْآنٍ غَيْرِهِ أَوْ يُبَدِّلَهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ جَوابًا لَهُمْ فِي سُورَةِ يُونُسَ: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ﴾ [يونس:١٥].

وَقَدْ حَصَلَ لَهُ مَعَ كُفَّارِ قُرَيْشٍ نَادِرَةٌ تَكُونُ لِمَنِ اسْتَهَانَ بِالضَّعِيفِ كَمِصْبَاحٍ يَسْتَضِيءُ بِهِ، وَهُوَ أَنَّه بَيْنَما الرَّسُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ كُبَرَاءِ قُرَيْشٍ وَأَشْرَافِهِمْ يَتَأَلَّفُهُمْ وَيَعْرِضُ عَلَيْهِمُ القُرْآنَ وَمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الدِّينِ، إِذْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ الأَعْمَى، وَهُوَ مِمَّنْ أَسْلَمُوا قَدِيمًا، وَالنَّبِيُّ مُشْتَغِلٌ بِالقَوْمِ وَقَدْ لَقِيَ مِنْهُمْ مُؤَانَسَةً حَتَّى طَمِعَ فِي إِسْلَامِهِمْ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللهِ: يَا رَسُولَ اللهِ عَلِّمْنِي مِمَّا علَّمَكَ اللهُ، وَأَكْثَرَ عَلَيْهِ القَوْلَ فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى الرَّسُولِ، وَكَرِهَ قَطْعَهُ لِكَلَامِهِ، وَخَافَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَكُونَ التِفَاتُهُ لِذَلِكَ المِسْكِينِ يُنَفِّرُ عَنْهُ قَلْبَ أُولَئِكَ الأَشْرَافِ،..................

والتَّوكيدُ في هَذا الأَمْر مهمٌّ؛ لأَنَّه عظِيمٌ، وقِيل: إنَّه لا تكْرَار وأنَّ بعضَها جَاء في المعبودِ وبعضُها في العبادَةِ، فقولُه: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ أي مَن تعبُدونَ مِن أصْنامٍ وغيرِها، ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ يعْنِي اللهَ، ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ يعْنِي لَا أعبدُ كعبادَتكِم.

والقَاعدَةُ فِي الكلَام أَنَّه إذا دارَ الأمرُ بيْنَ أنْ يكُونَ تأْكِيدًا أوْ تأسِيسًا حُمِل على أنَّه تأْسيسٌ؛ لأنَّ هذا هو الأصْلُ، قال الله تَعالَى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا﴾ [الفجر:٢١]، فالثَّانيَةُ ليْست تَوْكيدًا للأُوْلى، لكنَّ المعْنَى دكًّا بعْدَ دكٍّ، فيَكُون الثَّاني غيرَ الأَوَّل، وكذَلِك: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾ [الفجر:٢٢]، أيْ صفًّا بعْدَ صفٍّ.

فَأَعْرَضَ عَنْهُ فَعَاتَبَهُ اللهُ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ فِي أَوَّلِ سُورَةِ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ [عبس:١-١٠][١]، فَما عَبَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَعْدَهَا فِي وَجْهِ فَقِيرٍ، وَكَانَ إِذَا أَقْبَلَ عَلَيْهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ يَقُولُ لَهُ: «**مَرْحَبًا بِمَنْ عَاتَبَنِي فِيهِ رَبِّي**»(١).

وَلَمَّا رَأَى الْمُشْرِكُونَ أَنَّ هَذِهِ المَطَالِبَ الَّتِي يَعْرِضُونَهَا لَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ أَرَادُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِي بَابٍ آخَرَ، وَهُوَ تَعْجِيزُ الرَّسُولِ بِطَلَبِ الآيَاتِ، فَاجْتَمَعُوا وَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فَأَرِنَا آيَةً نَطْلُبُهَا مِنْكَ، وَهِيَ أَنْ تَشُقَّ لَنَا القَمَرَ فِرْقَتَيْنِ، فَأَعْطَاهُ اللهُ هَـذِهِ الْمُعْجِزَةَ، وَانْشَـقَّ القَمَرُ فِرْقَتَـيْنِ فَقَالَ رَسُـولُ اللهِ: «**اشْهَدُوا**»،

---

[١] قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ وهُو يعْني النَّبيَّ -صلَّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِه وسلَّم- ولم يجابِهْه بالخِطاب، فلَم يقُل: عبَسْتَ وتولَّيْتَ، لكن لما أرادَ التَّوجيهَ وجَّهه بالخِطابِ، فقال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ ولا شكَّ أنَّ في هذا مِن تعْظيم رسولِ اللهِ -صلَّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِه وسلَّم- ما لَا يخْفَى، وكانَ النبيُّ -صلَّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِه وسلَّم- متأوِّلًا؛ لأنه واثِقٌ مِن عبدِ اللهِ بْن أمِّ مكتومٍ، فهُو رجُلٌ مسلِمٌ، ثُمَّ هو ﷺ طامِعٌ في إسْلَام هؤلاءِ الكُبَراءِ، ولكن من حِكْمة اللهِ أنَّ اللهَ عاتَبَه؛ لأنَّ في هذا مصلحَةً عظِيمَةً حتَّى لهؤلاءِ الكُبَراءِ، حتَّى لا يُحدِّثوا أنفسَهم أنَّه لو جاء أكبرُ منْهم لأَعْرَض عنْهُم وأقبل علَيْه، فعاتَبَه اللهُ عَزَّوَجَلَّ لذَلِك، لكنَّه كان عتابًا لطيفًا، وأمَّا قولُه: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾، فالمَعْنى أنَّه ليْسَ علَيْك من أمرِهم شيءٌ إذا لم يتزكَّوْا ويُسْلِمُوا.

---

(١) تفسير القرطبي (١٩/ ١٨٤).

وَهَذِهِ القِصَّةُ رَوَاهَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ، وَهُوَ مِنَ السَّابِقِينَ الأَوَّلِينَ رُوِيَتْ عَنْهُ مِنْ طُرُقٍ كَثِيرَةٍ، وَرَوَاهَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ، وَرَوَاهَا عَنْهُمْ جَمْعٌ غَزِيرٌ حَتَّى صَارَ الحَدِيثُ كَالمُتَوَاتِرِ، وَقَدْ ذَكَرَهَا القُرْآنُ الكَرِيمُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى أَوَّلَ سُورَةِ القَمَرِ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر:١]. فَحِينَما رَأَى المُعَانِدُونَ هَذِهِ الآيَةَ الكُبْرَى قَالَ بَعْضُهُمْ: لَقَدْ سَحَرَكُمُ ابْنُ أَبِي كَبْشَةَ، فَأَنْزَلَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر:٢][١].

---

[١] ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنهم قالوا: أرِنا انشقاقَ القمر، وأظن أنَّ هذا لا يصلح؛ فالمعروف أن الكفار إذا طلبوا آيةً معينةً وأَتَتْهم فإنه يحِقُّ عليهم العذاب، وما قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [الأنعام:٨]، لكنَّهم طلبوا آية وقالوا: أَرِنا آيَةً، فأشار إلى القَمَر، فانفلق فِرْقَتَيْن إحداها على الصَّفا والثَّاني على المَرْوة، ولكنَّهم مع ذَلك قَالُوا: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾.

وقَدْ أَنْكَر بعضُ المعاصِرين الانشقاقَ وقالُوا: إنَّ الأفلاكَ السَّماوِيَّة لا يمكن أن تتغيَّر إلا عندَ انتهاء الدُّنيا، وقالُوا إنَّه لم تتحدَّثْ عنه الكُتُب القديمة، ثم قالُوا في معْنَى الآية: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ أيْ بَان ضِياءُ الإِسْلام، ولكنَّ هذا تحريفٌ للكَلِم عن مواضِعِه، بل المرادُ بانْشِقاق القَمر هُو القَمَر المعروفُ، وكون النَّاس لم يتحدَّثوا عنْه مع أنَّه حدَثٌ عظيم؛ إما لأنَّه صادف أنَّه ليس في واجهةِ الأَرْض الَّتي هم عليها، أو إذا كانوا على ظهر الأرض الَّتي يواجهُها القمر فقد تكون هُناك غُيومٌ تمنَع من هذه الرؤية، ولا يمكن أن نُحرِّف كلامَ اللهِ الَّذي هو كالصريح، والأحاديثُ الَّتي هي صريحٌ في انشقاق القمر من أجل أن هؤلاءِ لم يذكُروه مع أنَّه حدث عظيمٌ.

ثُمَّ سَأَلُوا الرَّسُولَ بَعْدَ ذَلِكَ آيَاتٍ لَا يَقْصِدُونَ بِذَلِكَ إِلَّا التَّعَنُّتَ وَالعِنَادَ، فَمِنْـهَا أَنْ قَالُوا كَمَا فِي سُـورَةِ الإِسْرَاءِ: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾، وَلَمْ يَزِدْهُمُ اللهُ إِلَّا بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء:٩٠-٩٣]؛ لِأَنَّ اللهَ عَلِمَ مَا تُكِنُّهُ جَوَانِحُهُمْ مِنَ التَّعَصُّبِ وَالعِنَادِ، فَلَا يُؤْمِنُونَ مَهْمَا جَاءَهُمْ مِنَ البَيِّنَاتِ، كَمَا قَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ فِي سُورَةِ الأَنْعَامِ: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٠٩] [١].

وَكَيْفَ يُرْجَى الخَيْرُ مِمَّنْ قَالُوا كَمَا فِي سُورَةِ الأَنْفَالِ: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال:٣٢]، وَلَمْ يَقُولُوا: إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَاهْدِنَا إِلَيْهِ،..........

= وأمَّا قولُهم إنَّ الأفْلاك السَّماويةَ لا تقبلُ الانفكاكَ أو ما أشبه ذَلِك فهذا هُراء لا قِيمةَ له في الواقِع؛ لأنَّ مَن خلَق الأجرامَ السَّماوية هُو اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وهو قادِرٌ على أن يُغيِّرها كما شاء.

فالحَاصِل: أن انشقاقَ القمر حِسِّيٌّ حقيقيٌّ، واللهُ تَعالى على كلِّ شيءٍ قديرٌ، لكنهُم مع وجود هذه الآية أعرضوا وقالوا: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾.

[١] وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس:٩٦-٩٧].

وَهَذِهِ سُنَّةٌ مِنْ سُنَنِ الأَنْبِيَاءِ، إِذَا رَأَوا مِنْ طُلَّابِ الآيَاتِ عِنَادًا وَأَنَّهُمْ يَطْلُبُونَهَا تَعْزِيرًا، لَا يَسْأَلُونَ اللهَ إِنْفَاذَ هَذِهِ الآيَاتِ، كَيْلَا يَحِلَّ بِقَوْمِهِمُ الهَلَاكُ كَمَا حَصَلَ لِعَادٍ وَثَمُودَ وَغَيْرِهِمْ، وَهَذَا هُوَ المُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الإِسْرَاءِ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء:٥٩]، وَقَدْ حَصَلَ لِلْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ لَمَّا وَقَفَ أَمَامَ هَيرُودِسْ طَلَبَ مِنْهُ آيَةً فَلَمْ يُجِبْهُ إِلَى طَلَبِهِ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ سَخِرَ مِنْهُ وَرَدَّهُ إِلَى عَدُوِّهِ بِيلَاطُسْ بَعْدَ أَنْ كَانَ يَأْسَفُ عَلَيْهِ وَيَتَمَنَّى لِقَاءَهُ، وَذَلِكَ مَذْكُورٌ فِي الإِصْحَاحِ الثَّالِثِ وَالعِشْرِينَ مِنْ إِنْجِيلِ لُوقَا[١].

وَلَمَّا رَأَى المُشْرِكُونَ ضَعْفَهُمْ عَنْ مُقَاوَمَةِ المُسْلِمِينَ بِالبُرْهَانِ تَحَوَّلُوا إِلَى سِيَاسَةِ القُوَّةِ الَّتِي اخْتَارَهَا قَوْمُ إِبْرَاهِيمَ عِنْدَمَا عَجَزُوا عَنْهُ، حَيْثُ قَالُوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ﴾ كَمَا فِي سُورَةِ الأَنْبِيَاءِ، أَمَّا هَؤُلَاءِ فَازْدَادُوا بِالأَذَى عَلَى كُلِّ مَنْ أَسْلَمَ رَجَاءَ صَدِّهِمْ عَنِ اتِّبَاعِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلَمْ يَتْرُكُوا بَابًا إِلَّا وَلَجُوهُ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَصْحَابِهِ: «**تَفَرَّقُوا فِي الأَرْضِ فَإِنَّ اللهَ سَيَجْمَعُكُمْ**»، فَسَأَلُوهُ عَنِ الوِجْهَةِ فَأَشَارَ إِلَى الحَبَشَةِ.

---

[١] أَحَال علَى هَذا الإِنْجيل مِن أَجْل إِقامَة الحُجَّة علَى مَن يُؤمِنُون بِه ولَا يُؤْمِنون بالقُرْآن، ولَا حرَج أنْ يأْتِي الإِنْسانُ بالدَّليلِ مِمَّن لا يُمْكِنُه ردُّه، أَمَّا من ذَهب يُطالِع الأَناجيلَ للاطِّلاعِ علَيْها فإِنَّ ذَلك لا يَجُوز، أو للاقْتِداء بِها فهذَا أَقْبحُ وأَقْبَحُ؛ لأنَّ القُرآنَ كافٍ عَن كُلِّ شيْء.

هِجْرَةُ الحَبَشَةِ الأُولَى:

فَعِنْدَ ذَلِكَ تَجَهَّزَ نَاسٌ لِلْخُرُوجِ مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ فِرَارًا بِدِينِهِمْ، كَمَا أَشَارَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهَذِهِ هِيَ أَوَّلُ هِجْرَةٍ مِنْ مَكَّةَ، وَعِدَّةُ أَصْحَابِهَا عَشَرَةُ رِجَالٍ وَخَمْسُ نِسْوَةٍ، وَهُمْ: عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ وَزَوْجُهُ رُقَيَّةُ بِنْتُ رَسُولِ اللهِ، وَأَبُو سَلَمَةَ وَزَوْجُهُ أُمُّ سَلَمَةَ، وَأَخُوهُ لِأُمِّهِ أَبُو سَبْرَةَ بْنُ أَبِي رُهْمٍ وَزَوْجُهُ أُمُّ كُلْثُومٍ، وَعَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ وَزَوْجُهُ لَيْلَى، وَأَبُو حُذَيْفَةَ بْنُ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَزَوْجُهُ سَهْلَةُ بِنْتُ سُهَيْلٍ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَعُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ، وَمُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ، وَسَهْلُ بْنُ البَيْضَاءِ، وَالزُّبَيْرُ بْنُ العَوَّامِ، وَجُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ، وَكَانَ عَلَيْهِمْ فِيمَا رَوَى ابْنُ هِشَامٍ عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونَ[1]، فَسَارُوا عَلَى بَرَكَةِ اللهِ، وَلَمَّا انْتَهَوْا إِلَى البَحْرِ اسْتَأْجَرُوا سَفِينَةً أَوْصَلَتْهُمْ إِلَى مَقْصِدِهِمْ، فَأَقَامُوا آمِنِينَ مِن أَذًى يَلْحَقُ بِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَلَمْ يَبْقَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا القَلِيلُ.

إِسْلامُ عُمَرَ:

وَفِي ذَلِكَ الوَقْتِ أَسْلَمَ الشَّهْمُ الهُمَامُ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ العَدَوِيُّ القُرَشِيُّ، بَعْدَ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ كَرَاهِيَةِ الْمُسْلِمِينَ وَشِدَّةِ أَذَاهُمْ، قَالَتْ لَيْلَى -إِحْدَى الْمُهَاجِرَاتِ لِأَرْضِ الحَبَشَةِ مَعَ زَوْجِهَا-: كَانَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَلَيْنَا فِي إِسْلَامِنَا، فَلَمَّا رَكِبْتُ بَعِيرِي أُرِيدُ أَنْ أَتَوَجَّهَ إِلَى أَرْضِ الحَبَشَةِ إِذَا أَنَا بِهِ، فَقَالَ لِي: إِلَى أَيْنَ يَا أُمَّ عَبْدِ اللهِ؟ فَقُلْتُ: قَدْ آذَيْتُمُونَا فِي دِينِنَا، نَذْهَبُ فِي أَرْضِ اللهِ حَيْثُ لَا نُؤْذَى.

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٣٢٣).

فَقَالَ: صَحِبَكُمُ اللهُ، فَلَمَّا جَاءَ زَوْجِي عَامِرٌ أَخْبَرْتُه بِمَا رَأَيْتُهُ مِنْ رِقَّةِ عُمَرَ، فَقَالَ: تَرْجِينَ أَنْ يُسْلِمَ؟! وَاللهِ لَا يُسْلِمُ حَتَّى يُسْلِمَ حِمَارُ الخَطَّابِ، وَذَلِكَ لِمَا كَانَ يَرَاهُ مِنْ قَسْوَتِهِ وَشِدَّتِهِ عَلَى المُسْلِمِينَ، وَلَكِنْ حَصَلَتْ لَهُ بَرَكَةُ دَعْوَةِ المُصْطَفَى ﷺ فَإِنَّه قَالَ قُبَيْلَ إِسْلَامِهِ: «اللَّهُمَّ أَعِزَّ الإِسْلَامَ بِعُمَرَ»(١)[١].

وَكَانَ إِسْلَامُهُ فِي دَارِ الأَرْقَمِ بْنِ أَبِي الأَرْقَمِ، الَّتِي كَانَ المُسْلِمُونَ يَجْتَمِعُونَ فِيهَا، وَقَدْ حَقَّقَ اللهُ بِإِسْلَامِهِ مَا رَجَاهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَدْ قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ مِنْ رِوَايَةِ البُخَارِيِّ(٢): مَا زِلْنَا أَعِزَّةً مُنْذُ أَسْلَمَ عُمَرُ، فَإِنَّهُ طَلَبَ مِنْ رَسُولِ اللهِ أَنْ يُعْلِنَ صَلَاتَهُ فِي المَسْجِدِ فَفَعَلَ، وَقَدْ أَدْرَكَ الكُفَّارَ كَآبَةٌ شَدِيدَةٌ حِينَمَا رَأَوْا عُمَرَ أَسْلَمَ، وَكَانُوا قَدْ أَرَادُوا قَتْلَهُ حَتَّى اجْتَمَعَ جَمْعٌ حَوْلَ دَارِهِ يَنْتَظِرُونَهُ، فَجَاءَ العَاصِ بْنُ وَائِلٍ السَّهْمِيُّ، وَهُوَ مِنْ بَنِي سَهْمٍ حُلَفَاءِ بَنِي عُدَيٍّ قَوْمِ عُمَرَ، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ حَبِرَةٌ وَقَمِيصٌ مَكْفُوفٌ بِحَرِيرٍ، فَقَالَ لِعُمَرَ: مَا بَالُكَ؟.........

---

[١] إنْ صحَّ هذا الحديثُ فهُو مِن آيَاتِ النَّبي -صلَّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِه وسلَّم-، إذ كَيْف يدْعُو اللهَ أنْ يُعِزَّ الإسلامَ بعُمَر وهُو مِن أَلَدِّ أعدَائِه؟! ولوْلا أنَّه توَسَّم فِيه الخيرَ والنُّصْرة للإسْلام مَا دَعا هذا الدُّعاءَ لأعْدَى النَّاس، فإذا صَحَّ الأثَرُ علَى هذا الوَجْه فهُو مِن آيَاتِ النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِه وسلَّم- أنْ دَعا أنَّ اللهَ يُعِزُّ الإسْلامَ بألَدِّ أعدَائِه، وهُو أيضًا آيَةٌ حيْثُ استَجابَ اللهُ دُعاءَه صلَّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِه وسلَّم.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٩٥، رقم ٩٦٩٦)، وابن ماجه: المقدمة، باب فضل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (١٠٥).
(٢) أخرجه البخاري: كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي العدوي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٣٦٨٤).

فَقَالَ: زَعَمَ قَوْمُكَ أَنَّهُمْ سَيَقْتُلُونَنِي إِنْ أَسْلَمْتُ، قَالَ: لَا سَبِيلَ إِلَيْكَ فَأَنَا لَكَ جَارٌ، فَأَمَّنَ عُمَرُ وَخَرَجَ العَاصِ، فَوَجَدَ النَّاسَ قَدْ سَالَ بِهِمُ الوَادِي فَقَالَ: أَيْنَ تُرِيدُونَ؟ قَالُوا: نُرِيدُ هَذَا ابْنَ الخَطَّابِ الَّذِي صَبَأَ، قَالَ: لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ، فَرَجَعَ النَّاسُ مِنْ حَيْثُ أَتَوْا.

رُجُوعُ مُهَاجِرِي الحَبَشَةِ:

وَبَعْدَ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ مِنْ خُرُوجِ مُهَاجِرِي الحَبَشَةِ رَجَعُوا إِلَى مَكَّةَ حَيْثُ لَا تَتَيَسَّرُ لَهُمُ الإِقَامَةُ فِيهَا؛ لِأَنَّهُمْ قَلِيلُو العَدَدِ، وَفِي الكَثْرَةِ بَعْضُ الأُنْسِ، وَأَضِفْ إِلَى ذَلِكَ أَنَّهُمْ أَشْرَافُ قُرَيْشٍ وَمَعَهُمْ نِسَاؤُهُمْ، وَهَؤُلَاءِ لَا يَطِيبُ لَهُمْ عَيْشٌ فِي دَارِ غُرْبَةٍ بِهَذِهِ الحَالَةِ، وَقَدْ أُولِعَ بَعْضُ المُؤَرِّخِينَ بِحِكَايَةٍ يَجْعَلُونَهَا سَبَبًا فِي رُجُوعِ مُهَاجِرِي الحَبَشَةِ، وَهِيَ أَنَّهُمْ بَلَغَهُمْ إِسْلَامُ قَوْمِهِمْ حِينَمَا قَرَأَ عَلَيْهِمُ الرَّسُولُ سُورَةَ النَّجْمِ وَتَكَلَّمَ فِيهَا كَلَامًا حَسَنًا عَنْ آلِهَتِهِمْ، حَيْثُ قَالَ بَعْدَ ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم:١٩-٢١]: (تِلْكَ الغَرَانِيقُ) جَمْعُ غَرْنُوطٍ، وَهِيَ الطُّيُورُ، وَيُرَادُ بِهَا المَلَائِكَةُ (العُلَا، وَإِنَّ شَفَاعَتَهُنَّ لَتُرْتَجَى)، فَسَجَدُوا إِعْظَامًا لِذَلِكَ وَفَرَحًا، وَهَذَا مِمَّا لَا تَجُوزُ رِوَايَتُهُ إِلَّا مِنْ قَلِيلِي الإِدْرَاكِ الَّذِينَ يَنْقِلُونَ كُلَّ مَا وَجَدُوهُ غَيْرَ مُتَثَبِّتِينَ مِنْ صِحَّتِهِ، وَهَا نَحْنُ أُولَاءِ نَسُوقُ لَكَ أَدِلَّةَ النَّقْلِ وَالعَقْلِ عَلَى بُطْلَانِ مَا ذُكِرَ:

أَمَّا الحَدِيثُ فَسَنَدُهُ وَمَتْنُهُ قَلِقَانِ، فَالسَّنَدُ قَالَ فِيهِ القَاضِي عِيَاضُ فِي الشِّفَاءِ[1]: «لَمْ يُخْرِجْهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الصِّحَّةِ، وَلَا رَوَاهُ ثِقَةٌ بِسَنَدٍ سَلِيمٍ، وَأَمَّا المَتْنُ

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/ ١٢٥).

فَلَيْسَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ وَلَا الْمُشْرِكُونَ مَجَانِينَ حَتَّى يَسْمَعُوا مَدْحًا أَثْنَاءَ ذَمٍّ وَيَجُوزُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، فَبَعْدَ ذِكْرِ الأَصْنَامِ قَالَ: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [النجم:٢٣]، فَالكَلَامُ غَيْرُ مُنْتَظِمٍ، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ قَدْ حَصَلَ لَاتَّخَذَهُ الكُفَّارُ عَلَيْهِ حُجَّةً يُحَاجُّونَهُ بِهَا وَقْتَ الخِصَامِ، وَهُمْ مَنْ نَعْرِفُهُمْ مِنَ العِنَادِ فِيمَا لَيْسَ فِيهِ أَدْنَى حُجَّةٍ، فَكَيْفَ فِي هَذِهِ؟! وَلَيْسَ ذَلِكَ القِيلُ أَقَلَّ مِنْ تَحْوِيلِ القِبْلَةِ إِلَى الكَعْبَةِ، وَهَذَا قَالُوا فِيهِ مَا قَالُوا حَتَّى سَمَّاهُمُ اللهُ سُفَهَاءَ، وَأَنْزَلَ فِيهِمْ فِي سُورَةِ البَقَرَةِ: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ [البقرة:١٤٢]، وَلَكِنْ لَمْ يُسْمَعْ عَنْ أَيِّ وَاحِدٍ مِنْ رِجَالَاتِهِمْ وَالْمُتَصَدِّرِينَ لِلْعِنَادِ مِنْهُمْ أَنَّهُ قَالَ: مَا لَكَ ذَمَمْتَ آلِهَتَنَا بَعْدَ أَنْ مَدَحْتَهَا، وَكَانَ ذَلِكَ أَوْلَى لَهُمْ مِنْ تَجْرِيدِ السُّيُوفِ وَبَذْلِ مُهَجِ الرِّجَالِ، عَلَى أَنَّ الْمُؤَرِّخِينَ الَّذِينَ يَنْقُلُونَ هَذِهِ العِبَارَةَ وَيَجْعَلُونَهَا سَبَبًا لِرُجُوعِ مُهَاجِرِي الحَبَشَةِ يَقُولُونَ أَثْنَاءَ كَلَامِهِمْ إِنَّ الهِجْرَةَ كَانَتْ فِي رَجَبٍ وَالرُّجُوعُ كَانَ فِي شَوَّالٍ، وَنُزُولُ سُورَةِ النَّجْمِ كَانَ فِي رَمَضَانَ، فَالْمُدَّةُ بَيْنَ نُزُولِ السُّورَةِ وَرُجُوعِ الْمُهَاجِرِينَ شَهْرٌ وَاحِدٌ، وَالْمُتَأَمِّلُ أَدْنَى تَأَمُّلٍ يَرَى أَنَّ الشَّهْرَ كَانَ لَا يَكْفِي فِي ذَلِكَ الزَّمَنِ لِلذَّهَابِ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الحَبَشَةِ وَالإِيَابِ مِنْهَا، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ إِذْ ذَاكَ مَرَاكِبُ بُخَارِيَّةٌ تُسَهِّلُ السَّيْرَ فِي البَحْرِ وَلَا تِلِغْرَافُ يُوَصِّلُ خَبَرَ إِسْلَامِ قُرَيْشٍ لِمَنْ بِالحَبَشَةِ، فَلَا غَرَابَةَ بَعْدَ ذَلِكَ إِنْ قُلْنَا إِنَّ هَذِهِ الخُرَافَةَ مِنْ مَوْضُوعَاتِ أَهْلِ الأَهْوَاءِ الَّذِينَ ابْتَلَى اللهُ بِهِمْ هَذَا الدِّينَ.

وَلَكِنْ الحَمْدُ للهِ فَقَدْ مَنَّ عَلَيْهَا بِحِفْظِ كِتَابِنَا الْمَجِيدِ الَّذِي يَحْكُمُ وَبَيْنَ كُلِّ مُفْتَرٍ كَذَّابٍ، فَفِي السُّورَةِ نَفْسِهَا: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم:٣]، وَالَّذِي يُلْقِيهِ الشَّيْطَانُ

مِنْ أَقْبَحِ مَا يُرْوَى، فَكَيْفَ يَقُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَوْ يَجْرِي عَلَى لِسَانِهِ مِمَّا يَبُثُّ الشُّكُوكَ فِي الوَحْيِ؟! الأَمْرُ الَّذِي يُرِيدُهُ السُّفَهَاءُ، رَدَّ اللهُ كَيْدَهُمْ فِي نَحْرِهِمْ.

وَالَّذِي وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ فِي مَوْضُوعِ هَذَا السُّجُودِ مَا رَوَاهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَرَأَ: ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾، فَسَجَدَ وَسَجَدَ مَنْ كَانَ مَعَهُ إِلَّا رَجُلًا أَخَذَ كَفًّا مِنْ حَصًى وَضَعَهُ عَلَى جَبْهَتِهِ، وَقَالَ: يَكْفِينِي هَذَا، وَرَأَيْتُهُ قُتِلَ بَعْدُ كَافِرًا(١)، وَلَيْسَ فِي هَذَا الحَدِيثِ أَيُّ دَلَالَةٍ عَلَى أَنَّ الَّذِينَ سَجَدُوا مَعَهُ هُمْ مُشْرِكُونَ، بَلِ الَّذِي يُفِيدُهُ قَوْلُهُ: «فَرَأَيْتُهُ قُتِلَ بَعْدُ كَافِرًا» أَنَّهُ كَانَ مُسْلِمًا ثُمَّ رَأَيْتُهُ ارْتَدَّ، وَهَذَا مَا حَصَلَ مِنْ بَعْضِ ضِعَافِ القُلُوبِ الَّذِينَ لَمْ يَتَحَمَّلُوا الأَذَى، فَكَفَرُوا، مِنهُمْ عَلِيُّ بْنُ أُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ[١].

---

[١] كلام الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذَا غيْرُ صَحيحٍ، فعِنْدَ البُخارِيِّ أنَّ النبيَّ -صلَّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِه وسلَّم- قرَأ سُورةَ النَّجم وسَجَد فِيها المسْلِمُون والمشْرِكُون، والإِنْس والجِنُّ(٢)، فالصَّواب أنَّهم كلَّهم سجَدُوا، لكِن قالُوا: إنَّ قُريشًا لما قُرِئت علَيْهم السُّورَة وفِيها ما تعْلَمُون مِن الأَشْياءِ العظِيمة ذُهِلُوا وأنَّهم لذُهُولهم سجَدُوا مَع المسْلِمِينَ، ولَيْس ذلِك تقرُّبًا إِلى اللهِ كَما هُو معْلُومٌ، إلَّا هذَا الرَّجُلَ، وأمَّا قولُه: «رأيتُه قُتِل بعدُ كافرًا»، فمَعْناه أنَّه لمْ يُسْلِمْ، ولَيْس المعْنَى أنَّه أسْلَم ثُم ارْتَدَّ، فكلَامُ الشَّيْخ فِي هَذا غيرُ محرَّر.

---

(١) أخرجه البخاري: أبواب سجود القرآن وسنتها، باب من رأى أن الله عَزَّوَجَلَّ لم يوجب السجود، رقم (١٠٧٧).

(٢) أخرجه البخاري: أبواب سجود القرآن وسنتها، باب ما جاء في سجود القرآن وسنتها، رقم (١٠٦٧).

أمَّا مسألَةُ الغرانيق فالغَرَانِيقُ أوَّلًا هِي -كَما قال الشَّيْخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ رُواتُها ضُعفَاءُ، وَالثَّاني علَى فرْضِ صِحَّتِها فلَيْس بِها مَا يقْدَح بالرِّسالَةِ؛ لأنَّ اللهَ تَعالى قالَ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج:٥٢]، يعْنِي إِذا قرَأ أَلْقى الشَّيْطانُ فِي قِراءَتِه، فالشَّيطانُ حِينَما قَرأ النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِه وسلَّم- هُو الَّذِي قَرأ: «تِلْكَ الغَرَانِيقُ العُلَى وَإِنَّ شَفَاعَتَهُنَّ لَتُرْتَجَى»، لكِن فِي الوَاقِع أنَّ هَذا لم يحْصُلْ، إنَّما بيَّن الله عَزَّوَجَلَّ أنَّه مَا ﴿مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡ﴾، فيُلْقِي الشَّيطانُ في قراءَتِه، سواءً في الإِيهَامِ اللَّفْظيِّ أَو فِي التَّحريفِ المعْنَويِّ، ويكُونُ معْنَى النَّسخ الإِزَالَة، ولَيْس النَّسخَ المصْطلحَ علَيْه، ويزيلُ اللهُ هذا الَّذي أَلْقَاه الشَّيطانُ في قرَاءَةِ النبيِّ، والرَّسولُ يُزيلُه بِما يُيسِّره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مِن بيان الحقِّ، سواءٌ بوحيٍ ينْزِل على الرَّسولِ، أو بورَثَةِ الرُّسُل مِن العُلَماء الَّذينَ يُبيِّنون الحقَّ، وقوله: ﴿أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ مَا يُوجِب إِضْلالَ الخلْقِ، ولَيْس المعْنَى أنَّه أَلْقَى في قِراءَتِه مَا يكُونُ مِن إِضْلالٍ، أيْ أَلْقَى فِيما قَرأَه، وهَذا ما فَتَح بِه الشَّيْطانُ علَى أُولَئِك المحرِّفِينَ والمغيِّرينَ لمعْنَى كَلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، لم يُغْرِ المسلِمُون لما قُرِئ القرآنُ وقرَأَه النَّاس، فيُلقِي الشَّيْطانُ في هذا القرآنِ ما يكونُ فيه ضلالٌ، ولا يلزمُ مِن ذلك أنْ يكون حالَ قَراءَةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِه وسلَّم، يَعْني أَلْقَى الشيطانُ في مقروئِه ما يكُون به الضَّلال فيَنْسخ اللهُ ما يُلْقي الشَّيْطانُ بما يُيَسِّره من الردِّ عليه، وبَيانِ باطِلِه، ثُمَّ يحكم اللهُ آياتِه، فيكون هذَا مِن بَاب أنَّ اللهَ تَعالى ينْسَخُ هَذا الَّذي أَلْقَاه الشَّيْطانُ ثُمَّ يحكم اللهُ الآياتِ فِيما حصَل

هَذَا وَلَمَّا رَجَعَ مُهَاجِرُو الحَبَشَةِ إِلَى مَكَّةَ لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنَ الدُّخُولِ إِلَيْهَا إِلَّا مَنْ وَجَدَ لَهُ مُجِيرًا فَدَخَلَ أَبُو سَلَمَةَ فِي جِوَارِ خَالِهِ أَبِي طَالِبٍ، وَدَخَلَ عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ فِي جِوَارِ الوَلِيدِ بْنِ المُغِيرَةِ، وَقَدْ رَدَّ عَلَيْهِ جِوَارَهُ حِينَمَا رَأَى مَا صَنَعَهُ بِالمُسْلِمِينَ، فَلَمْ يَرْضَ أَنْ يَكُونَ مُرْتَاحًا وَإِخْوَانُهُ مُعَذَّبُونَ.

كِتَابَةُ الصَّحِيفَةِ:

وَلَمَّا ضَاقَتِ الحِيَلُ بِكُفَّارِ قُرَيْشٍ عَرَضُوا عَلَى بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ الَّذِينَ مِنْهُمُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ دِيَةً مُضَاعَفَةً وَيُسَلِّمُونَهُ، فَأَبَوْا عَلَيْهِمْ ذَلِكَ، ثُمَّ عَرَضُوا عَلَى أَبِي طَالِبٍ أَنْ يُعْطُوهُ سَيِّدًا مِنْ شُبَّانِهِمْ يَتَبَنَّاهُ وَيُسَلِّمَ إِلَيْهِمُ ابْنَ أَخِيهِ، فَقَالَ: عَجَبًا لَكُمْ تُعْطُونِي ابْنَكُمْ أَغْذُوهُ لَكُمْ، وَأُعْطِيكُمُ ابْنِي تَقْتُلُونَهُ؟! فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عَلَى مُنَابَذَةِ بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي المُطَّلِبِ وَلَدَيْ عَبْدِ مَنَافٍ، وَإِخْرَاجِهِمْ مِنْ مَكَّةَ، وَالتَّضْيِيقِ عَلَيْهِمْ، فَلَا يَبِيعُونَهُمْ شَيْئًا، وَلَا يَبْتَاعُونَ مِنْهُمْ، حَتَّى يُسَلِّمُوا مُحَمَّدًا لِلْقَتْلِ، وَكَتَبُوا بِذَلِكَ صَحِيفَةً وَضَعُوهَا فِي جَوْفِ الكَعْبَةِ، فَانْحَازَ بَنُو هَاشِمٍ بِسَبَبِ ذَلِكَ فِي شِعْبِ أَبِي طَالِبٍ، وَدَخَلَ مَعَهُمْ بَنُو المُطَّلِبِ، سَوَاءٌ فِي ذَلِكَ مُسْلِمُهُمْ وَكَافِرُهُمْ، مَا عَدَا أَبَا لَهَبٍ، فَإِنَّهُ كَانَ مَعَ قُرَيْشٍ، وَانْخَذَلَ عَنْهُمْ بَنُو عَمَّيْهِمْ عَبْدِ شَمْسٍ وَنَوْفَلٍ ابْنَيْ عَبْدِ مَنَافٍ، فَجَهِدَ القَوْمُ حَتَّى كَانُوا يَأْكُلُونَ وَرَقَ الشَّجَرِ، وَكَانَ أَعْدَاؤُهُمْ يَمْنَعُونَ التُّجَّارَ مِنْ مُبَايَعَتِهِمْ،..............................

= مِن الرَّدِّ عليه بالقَوْل الصَّوابِ، ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، كقَوْلِه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٧].

وَفِي مُقَدِّمَةِ المَانِعِينَ أَبُو لَهَبٍ[١].

هِجْرَةُ الحَبَشَةِ الثَّانِيَةُ:

وَبَعْدَ دُخُولِ الرَّسُولِ وَقَوْمِهِ الشِّعْبَ أَمَرَ جَمِيعَ المُسْلِمِينَ أَنْ يُهَاجِرُوا إِلَى الحَبَشَةِ حَتَّى يُسَاعِدَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَى الاِغْتِرَابِ، فَهَاجَرَ مُعْظَمُهُمْ، وَكَانُوا نَحْوَ ثَلَاثَةٍ وَثَمَانِينَ رَجُلًا وَثَمَانِي عَشَرَةَ امْرَاءَةً، وَكَانَ مِنَ الرِّجَالِ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَزَوْجُهُ أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ، وَالمِقْدَادُ بْنُ الأَسْوَدِ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ، وَعُبَيْدُ اللهِ ابْنُ جَحْشٍ وَامْرَأَتُهُ أُمُّ حَبِيبَةَ بِنْتُ أَبِي سُفْيَانَ، وَتَوَجَّهَ لَهُمُ الَّذِينَ أَسْلَمُوا مِنْ جِهَةِ اليَمَنِ وَهُمُ الأَشْعَرِيُّونَ أَبُو مُوسَى وَبَنُو عَمِّهِ،..........

---

[١] في هَذا يقُولُ أَبُو طالِبٍ في لاميَّتِه المشْهُورَة:

جَزَى اللهُ عَنَّا عَبْدَ شَمْسٍ وَنَوْفَلًا ... عُقُوبَةَ شَرٍّ عَاجِلًا غَيْرَ آجِلِ

لأنَّهم كانُوا مَع قُرَيْش ضدَّ بَني هَاشِم وبنِي المطَّلِب، وجَعل النَّبيُّ ﷺ لبَنِي المطَّلب سهمًا مِن الخُمس، وقال: «إِنَّهُمْ لَمْ يُفَارِقُونِي فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ»(١)، حتَّى إنَّ بعْضَ أهْلِ العِلْم قالَ: إنَّ بَني المطَّلب تحْرُم علَيْهم الصَّدَقةُ، وجعَلَهُم مِن آل محمدٍ؛ لأنَّهم يُعطَوْن مِن الفِيء والغَنيمَةِ، فَلا تحِلُّ لهم الزَّكاةُ، لكنَّ الصحيحَ أنَّها تحِلُّ الزَّكاةُ لهم، لكِن لهم حقٌّ في الفِيء.

وقصِيدَةُ أَبِي طالِبٍ مُهمَّةٌ جدًّا، وقَدْ أثْنَى علَيْها ابنُ كثير ثناءًا عظيمًا، حتَّى قال: ينْبَغِي أن تكُونَ مِن المعلَّقاتِ السَّبْع.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٨١، رقم ١٦٧٤١)، والنسائي: كتاب قسم الفيء، رقم (٤١٤٢).

وَلَمَّا رَأَتْ قُـرَيْشٌ ذَلِكَ أَرْسَلَتْ فِي أَثَرِهِمْ عَمْرَو بْنَ العَاصِ وُعُمَارَةَ بْنَ الوَلِيدَ، بِهَدَايَا إِلَى النَّجَاشِيِّ لِيُسَلِّمَ المُسْلِمِـينَ، فَرَجَعَا شَرَّ رَجْعَـةٍ وَلَمْ يَنَالَا مِنَ النَّجَاشِيِّ إِلَّا إِهَانَةً لِمَا خَاطَبُـوهُ فِي إِخْفَارِ ذِمَّتِهِ فِي قَـوْمٍ لَاذُوا بِهِ، أَمَّا بَنُو هَاشِمٍ فَمَكَثُوا فِي الشِّعْبِ قَرِيبًا مِنْ ثَلَاثِ سَنَوَاتٍ لَا يَصِلُهُمْ شَيْءٌ مِنَ الطَّعَامِ إِلَّا خُفْيَةً.

نَقْضُ الصَّحِيفَةِ:

وَقَدْ قَامَ خَمْـسَةٌ مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ يُطَالِبُونَ بِنَقْضِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ الظَّالِمَةِ، وَهُمْ:

- هِشَامُ بْنُ عَمْرِو بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الحَارِثِ العَامِـرِيُّ، وَهُوَ أَعْظَمُهُمْ فِي ذَلِكَ بَلَاءًا.
- وَزُهَيْرُ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ المَخْزُومِيُّ ابْنُ عَمَّةِ الرَّسُولِ عَاتِكَةَ.
- وَالمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ النَّوْفَلِيُّ.
- وَأَبُو البَخْتَرِيِّ ابْنُ هَاشِمٍ الأَسَدِيُّ.
- وَزَمْعَةُ بْنُ الأَسْوَدِ الأَسَدِيُّ.

وَاتَّفَقُوا عَلَى ذَلِكَ لَيْلًا فَلَمَّا أَصْبَحُوا غَدَا زُهَيْرٌ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ فَطَافَ بِالبَيْتِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: يَا أَهْلَ مَكَّةَ! أَنَأْكُلُ الطَّعَامَ وَنَلْبَسُ الثِّيَابَ وَبَنُو هَاشِمٍ وَالمُطَّلِبِ هَلْكَى، لَا يَبِيعُونَ وَلَا يَبْتَاعُونَ، وَاللهِ لَا أَقْعُدُ حَتَّى تُشَقَّ هَذِهِ الصَّحِيفَةُ الظَّالِمَةُ القَاطِعَةُ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: كَذَبْتَ، فَقَالَ زَمْعَةُ لِأَبِي جَهْلٍ: أَنْتَ وَاللهِ أَكْذَبُ،

مَا رَضِينَا كِتَابَتَهَا حِينَ كُتِبَتْ، فَقَالَ أَبُو البَخْتَرِيِّ: صَدَقَ زَمْعَةُ، وَقَالَ المُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ: صَدَقْتُمَا وَكَذَبَ مَنْ قَالَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَصَدَّقَ عَلَى مَا قِيلَ هِشَامُ بْنُ عَمْرٍو، فَقَامَ إِلَيْهَا المُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ فَشَقَّهَا، وَكَانَتِ الأَرَضَةُ قَدْ أَكَلَتْهَا، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا مَا فِيهِ اسْمُ اللهِ، وَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَمَّهُ أَبَا طَالِبٍ بِذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُفْعَلَ مَا ذُكِرَ فَخَرَجَ القَوْمُ إِلَى مَسَاكِنِهِمْ بَعْدَ هَذِهِ الشِّدَّةِ[١].

وُفُودُ نَجْرَانَ:

وَقَدْ وَفَدَ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ بَعْدَ الخُرُوجِ مِنَ الشِّعْبِ وَفْدٌ مِنْ نَصَارَى نَجْرَانَ، بَلَغَهُمْ خَبَرُهُ مِنْ مُهَاجِرِي الحَبَشَةِ، فَسَارَعُوا بِالقُدُومِ عَلَيْهِ، حَتَّى يَرَوْا صِفَاتِهِ مَعَ مَا ذُكِرَ مِنْهَا فِي كُتُبِهِمْ، ....

[١] قالَ ابْنُ هِشامٍ(١): «وَذَكَر بعضُ أَهْلِ العِلْم أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ لأبي طالبٍ: يا عمِّ إنَّ ربي اللهُ قد سلَّط الأَرَضَة علَى صحيفَةِ قريشٍ، فلَمْ تدَعْ فيها اسمًا هو للهِ إلا أثبتَتْه فِيها، ونفَتْ مِنها الظُّلْم والقَطِيعةَ والبُهتانَ، فقال: ربُّك أخبرَك بهذَا؟ قال: نعم، قال: فواللهِ ما يدخُل علَيْك أحدٌ، ثُمَّ خَرَج إلى قُرَيْشٍ فقال: يا معْشَرَ قريشٍ إنَّ ابْن أَخِي أخبرَني بكَذا وكذَا، فهلُمَّ صحيفتكم، فإنْ كَما قالَ ابنُ أخي فانْتَهوا عَن قطيعَتِنا وانْزِلُوا عمَّا فيها، وإنْ يكن كاذبًا دفعتُ إلَيْكُم ابنَ أخي، فقال القومُ: رَضِينا، فتعاقَدُوا علَى ذَلِك ثم نَظروا، فإذَا هِي كَما قالَ رسولُ الله ﷺ فزادَهم ذلِكَ شرًّا، فعِند ذلك صنَع الرَّهطُ من قرَيْشٍ فِي نقْضِ الصَّحِيفَةِ مَا صنَعُوا».

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ١٨).

وَكَانُوا عِشْرِينَ رَجُلًا أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ، فَقَرَأَ عَلَيْهِمُ القُرْآنَ فَآمَنُوا كُلُّهُمْ، فَقَالَ لَهُمْ أَبُو جَهْلٍ: مَا رَأَيْنَا رَكْبًا أَحْمَقَ مِنْكُمْ، أَرْسَلَكُمْ قَوْمُكُمْ تَعْلَمُونَ خَبَرَ هَذَا الرَّجُلِ فَصَبَأْتُمْ، فَقَالُوا: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نُجَاهِلُكُمْ، لَكُمْ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَلَنَا مَا اخْتَرْنَاهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ فِي ذَلِكَ قَوْلَهُ فِي سُورَةِ القَصَصِ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص:٥٢-٥٥].

وَقَدْ كَانَ أَهْلُ مَكَّةَ حِينَما عَجَزُوا عَنْ أَمْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَلَمْ يَتَمَكَّنُوا مِنْ مُقَارَعَةِ الحُجَّةِ بِالحُجَّةِ، رَمَوْهُ بِالسِّحْرِ مَرَّةً، وَبِالكَذِبِ أُخْرَى، وَبِالجُنُونِ طَوْرًا، وَبِالكَهَانَةِ تَارَةً، كُلُّ ذَلِكَ شَأْنُ العَاجِزِ المُعَانِدِ الَّذِي لَا يَسْتَحِي لِمَزِيدِ عِنَادِهِ أَنْ يَقُولَ: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال:٣٢][١].

وَفَاةُ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا:

وَبَعْدَ خُرُوجِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنَ الشِّعْبِ بِقَلِيلٍ، وَقَبْلَ الهِجْرَةِ بِثَلَاثِ سِنِينَ تُوُفِّيَتْ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ زَوْجُهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.............................

[١] وهذا من سَفَهِهم وحُمْقهم، كانَ الوَاجِبُ عليْهم أن يقُولُوا: اللَّهم إن كانَ هذا الحقَّ مِن عندِك فَاهدِنا إليه، لكِنْ قالُوا ما قالُوا ممَّا يدُلُّ علَى حُمْقِهم وعِنادِهم وجَهْلِهم.

وَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَثِيرًا مَا يَذْكُرُهَا وَيَتَرَحَّمُ عَلَيْهَا وَلَا غَرَابَةَ، فَهِيَ أَوَّلُ نَفْسٍ زَكِيَّةٍ صَدَّقَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِيمَا جَاءَ بِهِ عَنْ رَبِّهِ، وَقَدْ جَاءَ مِنْهَا بِأَوْلَادِهِ كُلِّهِمْ مَا عَدَا إِبْرَاهِيمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ:

- فَمِنْهَا زَيْنَبُ، وَهِيَ أَكْبَرُ بَنَاتِهِ، تَزَوَّجَهَا فِي الجَاهِلِيَّةِ أَبُو العَاصِ بْنُ الرَّبِيعِ، وَأَعْقَبَ مِنْهَا أُمَامَةَ الَّتِي تَزَوَّجَهَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ بَعْدَ وَفَاةِ فَاطِمَةَ.
- وَمِنْهَا رُقَيَّةُ، وَأُمُّ كُلْثُومٍ، تَزَوَّجَهُمَا عُثْمَانُ، الأُولَى بِمَكَّةَ قَبْلَ الهِجْرَةِ وَهَاجَرَ بِهَا إِلَى الحَبَشَةِ، وَالثَّانِيَةُ بِالمَدِينَةِ بَعْدَ أَنْ مَاتَتْ أُخْتُهَا.
- وَمِنْهَا فَاطِمَةُ، وَهِيَ أَصْغَرُ بَنَاتِهِ، تَزَوَّجَهَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ.

وَقَدْ جَاءَتْ خَدِيجَةُ بِأَوْلَادٍ تُوفُّوا صِغَارًا، وَلَمْ يَعِشْ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ أَوْلَادِهِ إِلَّا فَاطِمَةُ، عَاشَتْ بَعْدَهُ قَلِيلًا.

وَلَمَّا تُوفِّيَتْ خَدِيجَةُ حَزِنَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللهِ حُزْنًا شَدِيدًا لِمَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ الرِّقَّةِ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمُحَاجَزَةِ الكُفَّارِ عَنْهُ، لِمَا لَهَا مِنَ الجَاهِ فِي عَشِيرَتِهَا بَنِي أَسَدٍ.

- وَمِنْهَا القَاسِمُ، وَكَانَ بِهِ يُكْنَى رَسُولُ اللهِ ﷺ.
- وَعَبْدُ اللهِ المُلَقَّبُ بِالطَّيِّبِ، وَالطَّاهِرِ[١].

---

[١] هؤُلاءِ ثلَاثَةٌ: القاسِمُ والطَّيِّب وإبرَاهِيمُ.

زَوَاجُ سَوْدَةَ:

وَعقَدَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي الشَّهْرِ الَّذِي مَاتَتْ فِيهِ خَدِيجَةُ عَلَى سَوْدَةَ بِنْتِ زَمْعَةَ العَامِرِيَّةِ القُرَشِيَّةِ، بَعْدَ أَنْ تُوفِّيَ عَنْهَا زَوْجُهَا وَابْنُ عَمِّهَا السَّكْرَانُ بْنُ عَمْرٍو، وَقَدْ كَانَتْ آمَنَتْ بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ وَخَالَفَتْ أَقَارِبَهَا وَبَنِي عَمِّهَا، وَهَاجَرَتْ مَعَ زَوْجِهَا إِلَى الحَبَشَةِ فِي المَرَّةِ الثَّانِيَةِ خَوْفَ الفِتْنَةِ، وَعَقِبَ رُجُوعِهِ مِنْ هِجْرَتِهِ تُوفِّيَ عَنْهَا، فَلَمْ يَكُنْ ثَمَّ أَجْمَلَ مِمَّا صَنَعَهُ الرَّسُولُ ﷺ بِزَوْجِ رَجُلٍ آمَنَ بِهِ، وَلَوْ تُرِكَتْ لِقَوْمِهَا مَعَ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الغِلْظَةِ وَكَرَاهَةِ الإِسْلَامِ لَفَتَنُوهَا، وَكَرَمُ نَسَبِهَا فِي قَوْمِهَا يَمْنَعُهَا مِنَ التَّزَوُّجِ بِرَجُلٍ أَقَلَّ مِنْهَا نَسَبًا وَشَرَفًا.

زَوَاجُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

وَبَعْدَ ذَلِكَ بِشَهْرٍ عَقَدَ عَلَى عَائِشَةَ بِنْتِ صَدِيقِهِ أَبِي بَكْرٍ، وَهِيَ لَا تَتَجَاوَزُ السَّابِعَةَ مِنْ عُمْرِهَا، وَلَمْ يَتَزَوَّجْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِكْرًا غَيْرَهَا، وَدَخَلَ عَلَيْهَا بِالمَدِينَةِ، أَمَّا سَوْدَةُ فَدَخَلَ عَلَيْهَا بِمَكَّةَ.

وَبَعْدَ وَفَاةِ خَدِيجَةَ بِنَحْوِ شَهْرٍ تُوفِّيَ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ الَّذِي كَانَ يَمْنَعُهُ مِنْ أَذَى أَعْدَائِهِ، وَمَعَ أَنَّه كَانَ لَا يُكَذِّبُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِيمَا جَاءَ بِهِ، بَلْ يَعْتَقِدُ صِدْقَهُ لَمْ يَنْطِقْ بِالشَّهَادَتَيْنِ حَتَّى آخِرِ لَحْظَةٍ مِنْ حَيَاتِهِ، وَفِيهِ نَزَلَ فِي سُورَةِ القَصَصِ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص:٥٦]، وَلَكِنَّ لِأَعْمَالِهِ العَظِيمَةِ الَّتِي عَمِلَهَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ نَرْجُو أَنْ يُخَفَّفَ عَنْهُ[١].

---

[١] في الوَاقِع أنَّه خُفِّف عنه؛ لأنَّ النَّبي -صلَّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِه وسلَّم- استأْذن

= مِن اللهِ أنْ يشْفَع لعَمِّه فأذِن لَه فكانَ فِي ضحْضَاحٍ مِن نَارٍ عليه نعْلَانِ يغْلِي منْهُما دِماغُه وَالعِياذُ باللهِ، قَال النَّبيُّ ﷺ: «وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ»(١).

وَفيه فائدةٌ عظِيمةٌ، وهي أنَّ إضافةَ الشيْءِ إلى سببِه الصحيحِ دُون ذكر المسبِّب وهُو اللهُ جائزٌ؛ لأنَّ الرَّسولَ قالَ: «لَوْلَا أَنَا»، يعْنِي: لولا أنِّي شفعتُ له لكان في الدَّرْك الأسْفَل مِن النَّار، وهذه المسألَةُ لها صُورٌ:

الصُّورَة الأُولى: أن يقولَ: لوْلا هذَا الشَّيْء لكانَ هَذا، وهَذا جائِزٌ بشَرْط أنْ يكُون الشَّيءُ سببًا صحِيحًا.

الصُّورَة الثَّانيةُ: أن يقُولَ: لوْلَا هذَا ثُمَّ اللهُ، فهَذا جائِزٌ؛ لأنَّ المرْتَبة هُنا واضِحَةُ النُّزولِ، وكذلك العكس، لو قال: لوْلَا اللهُ ثُمَّ هذَا، جائز أيضًا لأنَّها واضِحَة نُزولِ مرْتَبة المشَارِك.

الصُّورَة الثَّالثة: أن يقُولَ: لوْلا اللهُ وفُلانٌ، فهذِه لَا تجُوزُ، قالَ فِيها النَّبي -صلَّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِه وسلَّم- لَمن قال لَه ذلِك: «**أَجَعَلْتَنِي وَاللهَ عَدْلاً، بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ**»(٢).

الصُّورَة الرَّابِعَة: أنْ يقُولَ: لوْلَا اللهُ ففُلان، بِالفاءِ الدَّالَّة على التَّرْتِيب والتَّعْقيب، فهَلْ نقُول أنَّها جائِزَةٌ مثْلُ (ثُمَّ)، أوْ نقولُ أنَّها ممنوعةٌ مثْل (الواو)؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب، رقم (٣٨٨٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب، رقم (٢٠٩).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢١٤، رقم ١٨٣٩).

وَعَدَمُ إِسْلَامِهِ هُوَ وَغَالِبِ أَقَارِبِ الرَّسُولِ ﷺ فِيهِ مِنَ الحِكْمَةِ مَا لَا يَخْفَى، فَإِنَّهُمْ لَوْ بَادَرُوا بِاتِّبَاعِهِ لَقِيلَ: قَوْمٌ يَطْلُبُونَ سِيَادَةً وَفَخْرًا لَيْسَا لَهُمْ فَجَاءُوا بِهَذَا الأَمْرِ المُفْتَرَى، وَلَكِنْ لَمَّا رَأَى المُعَانِدُونَ أَنَّ مُتَّبِعِيهِ هُمُ الغُرَبَاءُ عَنْهُ الَّذِينَ لَيْسُوا مِنْ عَشِيرَتِهِ، بَلْ مِنْ أَعْدَائِهَا أَحْيَانًا، كَعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ، لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ أَدْنَى حُجَّةٍ يُقِيمُونَهَا، اللَّهُمَّ إِلَّا دَعَاوِيهِمُ الكَاذِبَةَ الَّتِي كَانُوا يَتَمَسَّكُونَ بِهَا حِينَمَا تَصْدَعُهُمُ الحُجَّةُ مِنْ قَوْلِهِمْ: سَاحِرٌ يُفَرِّقُ بَيْنَ المَرْءِ وَزَوْجِهِ، وَكَاهِنٌ يَتَكَهَّنُ بِالغَيْبِ.

وَقَدْ سَمَّى رَسُولُ اللهِ هَذَا العَامَ الَّذِي فُقِدَ فِيهِ زَوْجُهُ وَعَمُّهُ عَامَ الحُزْنِ.

وَلَمَّا مَاتَ أَبُو طَالِبٍ نَالَتْ قُرَيْشٌ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا لَمْ يُمْكِنْهَا نَيْلُهُ فِي حَيَاةِ أَبِي طَالِبٍ، وَاشْتَدَّ الأَمْرُ عَلَيْهِ حَتَّى كَانُوا يَنْثُرُونَ التُّرَابَ عَلَى رَأْسِهِ وَهُوَ سَائِرٌ، وَيَضَعُونَ أَوْسَاخَ الشَّاةِ عَلَيْهِ فِي صَلَاتِهِ، وَتَعَلَّقَتْ بِهِ كُفَّارُ قُرَيْشٍ مَرَّةً يَتَجَاذَبُونَهُ وَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ الَّذِي تُرِيدُ أَنْ تَجْعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا[١]،........................

الحَقِيقَةُ أَنَّهَا فِي مَنْزِلَةٍ بَيْنَ المَنْزِلَتَيْنِ، هِيَ دُونَ (ثُمَّ) لِأَنَّ التَّراخِي في (ثُمَّ) واضِحٌ، والارْتباط في الفَاء والتَّعقيب واضِحٌ، فهي محلُّ إشكالٍ، والأَوْلَى العدولُ عنْهَا إِلى (ثُم)، أَوْ إِلى ذكْرِ اللهِ وحْدَه.

الصُّورَة الخَامسَة: أنْ يقولَ: لوْلا اللهُ لكانَ كذَا وكذَا، وهذَا جائِزٌ، وهُو الأَصْل.

إِذَن كأَنَّ المؤلِّف رَحِمَهُ اللَّهُ لم يطَّلع علَى حديثِ مُسلِمٍ السَّابق حين قَال: «نَرْجُو أَنْ يُخَفَّفَ عَنْهُ»، ونقُول: بَل خُفِّف عنْهُ بالفِعْل.

[١] هذَا مِن العَجائِب، فإنَّ قُريشًا لا تُؤْذِي أحدًا جاءَ إِلى المسْجِد الحـرَامِ حتَّى

فَمَا تَقَدَّمَ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى يُخَلِّصَهُ مِنْهُمْ لِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الضَّعْفِ، إِلَّا أَبُو بَكْرٍ فَإِنَّهُ تَقَدَّمَ، وَقَالَ: أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ[(١)].

هِجْرَةُ الطَّائِفِ:

فَلَمَّا رَأَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ اسْتِهَانَةَ قُرَيْشٍ بِهِ أَرَادَ أَنْ يَتَوَجَّهَ إِلَى ثَقِيفٍ بِالطَّائِفِ، يَرْجُو مِنْهُمْ نُصْرَتَهُ عَلَى قَوْمِهِ وَمَسَاعَدَتَهُ؛ حَتَّى يُتَمِّمَ أَمْرَ رَبِّهِ؛ لِأَنَّهُمْ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَى مَكَّةَ وَلَهُ فِيهِمْ خُؤُولَةٌ، فَإِنَّ أُمَّ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ عَاتِكَةَ السُّلَمِيَّةَ مِنْ بَنِي سُلَيْمِ بْنِ مَنْصُورٍ، وَهُمْ حُلَفَاءُ ثَقِيفٍ، فَلَمَّا تَوَجَّهَ إِلَيْهِمْ وَمَعَهُ مَوْلَاهُ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ، قَابَلَ رُؤَسَاءَهُمْ، وَكَانُوا ثَلَاثَةً عَبْدُ يَالَيْلِ وَمَسْعُودُ وَحَبِيبُ أَوْلَادُ عَمْرِو بْنِ عُمَيْرٍ الثَّقَفِيِّ، فَعَرَضَ عَلَيْهِمْ نُصْرَتَهُ حَتَّى يُؤَدِّيَ دَعْوَتَهُ،..........

= لَو كانَ كافرًا، والنَّبيُّ ﷺ ساجِدٌ تحْتَ الكَعْبة يعْبُد الله عَزَّوَجَلَّ ويُؤذُونَه هذَا الإيذَاءَ، يأْتُون بسَلَى الجُزُور ويضَعُونَه علَى ظهرِه وهُو ساجد[(٢)]، كلُّ هذا مِن أجْلِ أنْ يَنالَ رسُولُ اللهِ -صلَّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِه وسلَّم- أعْلَى دَرجاتِ الصَّبْر؛ لأنَّ الصَّبر خُلُقٌ عظِيمٌ، لا ينَالُه الإنسَانُ إلَّا بوجود شيْءٍ يصْبِر علَيْه، كما أنَّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُمْرَض كما يُمْرَض الرَّجُلان منَّا، يعني يشدَّد عليه، وشُدِّد عليه أيضًا النَّزْع عند المَوْت، فكلُّ هذا حتَّى ينالَ أعْلَى درجات الصَّبْر، صلَواتُ اللهِ وسَلامُه علَيْه، وأسْأَلُ اللهَ تَعالى أن يحْشُرَنا في زُمْرَتِه جميعًا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلًا»، رقم (٣٦٧٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب إذا ألقي على ظهر المصلى قذر أو جيفة، رقم (٢٤٠).

فَرَدُّوا عَلَيْهِ رَدًّا قَبِيحًا، وَلَمْ يَرَ مِنْهُمْ خَيْرًا، وَحِينَذَاكَ طَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ لَا يُشِيعُوا ذَلِكَ عَنْهُ، كَيْلَا تَعْلَمَ قُرَيْشٌ فَيَشْتَدَّ أَذَاهُمْ؛ لِأَنَّهُ اسْتَعانَ عَلَيْهِمْ بِأَعْدَائِهِمْ، فَلَمْ تَفْعَلْ ثَقِيفٌ مَا رَجَاهُ مِنْهُمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، بَلْ أَرْسَلُوا سُفَهَاءَهُمْ وَغِلْمَانَهُمْ يَقِفُونَ فِي وَجْهِهِ فِي الطَّرِيقِ وَيَرْمُونَهُ بِالحِجَارَةِ؛ حَتَّى أَدْمَوْا عَقِبَهُ، وَكَانَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ يَدْرَأُ عَنْهُ، إِلَى أَنِ انْتَهَى إِلَى شَجَرَةِ كَرْمٍ، وَاسْتَظَلَّ بِهَا، وَكَانَتْ بِجِوَارِ بُسْتَانٍ لِعُتْبَةَ وَشَيْبَةَ ابْنَيْ رَبِيعَةَ وَهُمَا مِنْ أَعْدَائِهِ، وَكَانَا فِي البُسْتَانِ فَكَرِهَ رَسُولُ اللهِ مَكَانَهُمَا، فَدَعَا اللهَ قَائِلًا: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ! أَنْتَ رَبُّ المُسْتَضْعَفِينَ، وَأَنْتَ رَبِّي، إِلَى مَنْ تَكِلُنِي؟ إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي، أَمْ إِلَى عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي؟ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فَلَا أُبَالِي، غَيْرَ أَنَّ عَافِيَتَكَ أَوْسَعُ لِي»[١].

فَلَمَّا رَآهُ ابْنَا رَبِيعَةَ رَقَّا لَهُ، وَأَرْسَلَا إِلَيْهِ بِقَطْفٍ مِنَ العِنَبِ مَعَ مَوْلًى لَهُمَا نَصْرَانِيٍّ اسْمُهُ عَدَّاسٌ، فَلَمَّا ابْتَدَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَأْكُلُ قَالَ: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، فَقَالَ عَدَّاسٌ: هَذَا الكَلَامُ مَا يَقُولُهُ أَهْلُ هَذِهِ البِلَادِ، فَقَالَ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مِنْ أَيِّ البِلَادِ أَنْتَ؟ وَمَا دِينُكَ»؟ فَقَالَ: نَصْرَانِيٌّ مِنْ نِينَوَى، فَقَالَ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مِنْ قَرْيَةِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ يُونُسَ بْنِ مَتَّى»؟ قَالَ: وَمَا عِلْمُكَ بِيُونُسَ؟..........

---

[١] هذَا الحدِيثُ فِيه معانٍ جليلةٌ، «إِنْ لم يكُنْ بك عليَّ غضبٌ فلَا أُبالي»، الإنسانُ أحيانًا تأْتِيه أشْيَاءُ تُضيِّق صدرَه داخليةٌ وخارجيَّةٌ، في الأَهْل أو في الأقارِبِ، «إنْ لم يكُنْ بك عليَّ غضَبٌ فلَا أُبالِي»؛ لأنَّ الرِّضا مقْصُودِي، «غيرَ أنَّ عافيتَك أَوْسعُ لي»، لا شكَّ لأنَّ البلاءَ قد يَنْزِلُ بالإنْسَانِ ويحصُل عليه انحرافٌ، نسأَلُ اللهَ العافِيَةَ.

فَقَرَأَ لَهُ مِنَ القُرْآنِ مَا فِيهِ قِصَّةُ يُونُسَ، فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ عَدَّاسٌ أَسْلَمَ، وَأَتَى جِبْرِيلُ بِرِسَالَةٍ مِنَ اللهِ جَلَّ ذِكْرُهُ، وَقَالَ: إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أُطِيعَكَ فِي قَوْمِكَ لِمَا صَنَعُوهُ مَعَكَ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»، فَقَالَ جِبْرِيلُ: صَدَقَ مَنْ سَمَّاكَ الرَّؤُوفَ الرَّحِيمَ[١].

وَلَمَّا كَانَ بِنَخْلَةَ وَفَدَ عَلَيْهِ نَفَرٌ مِنَ الجِنِّ يَسْتَمِعُونَ القُرْآنَ، وَهُمْ مِمَّنْ يَنْتَمُونَ إِلَى مُوسَى -صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ- فَلَمَّا سَمِعُوهُ أَنْصَتُوا لَهُ، وَرَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ، وَأَبْلَغُوهُمْ خَبَرَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَفِيهِمْ نَزَلَ فِي سُورَةِ الأَحْقَافِ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف:٢٩-٣٢][٢]،

---

[١] هذا يحتاج إلى إثباتٍ؛ لأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لم يسمِّ النبيَّ ﷺ الرَّؤوفَ الرَّحيم بل قيَّد فقال: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨]، وهذه ليْست تسميةً على الإطْلاق، وكذلك قصَّة عدَّاس تحتاجُ إلى تحليلٍ، ولكنَّ المتتبِّع للتَّواريخِ يرى أنَّ الأمْرَ كما قالَ الإمامُ أحمدُ أنَّ هذه التَّواريخَ والسِّيرَ والمغازي ليْسَ لها إسنادٌ قائمٌ، لكِن يتوارَدُها النَّاس ويتناقلُونَها ثُم تُكتَب.

[٢] في هذه القصَّةِ قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ﴾ يعْني: اذْكُر يا محمَّدُ إذ صرَفْنا إليْك، ولا يخْفَى مَا في هذا التَّعبير مِن كَوْن أفعالِ العِباد بيَدِ الله عَزَّوَجَلَّ وبإرادةِ اللهِ

= خلافًا لِلْقدرِيَّة، وقولُه ﴿نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ دَليلٌ علَى أنَّ الجنَّ يَسْمُون نفرًا كَما أنَّهم يُسمَّوْن رِجالًا، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن:٦]، يستَمِعُون القُرآنَ، يعْنِي خلَقْناهُم لأَجْل أن يستَمِعوا القُرآنَ، ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾، وهذَا دَلِيلٌ علَى أدَبِهم حيْثُ أمَرَ بعْضُهم بعْضًا بِالإنْصَاتِ، وَهُو الاستِماعُ بِوَعيٍ، لما يُقال ﴿فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾، وهَذا أيْضًا مِن كَمال أدَبِهم لَمْ يقُمْ أحَدٌ منْهُم حتَّى انتَهى الحدِيثُ، وهكَذا ينْبَغي لمن حَضَر كلامًا نافعًا أنْ لَا ينْصَرِف حتَّى ينْتَهي، فلَمَّا انْتَهى ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾، أي انْصَرفُوا إلَى قَوْمِهم يُنذرونَهم مِن البَقاء عَلى الشِّرْك ومخالَفَةِ الرُّسلِ، قالُوا: ﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأحقاف:٢٩]، أيْ لِلْكُتُب السَّابقَة، وللرُّسل السَّابقين، وتصْدِيقُ القُرآنِ لِمَا بيْنَ يدَيْه له معْنَيانِ:

المعْنَى الأَوَّل: الشَّهادَةُ لها بالصِّدْق.

والمعْنَى الثَّاني: أنَّه يُصدِّق ما أخبَرَتْ بِه مِن هَذا القُرْآن؛ لأنَّ الكُتُب السَّابقَة ذكَرت عَن القُرْآن ما ذَكَرت.

وقولُه: ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾، هَذا معْنَى قولِه تَعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام:١٣٠].

وقَد اخْتلَف العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ في معْنَى الآيَةِ: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾، فهل من الجِنِّ رُسُلٌ؟ مِن العُلَماء مَن أخَذ بِظاهِر الآيَةِ، وقَال: إنَّ مِن الجنِّ رُسلًا، لكِنَّ هذَا القولَ ضَعِيفٌ لقَوْل اللهِ تَعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا

= ﴿فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [الحديد:٢٦]، وعَلى هَذا فإمَّا أنْ تكُونَ الآيَةُ: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ الخطابُ مُوجَّه للمَجْمُوع، وأحَدُ الطَّرفَيْن في المجْمُوع منْهُم الرُّسل لَا الجمِيعُ الَّذي يشْمَلُ كُلَّ واحِدٍ، وإمَّا أن يُقالَ الرُّسلُ مِن الإنْسِ هُم الَّذينَ أرْسَل اللهُ إلَيْهم وأمـرَهم اللهُ بالتَّبلِيغ، وأمَّا الرُّسل مِن الجـنِّ فهُمُ الَّذينَ أرْسَلَهم الرُّسلُ إلى قوْمِهم، وليْسُـوا رُسُلًا مُوحًى إليهم، ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، والحقُّ يعْنِـي الصِّدْقَ والعـدْلَ، وإِلى طَرِيقٍ مستَقِيمٍ، أي منْهَجٍ مسْـتَقيمٍ لا اعْوِجاجَ فِيـه ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾، والمُراد بـداعِ اللهِ هُـو محمَّدٌ -صلَّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِه وسلَّم-، وهَذا كقَوْل المؤْمِنينَ، ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ [آل عمران:١٩٣].

وقوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، قالَ: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾، ولم يقولوا: «يغْفِر لهُم ذُنوبَكم»؛ لأنَّهم على خوْفٍ، وأمَّا الله عَزَّوَجَلَّ فقد قالَ تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الصف:١٠-١٢]، ولم يقل: «مِن ذُنوبِكم» لأنَّه حاكمٌ عَزَّوَجَلَّ، وهؤُلاءِ الجِنُّ لا يحْكُمون بهذَا، لكن يترجَّوْن أنْ تكُونَ المغفِرةُ مِن بعْضِ الذُّنوبِ، ﴿وَيُجِرْكُم﴾، أيْ: يمْنَعُكم ويعْصِمُكم مِن عذابٍ أَليمٍ.

﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعْنِي أنَّ اللهَ قـادِرٌ عليْه فلَـن يُعجِز اللهَ، ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾ أيْ: أَوْلياء ينْصُرونَهم مِن دُون اللهِ ويمْنَعونَهم عذابَ اللهِ، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أُولَئك المشارُ إلَيْهم مَن لا يُجِيبُون داعِيَ اللهِ، وهَذا كلامٌ بليغٌ فَصيحٌ فِيه الدَّعوةُ والموْعِظةُ، وذِكر الثَّواب وذِكر العقابِ.

وَقَدْ قَصَّ اللهُ قِصَّةَ الجِنِّ بِعِبَارَةٍ أَطْوَلَ فِي سُورَةٍ سُمِّيت بِاسْمِهِمْ، أَوَّلُهَا: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن:١-٢].

الاحْتِمَاءُ بِالمُطْعَمِ بْنِ عَدِيٍّ:

وَلَمَّا رَجَعَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الطَّائِفِ هَكَذَا لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْ دُخُولِ مَكَّةَ، لِمَا عَلِمَهُ كُفَّارُ قُرَيْشٍ مِنْ أَنَّهُ تَوَجَّهَ إِلَى الطَّائِفِ يَسْتَنْصِرُ بِأَهْلِهَا عَلَيْهِمْ، فَأَرْسَلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَى المُطْعِمِ بْنِ عَدِيِّ بْنِ نَوْفَلِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ، يُخْبِرُهُ أَنَّهُ سَيَدْخُلُ مَكَّةَ فِي جِوَارِهِ فَأَجَابَ إِلَى ذَلِكَ، وَتَسَلَّحَ هُوَ وَبَنُوهُ وَتَوَجَّهُوا مَعَ رَسُولِ اللهِ إِلَى المَطَافِ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُ المُشْرِكِينَ: أَمُجِيرٌ أَنْتَ أَمْ تَابِعٌ؟ فَقَالَ: بَلْ مُجِيرٌ، قَالُوا: إِذَنْ لَا تُخْفَرُ ذِمَّتُكَ[1].

وَفْدُ دَوْسٍ:

وَقَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ بِمَكَّةَ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو الدَّوسِيُّ مِنْ قَبِيلَةِ دَوْسٍ عَشِيرَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ الصَّحَابِيِّ الشَّهِيرِ، وَكَانَ الطُّفَيْلُ شَرِيفًا فِي قَوْمِهِ شَاعِرًا نَبِيلًا فَلَمَّا قَرَأَ عَلَيْهِ القُرْآنَ أَسْلَمَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ: «اذْهَبْ إِلَى قَوْمِكَ فَادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ»(١)، وَدَعَا لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا»(٢)، ....

---

[١] مُقتضَى هَذا لَو قَال أَنَّه تابعٌ لم يقْبَلُوا سِفارَتَه.

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه (٣/ ٣٨٤، رقم ٥٤٥٧)، والطبراني في معجمه الأوسط (١/ ٢٦، رقم ٦٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب الدعاء للمشركين بالهدى ليتألفهم، رقم (٢٩٣٧)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل غفار واسلم وجهينة وأشجع، رقم (٢٥٢٤).

فَتَوَجَّـهَ إِلَيْهِمُ الطُّفَيْلُ وَدَعَاهُمْ فَآمَنَ بِدَعْوَتِهِ كَثِـيرٌ مِنْهُمْ، وَسَتَأْتِي وِفَادَتُهُ عَلَى الرَّسُولِ مَرَّةً ثَانِيَةً بِقَوْمِهِ فِي المَدِينَةِ.

الإِسْرَاءُ وَالمِعْرَاجُ:

وَقَبْلَ الهِجْرَةِ أَكْرَمَهُ اللهُ بْالإِسْرَاءِ وَالمِعْرَاجِ، أَمَّا الإِسْرَاءُ فَهُوَ تَوَجُّهُهُ لَيْلًا إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ بِإِيلِيَاءَ وَرُجُوعُهُ مِنْ لَيْلَتِهِ، وَأَمَّا المِعْرَاجُ فَهُوَ صُعُودُهُ إِلَى العَالَمِ العُلْوِيِّ.

وَقَدْ قَالَ جُمْهُورُ أَهْلِ السُّنَّةِ: إِنَّ ذَلِكَ كَانَ بِجِسْمِهِ الشَّرِيفِ، وَكَانَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تَمْنَعُ رُؤْيَةَ رَسُولِ اللهِ رَبَّهُ، وَتَقُولُ: مَنْ قَالَ إِنَّ مُحَمَّدًا رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ أَعْظَمَ الفِرْيَةَ عَلَى اللهِ(١)، وَالإِسْرَاءُ مَذْكُورٌ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ، قَالَ تَعَالَى فِي أَوَّلِ سُـورَةِ الإِسْرَاءِ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء:١][١].

---

[١] قولُه: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ هُو اللهُ عَزَّوَجَلَّ وصَدَّر هذا بالتَّسبيح تنْزِيهًا للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَن العبَثِ فِيما يقدِّرُه تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِن هَذا الإِسْراء، فإِنَّه قَد يقُولُ قائِلٌ: ومَا الفَائِدَة مِن ذَلك؟ فنزَّه نفْسَـه تَبَارَكَ وَتَعَالَى أنْ يكُونَ ذَلِك عبثًا، وَفِي وصْفِه بالعُبوديَّة -صلَّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِه وسلَّم- تكريمٌ له، وهَذه هِـي العُبوديَّةُ الخاصَّة، ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾، هُو يعُود علَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ فأعادَ الضَّميرَ عَلى ما سبَق؛ لأنَّ المعْنَـى واضِحٌ.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب من سورة الأنعام، رقم (٣٠٦٨).

وَأَمَّا المِعْرَاجُ فَقَدْ وَرَدَ فِي صَحِيحِ السُّنَّةِ وَأَصَحُّ أَحَادِيثِهِ مَا رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[١].

وَنَقَلَهُ القَاضِي عِيَاضُ فِي شِفَائِهِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أُتِيتُ بِالبُرَاقِ وَهُوَ دَابَّةٌ فَوْقَ الحِمَارِ وَدُونَ البَغْلِ، يَضَعُ حَافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرَفِهِ[٢]»، قَالَ: فَرَكِبْتُهُ حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ المَقْدِسِ.

فَرَبَطْتُهُ بِالحَلَقَةِ الَّتِي تَرْبِطُ بِهَا الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ دَخَلْتُ المَسْجِدَ فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجْتُ فَأَتَانِي جِبْرِيلُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ، فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ،

---

[١] ظاهِرُ كلامِ المؤلِّف أنَّه لم يَرِد فِي القُرآنِ، ولكنَّه غفَل رَحِمَهُ اللَّهُ، فالمِعْراجُ ورَد فِي القُرآنِ فِي سُورَة النَّجم قَال اللهُ تعالَى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ [النجم:١-١٥]. وفِي النِّهايَة قالَ: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾، فالصَّوابُ أنَّ المعراجَ أيضًا دلَّ علَيْه القُرآنُ، لكِنَّ التَّفْصيل جاءَ فِي السُّنَّة.

[٢] قولُه: «مُنْتَهَى طَرَفِه» هَذا لا ندْرِي مداهُ، فقَدْ يكُون بَعيدًا جدًّا لأيَّامٍ أو شهورٍ، ومِن النَّاس مَن رُوِي عنْهُ أنَّه يَرى مدَى يومٍ أو يَوْمَيْن، وقَد قِيل إنَّ زرْقَاء اليَمامَةِ كانَتْ تنْظُر مسِيرةَ ثلاثَة أيَّامٍ، والمُراد أنَّ هذا البُراقَ يطيرُ طيرانًا شديدًا، يعْني يضَعُ حافِرَه عنْدَ مُنْتهى طرفِه؛ ولِذَلك وَصل بيتَ المقْدِس ورَجع فِي ليْلَةٍ واحدةٍ بعْدَ حُصولِ المعْرَاج، وهَذا مِن آياتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فَقَالَ جِبْرِيلُ: اخْتَرْتَ الفِطْرَةَ[(١)]، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا بِآدَمَ، فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ. ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدُ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِابْنَي الخَالَةِ يَحْيَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، فَرَحَّبَا بِي، وَدَعُوا لِي بِخَيْرٍ. ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ فَذَكَرَ مِثْلَ الأَوَّلِ، فَفُتِحَ لَنَا وَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ، وَإِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الحُسْنِ[١]، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ.

ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، فَذَكَرَ مِثْلَهُ فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيسَ، فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ مَرْيَمَ: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم:٥٧]، ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الخَامِسَةِ، فَذَكَرَ مِثْلَهُ، فَإِذَا أَنَا بِهَارُونَ فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، فَذَكَرَ مِثْلَهُ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى، فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَذَكَرَ مِثْلَهُ، فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ مُسْتَنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى البَيْتِ المَعْمُورِ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفِ مَلَكٍ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ،............

---

[١] شَطْر الحُسْن: يعْنِي نِصْفَه، والمعْنَى أنَّ يُوسُف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أُعْطِي نصْفَ الحُسْن في قومِه وأهلِه، وإلَّا فقد كَانَ النَّبيُّ ﷺ أحْسنَ النَّاس وجْهًا، لكِنَّ يُوسُف أُعْطِي نصْفَ الحُسْن في قَوْمِه وأَهْل زَمانِه.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات، رقم (١٦٢).

ثُمَّ ذَهَبَ بِي إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، فَإِذَا أَوْرَاقُهَا كَآذَانِ الفِيلَةِ، وَإِذَا ثَمَرُهَا كَالقِلَالِ، فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ رَبِّي مَا غَشِيَهَا تَغَيَّرَتْ فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَتَهَا مِنْ حُسْنِهَا، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيَّ مَا أَوْحَى، فَفَرَضَ عَلَيَّ وَعَلَى أُمَّتِي خَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَنَزَلْتُ إِلَى مُوسَى، فَقَالَ: مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: خَمْسِينَ صَلَاةً، قَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ، فَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَبْلَكَ وَخَبَرْتُهُمْ، قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّي، وَقُلْتُ لَهُ: يَا رَبِّ! خَفِّفْ عَنْ أُمَّتِي فَحُطَّ عَنِّي خَمْسًا فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى، فَقُلْتُ: حَطَّ عَنِّي خَمْسًا، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسَلْهُ التَّخْفِيفَ، قَالَ: فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّي تَعَالَى وَبَيْنَ مُوسَى حَتَّى قَالَ سُبْحَانَهُ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، بِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرٌ، فَتِلْكَ خَمْسُونَ صَلَاةً، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَعَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ لَهُ شَيْئًا، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَعَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةٌ، قَالَ: فَنَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَقُلْتُ: قَدْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ، ثُمَّ رَجَعَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ لَيْلَتِهِ فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا إِلَى نَادِي قُرَيْشٍ فَجَاءَ إِلَيْهِ أَبُو جَهْلِ بْنُ هِشَامٍ، فَحَدَّثَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَا جَرَى لَهُ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ! هَلُمُّوا، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ كُفَّارُ قُرَيْشٍ فَأَخْبَرَهُمُ الرَّسُولُ الخَبَرَ، فَصَارُوا بَيْنَ مُصَفِّقٍ وَوَاضِعٍ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ تَعَجُّبًا وَإِنْكَارًا، وَارْتَدَّ نَاسٌ مِمَّنْ كَانَ آمَنَ بِهِ مِنْ ضِعَافِ القُلُوبِ،

وَسَعَى رِجَالٌ إِلَى أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَ: إِنْ كَانَ قَالَ ذَلِكَ لَقَدْ صَدَقَ[١]، قَالُوا: أَتُصَدِّقُهُ عَلَى ذَلِكَ؟ قَالَ: إِنِّي لَأُصَدِّقُهُ عَلَى أَبْعَدَ مِنْ ذَلِكَ، فَسُمِّيَ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ صِدِّيقًا.

ثُمَّ قَامَ الكُفَّارُ يَمْتَحِنُونَ رَسُولَ اللهِ فَسَأَلُوهُ عَنْ نَعْتِ بَيْتِ المَقْدِسِ، وَفِيهِمْ رِجَالٌ رَأَوْهُ أَمَّا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَلَمْ يَكُنْ رَآهُ قَبْلَ ذَلِكَ، فَجَلَّاهُ اللهُ لَهُ فَصَارَ يَصِفُهُ لَهُمْ بَابًا بَابًا، وَمَوْضِعًا مَوْضِعًا، قَالُوا: أَمَّا النَّاسُ فَقَدْ أَصَبْتَ، فَأَخْبِرْنَا عَنْ عِيرِنَا، وَكَانَتْ لَهُمْ عِيرٌ قَادِمَةٌ مِنَ الشَّامِ فَأَخْبَرَهُمْ بِعَدَدِ جِمَالِهَا وَأَحْوَالِهَا، وَقَالَ: تَقْدُمُ يَوْمَ كَذَا مَعَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، يَقْدُمُهَا جَمَلٌ أَوْرَقُ، فَخَرَجُوا يَشْتَدُّونَ ذَلِكَ الْيَوْمَ نَحْوَ الثَّنِيَّةِ، فَقَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ: هَذِهِ وَاللهِ الشَّمْسُ قَدْ أَشْرَقَتْ، فَقَالَ آخَرُ: وَهَذِهِ وَاللهِ العِيرُ قَدْ أَقْبَلَتْ يِقْدُمُهَا جَمَلٌ أَوْرَقُ[٢]، كَمَا قَالَ مُحَمَّدٌ، ثُمَّ لَمْ يَزِدْهُمْ هَذَا إِلَّا كِبْرًا وَعِنَادًا، حَتَّى قَالُوا: هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ.

---

[١] هذَا مِن احترَازِه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «إِنْ كانَ قالَ ذَلك»، وهذا الشَّرْط يجِبُ أنْ يستعمِلَه الإنسانُ فِي كُلِّ خبرٍ شكَّ فِيه، ولا يبْنِي عَلى خبَرَ النَّاس، فالنَّاس قَد يُخبرُونه بالكَذب عَمْدًا، وقَدْ يخبِرُون بالكَذِب وَهمًا، فقيِّد حتَّى تسلَّم، قُل: إِنْ كانَ قالَ ذَلك فقَدْ صدَق أو كذَب، وهذَا الاحْترازُ مِن أَبِي بكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يدُلُّ على وَرَعِه، وأنَّه ليْس متعجِّلًا، ثُمَّ إِنَّه قالَ: أُصدِّقُه علَى أبْعَد مِن ذَلك، فهُو يُصدِّقه علَى كلِّ شيْءٍ؛ ولهذَا سُمِّي مِن ذلك الوَقْت مِن ذلك اليَوم الصِّدِّيق مبالغةً في الصِّدْق، وقَد أشَار اللهُ إِلى معْنَى الصِّدِّيق بقولِه: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ [الزمر:٣٣]، فهُو صادِقٌ لما يجِيءُ بِه مصدِّق للصِّدْق.

[٢] الأَوْرَق هُو الَّذي لَونُ شعْرِه أشْهَبُ، نسبَةً إِلى الوَرِق، وهُو الفضَّةُ.

وَفِي صَبِيحَةِ لَيْلَةِ الإِسْرَاءِ جَاءَ جِبْرِيلُ، وَعَلِمَ رَسُولُ اللهِ كَيْفِيَّةَ الصَّلَاةِ وَأَوْقَاتَهَا، فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ إِذَا ظَهَرَ الفَجْرُ، وَأَرْبَعَ رَكَعَاتٍ إِذَا زَالَتِ الشَّمْسُ، وَمِثْلَهَا إِذَا ضُوعِفَ ظِلُّ الشَّيْءِ وَثَلَاثًا إِذَا غَرَبَتْ، وَأَرْبَعًا إِذَا غَابَ الشَّفَقُ الأَحْمَرُ، وَكَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَبْلَ مَشْرُوعِيَّةِ الصَّلَاةِ، يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ صَبَاحًا، وَمِثْلَهُمَا مَسَاءً كَمَا كَانَ يَفْعَلُ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

العَرْضُ عَلَى القَبَائِلِ:

وَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَّهُ يَجِدُ مِنْ قُرَيْشٍ مَنْعَهُ مِنْ تَأْدِيَةِ الرِّسَالَةِ وَتَسَلَّطَ الكِبْرُ وَالعَظَمَةُ عَلَى قُلُوبِهِمْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يُظْهِرَ أَمْرَ الدِّينِ عَلَى أَيْدِي غَيْرِهِمْ مِنَ العَرَبِ، فَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَخْرُجُ فِي المَوَاسِمِ العَرَبِيَّةِ وَهِيَ أَسْوَاقٌ كَانَتِ العَرَبُ تَعْقِدُهَا لِلتِّجَارَةِ وَالمُفَاخَرَةِ، وَيَعْرِضُ نَفْسَهُ عَلَى القَبَائِلِ لِيَحْمُوهُ حَتَّى يُؤَدِّيَ رِسَالَةَ رَبِّهِ، فَكَانَ بَعْضُهُمْ يَرُدُّ رَدًّا جَمِيلًا، وَآخَرُونَ رَدًّا قَبِيحًا، وَكَانَ مِنْ أَقْبَحِ القَبَائِلِ رَدًّا بَنُو حَنِيفَةَ رَهْطُ مُسَيْلِمَةَ الكَذَّابِ، وَطَلَبَ مِنْهُ بَنُو عَامِرٍ إِنْ هُمْ آمَنُوا بِهِ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ أَمْرَ الرِّئَاسَةِ مِنْ بَعْدِهِ، فَقَالَ لَهُمْ: الأَمْرُ للهِ يَضَعُهُ حَيْثُ يَشَاءُ، وَكَانَ مِنَ الَّذِينَ يَحُجُّونَ البَيْتَ عَرَبُ يَثْرِبَ[١]، وَهِيَ مَدِينَةٌ بَيْنَ مَكَّةَ وَالشَّامِ يَقْطُنُهَا قَبِيلَتَانِ، إِحْدَاهُمَا مِنْ وَلَدِ الأَوْسِ، وَالثَّانِيَةُ مِنْ وَلَدِ الخَزْرَجِ.

---

[١] يثْرِب هُو اسمُ المدِينَة القديمُ، لكِنَّ النَّبي ﷺ سمَّاها طيبة، فقالَ: «يَقُولُونَ يَثْرِبُ وَهِيَ طَيبَةُ»(١)، وفِي هَذا دليلٌ علَى كراهةِ اسْم المدينةِ بيثرب، وإنْ كَان هذا اسمَها

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب المدينة تنفي شرارها، رقم (١٣٨٢).

وَهُمَا أَخَـوَانِ، وَكَانَ بَيْنَ أَوْلَادِهِمَا مِنَ العَدَاوَةِ مَا يَجْعَلُ الحَـرْبَ لَا تَضَعُ أَوْزَارَهَا بَيْنَ الفَرِيقَيْنِ، فَكَانُوا دَائِمًا فِي شِقَاقٍ وَنِزَاعٍ، وَكَانَ يُجَاوِرُهُمْ فِي المَدِينَةِ أَقْوَامٌ مِنَ اليَهُودِ، وَهُمْ بَنُو قَيْنُقَاعٍ وَبَنُو قُرَيْظَةَ وَبَنُو النَّضِيرِ، وَكَانَ لَهُمُ الغَلَبَةُ عَلَى يَثْرِبَ أَوَّلًا، فَحَارَبَهُمُ العَرَبُ حَتَّـى صَارُوا ذَوِي النُّفُوذِ فِيهَا وَالقُوَّةِ، وَكَانَ اليَهُـودُ إِذَا خَذَلُوا يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ بِاسْمِ نَبِيٍّ يُبْعَثُ قَدْ قَرُبَ زَمَانُهُ، وَلَمَّا اخْتَلَفَتْ كَلِمَةُ العَرَبِ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَشَقَّتْ عَصَا الأُلْفَةِ حَالَفُوا اليَهُودَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَحَالَفَ الأَوْسُ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَحَالَفَ الخَزْرَجُ بَنِي النَّضِيرِ وَبَنِي قَيْنُقَاعٍ[١]، وَآخِرُ الأَيَّامِ بَيْنَهُمْ يَوْمُ بُعَاثٍ، قُتِلَ فِيهِ أَكْثَرُ رُؤَسَائِهِمْ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُـولَ مِنَ الخَزْرَجِ وَأَبُو عَامِرٍ الرَّاهِبُ مِنَ الأَوْسِ،........................

= القديمَ لكِنْ مَا دام النبـيُّ ﷺ أنكَره، وقَال: «يقُولُون يثرب وهِي طيبةُ»، فَلا ينْبَغـي التَّعبيرُ بِه، إلَّا عَلى سبيل الحكايَةِ، فَمَن قَال ذلِك فالحكايَةُ، كَما يقُولُون حكايَةُ الكُفْر ليست كفرًا.

[١] وَسببُ وُجودِ اليَهُود فِي المدِينةِ هُو أَنَّهم عرَفُوا أنَّه سيُبعث نبـيٌّ صفتُه كَذا وكَذا، يأْمُرهم بالمعْرَوف وينْهاهُم عنِ المنْكَر، ويُحِل لهم الطيباتِ ويحرِّم عليهم الخبائثَ، ويَضَع عنهم إصرَهم والأهوالَ الَّتـي كانت علَيْهم، وأنَّه سينتصر وتَكُون الدَّولة لَه، عرَفوا هذا فرَحَلُوا مِن الشَّام إلى المدينَةِ يلتمسون بعثَ هَذا الرَّجُل ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة:٨٩]؛ لأنَّهم كانوا يُؤمِّلُون أن يكون هذا الرَّجُل مِن بَني إسرائِيلَ، وإِنْ كَانوا يعْرِفون إنَّه مِن العَربِ، لكِن يقُولونَ: لعلَّ ولعلَّ، وكانَتِ الحُروبُ بيْنَهم وبيْنَ العَرَب، ولكِنْ جعل اللهُ عَزَّوَجَلَّ قولَهُ هُو الأَعْلى.

وَلِذَلِكَ كَانَتْ عَائِشَةُ تَقُولُ: كَانَ يَوْمُ بُعَاثٍ يَوْمًا قَدِمَهُ اللهُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ[1]، وَقَدْ خَطَرَ بِبَالِ رُؤَسَاءِ الأَوْسِ أَنْ يُحَالِفُوا قُرَيْشًا عَلَى الخَزْرَجِ فَأَرْسَلُوا إِيَاسَ بْنَ مُعَاذٍ، وَأَبَا الحَيْسَرِ أَنَسَ بْنَ رَافِعٍ مَعَ جَمَاعَةٍ يَلْتَمِسُونَ ذَلِكَ الحِلْفَ فِي قُرَيْشٍ فَلَمَّا جَاؤُوا مَكَّةَ جَاءَهُمْ رَسُولُ اللهِ، وَقَالَ: هَلْ لَكُمْ فِي خَيْرٍ مِمَّا جِئْتُمْ لَهُ؟ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَقَدْ أَرْسَلَنِي اللهُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، ثُمَّ تَلَا عَلَيْهِمُ القُرْآنَ، فَقَالَ إِيَاسُ بْنُ مُعَاذٍ: يَا قَوْمِ هَذَا وَاللهِ خَيْرٌ مِمَّا جِئْنَا لَهُ فَحَصَبَهُ أَبُو الحَيْسَرِ وَقَالَ لَهُ: دَعْنَا مِنْكَ، لَقَدْ جِئْنَا لِغَيْرِ هَذَا، فَسَكَتَ.

بَدْءُ إِسْلَامِ الأَنْصَارِ:

وَلَمَّا جَاءَ المَوْسِمُ تَعَرَّضَ رَسُولُ اللهِ لِنَفَرٍ مِنْهُمْ يَبْلُغُونَ السِّتَّةَ، وَكُلُّهُمْ مِنَ الخَزْرَجِ وَهُمْ: أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ، وَعَوْفُ بْنُ الحَارِثِ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ، وَرَافِعُ بْنُ مَالِكٍ مِنْ بَنِي زُرَيْقٍ، وَقُطْبَةُ بْنُ عَامِرٍ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ، وَعُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ مِنْ بَنِي حِرَامٍ، وَجَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ مِنْ بَنِي عُبَيدِ بْنِ عَدِيٍّ، وَدَعَاهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ وَإِلَى مُعَاوَنَتِهِ فِي تَبْلِيغِ رِسَالَةِ رَبِّهِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: إِنَّهُ لَلنَّبِيُّ الَّذِي كَانَتْ تَعِدُكُمْ بِهِ يَهُودُ، فَلَا يَسْبِقَنَّكُمْ إِلَيْهِ، فَآمَنُوا بِهِ وَصَدَّقُوهُ، وَقَالُوا: إِنَّا تَرَكْنَا قَوْمَنَا بَيْنَهُمْ مِنَ العَدَاوَةِ مَا بَيْنَهُمْ، فَإِنْ يَجْمَعْهُمُ اللهُ عَلَيْكَ فَلَا رَجُلٌ أَعَزُّ مِنْكَ وَوَعَدُوهُ المُقَابَلَةَ فِي المَوْسِمِ المُقْبِلِ، وَهَذَا هُوَ بَدْءُ الإِسْلَامِ لِعَرَبِ يَثْرِبَ.

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٦١، رقم ٢٤٣٢٠).

العَقَبَةُ الأُولَى:

فَلَمَّا كَانَ العَامُ المُقْبِلُ قَدِمَ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا، مِنْهُمْ عَشَرَةٌ مِنَ الخَزْرَجِ، وَاثْنَانِ مِنَ الأَوْسِ، وَهُمْ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ، وَعَوفُ وَمُعَاذُ ابْنَا الحَارِثِ، وَرَافِعُ بْنُ مَالِكٍ، وَذَكْوَانُ بْنُ قَيْسٍ، وَعُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ، وَيَزِيدُ بْنُ ثَعْلَبَةَ، وَالعَبَّاسُ بْنُ عُبَادَةَ، وَعُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ، وَقُطْبَةُ بْنُ عَامِرٍ، وَهَؤُلَاءِ مِنَ الخَـزْرَجِ، وَأَبُو الهَيْثَمِ بْنُ التَّيْهَانِ، وَعُوَيْمُ بْنُ سَاعِدَةَ، وَهُمَا مِنَ الأَوْسِ، فَاجْتَمَعُوا بِهِ عِنْدَ العَقَبَةِ، وَأَسْلَمُوا وَبَايَعُوا رَسُولَ اللهِ عَلَى بَيْعَةِ النِّسَاءِ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ تُفْتَرَضَ الحَـرْبُ عَلَى أَلَّا يُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَلَا يَسْرِقُوا، وَلَا يَزْنُوا، وَلَا يَقْتُلُوا أَوْلَادُهُمْ، وَلَا يَأْتُوا بِبُهْتَانٍ يَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ، وَلَا يَعْصُونَهُ فِي مَعْرُوفٍ، فَإِنْ وَفَوْا فَلَهُمُ الجَنَّةُ، وَإِنْ غَشَوْا مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَأَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ إِنْ شَاءَ غَفَرَ وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَ، وَهَذِهِ هِيَ العَقَبَةُ الأُولَى.

فَأَرْسَلَ لَهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُصْعَبَ بْنَ عُمَيْرٍ العَبْدَرِيَّ، وَعَبْدَ اللهِ ابْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ، وَهُوَ ابْنُ خَالَةِ خَدِيجَةَ، يُقْرِآنِهِمُ القُرْآنَ، وَيُفَقِّهَانِهِمْ فِي الدِّينِ، وَنَزَلَ مُصْعَبُ عَلَى أَحَدِ المُبَايِعِـينَ أَبِي أُمَامَةَ أَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ، وَصَارَ يَدْعُـو بَقِيَّةَ الأَوْسِ وَالخَـزْرَجِ لِلْإِسْلَامِ.

وَبَيْنَمَا هُوَ فِي بُسْتَانٍ مَعَ أَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ إِذْ قَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ رَئِيسُ قَبِيلَةِ الأَوْسِ لِأُسَيْدِ بْنِ حُضَـيْرٍ ابْنِ عَمِّ سَعْدٍ: أَلَا تَقُومُ إِلَى هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ أَتَيَا يُسَفِّهَانِ ضُعَفَاءَنَا لِتَزْجُرَهُمَا؟ فَقَامَ لَهُمَا أُسَيْدُ بِحَرْبَتِهِ فَلَمَّا رَآهُ أَسْعَدُ قَالَ لِمُصْعَبٍ:

هَذَا سَيِّدُ قَوْمِهِ، وَقَدْ جَاءَكَ فَاصْدُقِ اللهَ فِيهِ، فَلَمَّا وَقفَ عَلَيْهِمَا قَالَ: مَا جَاءَ بِكُمَا تُسَفِّهَانِ ضُعَفَاءَنَا؟ اعْتَزِلَا إِنْ كَانَ لَكُمَا بِأَنْفُسِكُمَا حَاجَةٌ. فَقَالَ مُصْعَبُ: أَوْ تَجْلِسُ فَتَسْمَعُ؟ فَإِنْ رَضِيتَ أَمْرًا قَبِلْتَهُ، وَإِنْ كَرِهْتَهُ كَفَفْنَا عَنْكَ مَا تَكْرَهُ فَقَرَأَ عَلَيْهِ مُصْعَبُ القُرْآنَ، فَاسْتَحْسَنَ دِينَ الإِسْلَامِ، وَهَدَاهُ اللهُ لَهُ، فَتَشَهَّدَ وَرَجَعَ إِلَى سَعْدٍ، فَسَأَلَهُ عَمَّا فَعَلَ، فَقَالَ: وَاللهِ مَا رَأَيْتُ بِالرَّجُلَيْنِ بَأْسًا، فَغَضِبَ سَعْدٌ وَقَامَ لَهُمَا مُغِيظًا فَفَعَلَ مَعَهُ مُصْعَبٌ كَسَابِقِهِ، فَهَدَاهُ اللهُ لِلْإِسْلَامِ وَرَجَعَ لِرِجَالِ بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ، وَهُمْ بَطْنٌ مِنَ الأَوْسِ، فَقَالَ لَهُمْ: مَا تَعُدُّونَنِي فِيكُمْ؟ قَالُوا: سَيِّدُنَا وَابْنُ سَيِّدِنَا. قَالَ: كَلَامُ رِجَالِكُمْ وَنِسَائِكُمْ عَلَيَّ حَرَامٌ حَتَّى تُسْلِمُوا، فَلَمْ يَبْقَ بَيْتٌ مِنْ بُيُوتِ بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ إِلَّا أَجَابَهُ، وَقَدِ انْتَشَرَ الإِسْلَامُ فِي دُورِ يَثْرِبَ حَتَّى لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ حَدِيثٌ إِلَّا أَمْرُ الإِسْلَامِ.

العَقَبَةُ الثَّانِيَةُ:

وَلَمَّا كَانَ وَقْتُ الحَجِّ فِي العَامِ الَّذِي يَلِي البَيْعَةَ الأُولَى قَدِمَ مَكَّةَ كَثِيرُونَ مِنْهُمْ يُرِيدُونَ الحَجَّ، وَبَيْنَهُمْ كَثِيرٌ مِنْ مُشْرِكِيهِمْ، وَلَمَّا قَابَل وَفْدُهُمْ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَاعَدُوهُ المُقَابَلَةَ لَيْلًا عِنْدَ العَقَبَةِ، فَأَمَرَهُمْ أَنْ لَا يُنَبِّهُوا فِي ذَلِكَ الوَقْتِ نَائِمًا، وَلَا يَنْتَظِرُوا غَائِبًا لِأَنَّ كُلَّ هَذِهِ الأَعْمَالِ كَانَتْ خُفْيَةً مِنْ قُرَيْشٍ كَيْلَا يَطَّلِعُوا عَلَى الأَمْرِ، فَيَسْعُوا فِي نَقْضِ مَا أُبْرِمَ، شَأْنُهُمْ مَعَ رَسُولِ اللهِ فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ. وَلَمَّا فَرَغَ الأَنْصَارُ مِنْ حَجِّهِمْ تَوَجَّهُوا إِلَى مَوْعِدِهِمْ، كَاتِمِينَ أَمْرَهُمْ عَمَّنْ مَعَهُمْ مِنَ المُشْرِكِينَ، وَكَانَ ذَلِكَ بَعْدَ مُضِيِّ ثُلُثِ اللَّيْلِ الأَوَّلِ، فَكَانُوا يَتَسَلَّلُونَ الرَّجُلَ وَالرَّجُلَيْنِ، حَتَّى تَمَّ عَدَدُهُمْ ثَلَاثَةً

وَسَبْعِينَ رَجُلًا، مِنْهُمُ اثْنَانِ وَسِتُّونَ مِنَ الخَزْرَجِ، وَأَحَدَ عَشَرَ مِنَ الأَوْسِ، وَمَعَهُمُ امْرَأَتَانِ، وَهُمَا نُسَيْبَةُ بِنْتُ كَعْبٍ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ، وَأَسْمَاءُ بِنْتُ عَمْرٍو مِنْ بَنِي سَلَمَةَ.

وَوَافَقَهُمْ رَسُولُ اللهِ هُنَاكَ وَلَيْسَ مَعَهُ إِلَّا عَمُّهُ العَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وَهُوَ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ، وَلَكِنْ أَرَادَ أَنْ يَحْضُرَ أَمْرَ ابْنِ أَخِيهِ؛ لِيَكُونَ مُتَوَثِّقًا لَهُ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا عَرَّفَهُمُ العَبَّاسُ بِأَنَّ ابْنَ أَخِيهِ لَمْ يَزَلْ فِي مَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ، حَيْثُ لَمْ يُمَكِّنُوا مِنْهُ أَحَدًا مِمَّنْ أَظْهَرَ لَهُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ، وَتَحَمَّلُوا مِنْ ذَلِكَ أَعْظَمَ الشِّدَّةِ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: إِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ وَافُونَ لَهُ بِمَا دَعَوْتُمُوهُ إِلَيْهِ وَمَانِعُوهُ مِمَّنْ خَالَفَهُ، فَأَنْتُمْ وَمَا تَحَمَّلْتُمْ مِنْ ذَلِكَ وَإِلَّا فَدَعُوهُ بَيْنَ عَشِيرَتِهِ، فَإِنَّهُ لَبِمَكَانٍ عَظِيمٍ، فَقَالَ كَبِيرُهُمُ المُتَكَلِّمُ عَنْهُمُ البَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ: وَاللهِ لَوْ كَانَ لَنَا فِي أَنْفُسِنَا غَيْرُ مَا نَنْطِقُ بِهِ لَقُلْنَاهُ، وَلَكِنَّا نُرِيدُ الوَفَاءَ وَالصِّدْقَ وَبَذْلَ مُهَجِنَا دُونَ رَسُولِ اللهِ، وَعِنْدَ ذَلِكَ قَالُوا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: خُذْ لِنَفْسِكَ وَلِرَبِّكَ مَا أَحْبَبْتَ، فَقَالَ: «**أَشْتَرِطُ لِرَبِّي أَنْ تَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَلِنَفْسِي أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ نِسَاءَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ مَتَى قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ**».

فَقَالَ لَهُ أَبُو الهَيْثَمِ بْنِ التَّيْهَانِ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الرِّجَالِ عُهُودًا وَإِنَّا قَاطِعُوهَا، فَهَلْ عَسَيْتَ إِنْ نَحْنُ فَعَلْنَا ذَلِكَ ثُمَّ أَظْهَرَكَ اللهُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى قَوْمِكَ وَتَدَعَنَا؟ فَتَبَسَّمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَقَالَ: «**بَلِ الدَّمُ الدَّمُ، وَالهَدْمُ الهَدْمُ**»، أَيْ إِنْ طَالَبْتُمْ بِدَمٍ طَالَبْتُ بِهِ، وَإِنْ أَهْدَرْتُمُوهُ أَهْدَرْتُهُ. وَحِينَذَاكَ ابْتَدَأَتِ المُبَايَعَةُ وَهِيَ العَقَبَةُ الثَّانِيَةُ، فَبَايَعَهُ الرِّجَالُ عَلَى مَا طَلَبَ، وَأَوَّلُ مَنْ بَايَعَ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ، وَقِيلَ: البَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ.

ثُمَّ تَخَيَّرَ مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا، لِكُلِّ عَشِيرَةٍ مِنْهُمْ وَاحِدٌ، تِسْعَةً مِنَ الخَزْرَجِ، وَثَلَاثَةٌ مِنَ الأَوْسِ، وَهُمْ: أَبُو الهَيْثَمِ بْنُ التَّيْهَانِ، وَأَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ، وَأُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ، وَالبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ، وَرَافِعُ بْنُ مَالِكٍ، وَسَعْدُ بْنُ خَيْثَمَةَ، وَسَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ، وَسَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرٍو، وَعُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ، وَالْمُنْذِرُ بْنُ عَمْرٍو.

فَقَالَ لَهُمْ: أَنْتُمْ كُفُلَاءُ عَلَى قَوْمِكُمْ كَكَفَالَةِ الحَوَارِيِّينَ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَأَنَا كَفِيلٌ عَلَى قَوْمِي.

وَلِأَمْرٍ مَا أَرَادَهُ اللهُ بَلَغَ خَبَرُ هَذِهِ البَيْعَةِ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ، فَجَاؤُوا وَدَخَلُوا شِعْبَ الأَنْصَارِ، وَقَالُوا: يَا مَعْشَرَ الخَزْرَجِ! بَلَغَنَا أَنَّكُمْ جِئْتُمْ لِصَاحِبِنَا تُخْرِجُونَهُ مِنْ أَرْضِنَا وَتُبَايِعُونَهُ عَلَى حَرْبِنَا؟ فَأَنْكَرُوا ذَلِكَ، وَصَارَ بَعْضُ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَمْ يَحْضُرُوا الْمُبَايَعَةَ يَحْلِفُونَ لَهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يَحْصُلْ مِنْهُمْ شَيْءٌ فِي لَيْلَتِهِمْ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ كَبِيرُ الخَزْرَجِ يَقُولُ: مَا كَانَ قَوْمِي لِيَفْتَاتُوا عَلَيَّ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ.

هِجْرَةُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ:

وَلَمَّا رَجَعَ الأَنْصَارُ إِلَى المَدِينَةِ ظَهَرَ بَيْنَهُمُ الإِسْلَامُ أَكْثَرَ مِنَ المَرَّةِ الأُولَى، أَمَّا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ فَازْدَادَ عَلَيْهِمْ أَذَى الْمُشْرِكِينَ لَمَّا سَمِعُوا أَنَّهُ حَالَفَ قَوْمًا عَلَيْهِمْ، فَأَمَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جَمِيعَ الْمُسْلِمِينَ بِالهِجْرَةِ إِلَى المَدِينَةِ، فَصَارُوا يَتَسَلَّلُونَ خِيفَةَ قُرَيْشٍ أَنْ تَمْنَعَهُمْ، وَأَوَّلُ مَنْ خَرَجَ أَبُو سَلَمَةَ المَخْزُومِيُّ زَوْجُ أُمِّ سَلَمَةَ وَمَعَهُ زَوْجُه، وَكَانَ قَوْمُهَا مَنَعُوهَا مِنْهُ، وَلَكِنَّهُمْ أَطْلَقُوهَا بَعْدُ فَلَحِقَتْ بِهِ.

وَتَتَابَعَ الْمُهَاجِرُونَ فِرَارًا بِدِينِهِمْ؛ لِيَتَمَكَّنُوا مِنْ عِبَادَةِ اللهِ الَّذِي امْتَزَجَ حُبُّهُ بِلَحْمِهِمْ وَدَمِهِمْ حَتَّى صَارُوا لَا يَعْبَؤُونَ بِمُفَارَقَةِ أَوْطَانِهِمْ وَالِابْتِعَادِ عَنْ آبَائِهِمْ، مَا دَامَ فِي ذَلِكَ رِضَا اللهِ وَرَسُولِهِ.

وَلَمْ يَبْقَ بِمَكَّةَ مِنْهُمْ إِلَّا أَبُو بَكْرٍ وَعَلِيٌّ وَصُهَيْبٌ وَزَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ، وَقَلِيلُونَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ الَّذِينَ لَمْ تُمَكِّنْهُمْ حَالُهُمْ مِنَ الهِجْرَةِ، وَقَدْ أَرَادَ أَبُو بَكْرٍ الهِجْرَةَ فَقَالَ لَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**عَلَى رِسْلِكَ فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُؤْذَنَ لِي**»[١]، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَهَلْ تَرْجُو ذَلِكَ بِأَبِي أَنْتَ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**». فَحَبَسَ أَبُو بَكْرٍ نَفْسَهُ عَلَى رَسُولِ اللهِ لِيَصْحَبَهُ وَعَلَّفَ رَاحِلَتَيْنِ كَانَتَا عِنْدَهُ وَرَقَ التَّمْرِ اسْتِعْدَادًا لِذَلِكَ[٢].

دَارُ النَّدْوَةِ:

أَمَّا قُرَيْشٌ فَكَانُوا كَأَنَّهُمْ أُصِيبُوا بِمَسِّ الشَّيْطَانِ حِينَمَا طَرَقَ مَسَامِعَهُمْ مُبَايَعَةُ الأَنْصَارِ لَهُ عَلَى الذَّوْدِ عَنْهُ حَتَّى المَوْتِ، فَاجْتَمَعَ رُؤَسَاؤُهُمْ وَقَادَتُهُمْ فِي دَارِ النَّدْوَةِ، وَهِيَ دَارُ قُصَيِّ بْنِ كِلَابٍ الَّتِي كَانَتْ قُرَيْشٌ لَا تَقْضِي أَمْرًا إِلَّا فِيهَا، يَتَشَاوَرُونَ مَا يَصْنَعُونَ فِي أَمْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ حِينَ خَافُوهُ.

---

[١] في هذا دليلٌ علَى أنَّ النَّبي ﷺ يُقدِّر صحبةَ أَبِي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ويُفضِّله على غيرِه، وفِيها أيْضًا دليلٌ على كَمال عُبودِيَّة النَّبـي -صلَّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِه وسلَّم- للهِ حيثُ إنه لم يهاجِرْ حتَّى يُؤْذَن له مَع أنَّه أَذِنَ لأصحابِه أن يُهاجِروا، فَفِيه كمال العُبودِيَّة مِن رَسُول اللهِ -صلَّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِه وسلَّم- لربِّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

[٢] فِيه الاستِعْدادُ للأُمـور والنَّظرُ للمُسْتقبل، وأَلَّا يُهمِل الإنْسانُ الاستعدادَ حتَّى إذا حانَ الأَمْر وجَد نفسَه مفلِسًا، وذَلك بكَوْن أَبِي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أعدَّ راحِلَتَيْن.

فَقَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ: نُخرِجُهُ مِنْ أَرْضِنَا؛ كَيْ نَسْتَرِيحَ مِنْهُ، فرُفِض هَذَا الرَّأْيُ؛ لِأَنَّهُمْ قَالُوا: إِذَا خَرَجَ اجْتَمَعَتْ حَوْلَهُ الجُمُوعُ لِمَا يَرَوْنَهُ مِنْ حَلَاوَةِ مَنْطِقِهِ وَعُذُوبَةِ لَفْظِهِ.

وَقَالَ آخَرُ: نُوَثِّقُهُ وَنَحْبِسُهُ حَتَّى يُدْرِكَه مَا أَدْرَكَ الشُّعَرَاءَ قَبْلَهُ مِنَ المَوْتِ، فَرُفِضَ هَذَا الرَّأْيُ كَسَابِقِهِ؛ لِأَنَّهُمْ قَالُوا: إِنَّ الخَبَرَ لا يَلْبَثُ أَنْ يَبْلُغَ أَنْصارَهُ، وَنَحْنُ أَدْرَى النَّاسِ بِمَنْ دَخَلَ فِي دِينِهِ، حَيْثُ يُفضِّلُونَهُ عَلَى الآبَاءِ وَالأَبْنَاءِ، فَإِذَا سَمِعُوا ذَلِكَ جَاؤُوا لِتَخْلِيصِهِ، وَرُبَّما جَرَّ هَذَا مِنَ الحَرْبِ عَلَيْنَا مَا نَحْنُ فِي غِنًى عَنْهُ.

وَقَالَ لَهُمْ طَاغِيَتُهُمْ: بَلْ نَقْتُلُهُ، وَلِنَمْنَعَ بَنِي أَبِيهِ مِنَ الأَخْذِ بِثَأْرِهِ نَأْخُذُ مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ شَابًّا جَلْدًا، يَجْتَمِعُونَ أَمَامَ دَارِهِ، فَإِذَا خَرَجَ ضَرَبُوهُ ضَرْبَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ فَيَفْتَرِقَ دَمُهُ فِي القَبَائِلِ، فَلَا يَقْدِرُ بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ عَلَى حَرْبِ قُرَيْشٍ كُلِّهِم، بَلْ يَرْضَوْنَ بِالدِّيَةِ، فَأَقَرُّوا هَذَا الرَّأْيَ.

هَذَا مَكْرُهُمْ، وَلَكِنْ إِرَادَةُ اللهِ فَوْقَ كُلِّ إِرَادَةٍ، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠][1]،......................................

[١] فِي سُورة التَّوبة ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال:٣٠]، قَال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾، والمَكر فِي مَوْضِعه قوَّةٌ وصِفَة كَمالٍ، وهُو أَخْذُ العدوِّ على غِرَّةٍ من حيثُ لا يشْعُر؛ ولِهَذا جَاء فِي الحَدِيث: «الحَرْبُ خُدْعَةٌ»(١)، لكِن لا يَجُوزُ وصَف اللهِ تَعالى بالمَكر عَلى الإِطْلاق؛ لأَنَّه

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب الحرب خدعة، رقم (٣٠٣٠)، ومسلم: كتاب الجهاد، باب جواز الخداع في الحرب، رقم (١٧٣٩).

فَأَعْلَمَ نَبِيَّهُ بِمَا دَبَّرَهُ الأَعْدَاءُ فِي سِرِّهِمْ، وَأَمَرَهُ بِاللِّحَاقِ بِدَارِ هِجْرَتِهِ بِدَارٍ فِيهَا يُنْشَرُ الإِسْلَامُ، وَيَكُونُ فِيهَا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ العِزَّةُ وَالمَنَعَةُ، وَهَذَا مِنَ الحِكْمَةِ بِمَكَانٍ عَظِيمٍ، فَإِنَّهُ لَوِ انْتَشَرَ الإِسْلَامُ بِمَكَّةَ لَقَالَ المُبْغِضُونَ إِنَّ قُرَيْشًا أَرَادُوا مُلْكَ العَرَبِ فَعَمَدُوا إِلَى شَخْصٍ مِنْهُمْ وَأَوْعَزُوا إِلَيْهِ أَنْ يَدَّعِيَ هَذِهِ الدَّعْوَى، حَتَّى تَكُونَ وَسِيلَةً لِنَيْلِ مَآرِبِهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا لَهُ أَعْدَاءَ أَلِدَّاءَ آذَوْهُ شَدِيدَ الأَذَى، حَتَّى اخْتَارَ اللهُ لَهُ مُفَارَقَةَ بِلَادِهِمْ وَالبُعْدَ عَنْهُمْ.

هِجْرَةُ المُصْطَفَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

فَتَوَجَّهَ مِنْ سَاعَتِهِ إِلَى صَدِيقِهِ أَبِي بَكْرٍ، وَأَعْلَمَهُ أَنَّ اللهَ قَدْ أَذِنَ لَهُ فِي الهِجْرَةِ، فَسَأَلَهُ أَبُو بَكْرٍ: الصُّحْبَةَ، فَقَالَ: نَعَمْ، ثُمَّ عَرَضَ عَلَيْهِ إِحْدَى رَاحِلَتَيْهِ اللَّتَيْنِ كَانَتَا مُعَدَّتَيْنِ لِذَلِكَ، فَجَهَّزَهُمَا أَحَثَّ الجِهَازِ، وَصُنِعَتْ لَهُمَا سُفْرَةٌ فِي جِرَابٍ، فَقَطَعَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ نِطَاقَهَا وَرَبَطَتْ بِهِ عَلَى فَمِ الجِرَابِ وَاسْتَأْجَرَا عَبْدَ اللهِ بْنَ أُرَيْقِطَ مِنْ بَنِي الدَّيْلِ بْنِ بَكْرٍ، وَكَانَ هَادِيًا مَاهِرًا، وَهُوَ عَلَى دِينِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ فَأَمَّنَاهُ وَدَفَعَا إِلَيْهِ رَاحِلَتَيْهِمَا، وَوَاعَدَاهُ المُقَابَلَةَ لَيْلًا خَارِجَ مَكَّةَ، وَكَانَتْ هَذِهِ اللَّيْلَةُ هِيَ لَيْلَةُ اسْتِعْدَادِ قُرَيْشٍ لِتَنْفِيذِ مَا أَقَرُّوا عَلَيْهِ، فَاجْتَمَعُوا حَوْلَ بَابِ الدَّارِ وَرَسُولُ اللهِ دَاخِلَهُ، فَلَمَّا جَاءَ مِيعَادُ الخُرُوجِ أَمَرَ ابْنَ عَمِّهِ عَلِيًّا بِالمَبِيتِ مَكَانَهُ؛ كَيْلَا يَقَعَ الشَّكُّ فِي وُجُودِهِ أَثْنَاءَ اللَّيْلِ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يُرَدِّدُونَ النَّظَرَ مِنْ شُقُوقِ البَابِ؛ لِيَعْلَمُوا وُجُودَهُ،

= يُوهِم بمَعْنى فَاسدٍ، بَل يُقيَّد فيُقَال: إِنَّ اللهَ تَعالَى يمْكُر بمَنْ يمْكُر بشَريعَتِه أَو أَنْبيائِه، واللهُ خَيْر الماكِرينَ.

ثُمَّ سَجَّى عَلِيًّا بِبُرْدَتِهِ وَخَرَجَ عَلَى القَوْمِ، وَهُوَ يَقْرَأُ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس:٩]، فَأَلْقَى اللهُ النَّوْمَ عَلَيْهِمْ؛ حَتَّى لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ، وَلَمْ يَزَلْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سَائِرًا حَتَّى تَقَابَلَ مَعَ الصِّدِّيقِ، وَسَارَا حَتَّى بَلَغَا غَارَ ثَوْرٍ فَاخْتَفَيَا فِيهِ[١].

أَمَّا الْمُشْرِكُونَ فَلَمَّا عَلِمُوا بِفَسَادِ مَكْرِهِمْ وَأَنَّهُمْ إِنَّمَا بَاتُوا يَحْرُسُونَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ لَا مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ هَاجَتْ عَوَاطِفُهُمْ،.........

---

[١] في هَذه القِطْعَةُ دَليلٌ علَى جَواز اسْتِئجار الكَافِر إذا عُلِمَتْ أمانتُه، وهَذا الاستِئْجار عَلى عَملٍ عَظيمٍ خَطيرٍ؛ لأَنَّه علَى الدَّلالَة علَى طَريقِ المدِينةِ، ومَع ذَلك اسْتأجَرَه النبيُّ -صلَّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِه وسلَّم- وأَبُو بَكْر، وأمِناه في ذَلك، وقَدْ أخذَ العُلَماء فِي هَذا أَنَّه يجُوزُ الأَخْذُ بقَوْل الطَّبيب غَيْر المسلِم إذا عُلِم حِرْصُه وأَمَانتُه، وهَذا القَوْل هُو الرَّاجِح، أنَّه يُعامَل الكَافِر مَا دَامَتْ أمانَتُه معلُومَةً وحِذْقُه معلومًا، وكَثِيرٌ مِن الكُفَّار يحافِظُ علَى حُسن المعَاملَةِ لا تقرُّبًا إِلى الله عَزَّوَجَلَّ وَلا لأَجْناس العِباد، ولَكِن لينْتَفع هُو نفسُه؛ لأنَّ ذَلك مِن أكْبَر الدِّعايَة لنَفْسه.

ومِن فَوائِد هَذه القطْعَة أنَّ اللهَ تَعالى يسَّر للنَّبي ﷺ وأَبِي بكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هَذا الغارَ المناسِب تمامًا وبقِيا فِيه ثلاثَ لَيالٍ.

وأَيْضًا فِي هَذه القِطْعة منْقَبة عظِيمَةٌ لعليِّ بْن أَبِي طَالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حيْثُ فَادَى بنَفْسه عَن رَسُول اللهِ -صلَّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِه وسلَّم- ونَام فِي فِراشِه، مَع أَنَّ الأَمْر خَطِير جدًّا، لَو أنَّ هؤُلاءِ اقْتَحموا البَيْت بعْدَ أنْ ملُّوا وتَعِبوا مِن الانْتِظار لكَان خطرًا علَيْه أنْ يُقْتل.

فَأَرْسَلُوا الطَّلَبَ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ وَجَعَلُوا الجَوَائِزَ لِمَنْ يَأْتِي بِمُحَمَّدٍ، أَوْ يَدُلُّ عَلَيْهِ، وَقَدْ وَصَلُوا فِي طَلَبِهِمْ إِلَى ذَلِكَ الغَارِ الَّذِي فِيهِ طِلْبَتُهُمْ، بِحَيْثُ لَوْ نَظَرَ أَحَدُهُمْ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَنَظَرَهُمَا، حَتَّى أَبْكَى ذَلِكَ أَبَا بَكْرٍ فَقَالَ لَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا**»(١)، فَأَعْمَى اللهُ أَبْصَارَ الْمُشْرِكِينَ حَتَّى لَمْ يَحِنْ لِأَحَدٍ مِنْهُمُ التِفَاتَةٌ إِلَى ذَلِكَ الغَارِ، بَلْ صَارَ أَعْدَى الأَعْدَاءِ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ يُبَعِّدُ لَهُمُ اخْتِفَاءَ المَطْلُوبِينَ فِي مِثْلِ هَذَا الغَارِ، فَأَقَامَا فِيهِ ثَلَاثَ لَيَالٍ، حَتَّى يَنْقَطِعَ الطَّلَبُ، وَكَانَ يَبِيتُ عِنْدَهُمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ[١].

---

[١] فِي هَذه القِطْعة كَان أَبُو بكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقُول للرَّسُول: يَا رَسُول اللهِ! لَو نَظر أحَدُهم إِلى قَدمِه لأبْصَرَنا، مِمَّا يدُلُّ علَى أنَّ قريشًا كانُوا واقِفِينَ عَلى بَاب الغَار، ولَكنَّ اللهَ تعَالى أعْمَى أبْصارَهم إمَّا بِكَوْنهم ينْظُرونَ إِلى بعيدٍ، أَوْ بكَوْنهم إذا نَظرُوا إِلَيْها لا يبْصُرونَ كَما فِي الآيَة السَّابقَة، ومَا ذُكِر مِن أنَّ العنْكَبوت عشَّشت علَيْهم، أَوْ أنَّ الحمامَةَ وقَعَتْ علَى الغارِ، أوْ علَى غُصن شجرةٍ علَى الغَارِ، فهَذا كلُّه كذِبٌ؛ لأنَّ الاخْتِفاء بمِثْل ذَلك لا يُعَدُّ مِن الآيَات، فأيُّ إنسانٍ تُعشِّش علَيه عنكبوتٌ يحْصُل لَه اخْتِفاء، لكنَّ هذَا مما يُنْقَلُ في التَّاريخ ولَيْس بصَوابٍ.

قالَ لَه النَّبي صلَّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِه وسلَّم: «**مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا، لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا**»(٢)، وهَذا يُشبِهُ مِن بعْض وُجوهٍ قولَ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حِين وصَل بقَوْمِه إِلى البَحْر، وكَان فرْعَوْن وقوْمُه خلْفَهم، قالُوا لموسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب في حديث الهجرة ويقال له حديث الرحل، رقم (٢٠٠٩).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب مناقب المهاجرين وفضلهم، رقم (٣٦٥٣)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٢٣٨١).

= ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾، البَحْر أمَامَنا ولَيْس معنا سُفُنٌ ولا نسْتَطِيع عُبورَه والعَدُو خلْفَنا، فقَال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قولَ الموقِن، ﴿قَالَ كَلَّآ﴾، يَعْني لسَنْا بمُدْركِين، ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾، وَاثِقًا باللهِ عَزَّوَجَلَّ فأمَرَه اللهُ أنْ يَضْرب بعَصَاهُ البَحرَ، هذَا البَحْر الخضَمُّ العَمِيق يُضرَب بعَصا ثُم ينْقَسِم ويتفرَّق اثْنَيْ عشَر طريقًا ﴿كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء:٦١-٦٣]، يَعْني كالجَبَل العَظِيم، ممُتَدّ مِن السَّاحل الإِفْريقيِّ إِلى السَّاحل الآسيويِّ، ثُمَّ معَ ذلِك لم يلْبَث أنْ صارَت هَذه الطُّرُق يابسةً في الحالِ، مَع أنَّ لها سِنينَ اللهُ أعلَمُ بِها مغرَقةٌ بِالماءِ، هذَا مِن آيَات اللهِ.

قالَ أهْلُ العِلْم: مَا مِن آيةٍ صارَتْ لنَبيٍّ إلَّا كانَ لِرسُول اللهِ -صلَّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِه وسلَّم- أوْ لأَتْباعِه مثلُها، وأَتَوا علَى هذَا بشواهِدَ، قالُوا مثْل البَحْر فلَقَه لموسى حصَلَ لأَتْباع الرَّسولِ ما هُو أشَدُّ، وذَلك حِين مشَوْا علَى ظَهْر الماءِ بِخَيْلِهم وإبِلهم ورَجْلهم، وهذَا أعْظَم وقَعت هَذه القصَّةُ للعَلاء بْن الحَضرميِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[1]، ووقَعَت أيْضًا لسعْدِ بْن أبي وقَّاصٍ.

تفجَّر الماءُ مِن الحَجَر إذ ضَربَه مُوسَى بعَصَاه، وقَد حَصل هذَا للرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فتفَجَّر الماءُ مِن الإِنَاء[2]، وضَع يدَهُ فِي الماءِ في رَكْوةٍ فجَعل الماءُ يفُور كالعُيون معَ أنَّ بيْنَه وبيْن الأَرْض حَصًا، والحَجر يُضرب بعصَاه متَّصِلٌ بالأَرْض ومِن جِنْس الأَرْض.

---

(١) أخرجه الطبراني في معجمه الصغير (١/ ٢٤٦، رقم ٤٠٠).
(٢) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٥٧٩).

وَكَانَ يَبِيتُ عِنْدَهُمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، وَهُوَ شَابٌّ ثَقِفٌ وَلَقِنٌ، فَيُدْلِجُ مِنْ عِنْدِهِمَا بِسَحَرٍ فَيُصْبِحُ مَعَ قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ كَبَائِتٍ بِهَا فَلَا يَسْمَعُ أَمْـرًا يُكْتَادَانِ بِهِ إِلَّا وَعَاهُ حَتَّى يَأْتِيهِمَا بِخَبَرِ ذَلِكَ حِينَ يَخْتَلِطُ الظَّلَامُ[١].

وَكَانَ عَامِرُ بْنُ فُهَـيْرَةَ يَرُوحُ عَلَيْهِمَا بِقِطْعَةٍ مِنْ غَنَمٍ يَرْعَاهَا حِينَ تَذْهَـبُ سَاعَةٌ مِنَ العِشَاءِ، وَيَغْدُو بِهَا عَلَيْهِمَا، فَإِذَا خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِمَا عَبْدُ اللهِ تَبِعَ أَثَرَهُ عَامِرٌ بِالغَنَمِ كَيْلَا يَظْهَرَ لِقَدَمَيْهِ أَثَرٌ، وَلَمَّا انْقَطَعَ الطَّلَبُ خَرَجَا بَعْدَ أَنْ جَاءَهُمَا الدَّلِيلُ بِالرَّاحِلَتَيْنِ صُبْحَ ثَلَاثٍ، وَسَارَا مُتَّبِعَيْنِ طَرِيقَ السَّاحِلِ، وَفِي الطَّرِيقِ لَحِقَهُمْ طَالِبًا سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكٍ المُدْلِجِيُّ، وَكَانَ قَدْ رَأَى رُسُلَ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ يَجْعَلُونَ فِي رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ دِيَةَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لِمَنْ قَتَلَهُ أَوْ أَسَرَهُ فَبَيْنَمَا هُوَ فِي مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ قَوْمِهِ بَنِي مُدْلِجٍ إِذْ أَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْهُمْ حَتَّى قَامَ عَلَيْهِمْ وَهُمْ جُلُوسٌ فَقَالَ: يَا سُرَاقَةُ إِنِّي رَأَيْتُ آنِفًا أَسْوِدَةً بِالسَّاحِلِ، أَرَاهَا مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ، فَعَرَفَ سُرَاقَةُ أَنَّهُمْ هُمْ، وَلَكِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُثْنِيَ عَزْمَ مُخْبِرِهِ عَنْ طَلَبِهِمْ، فَقَالَ: إِنَّكَ رَأَيْتَ فُلَانًا وَفُلَانًا انْطَلَقُوا بِأَعْيُنِنَا يَبْتَغُونَ ضَالَّةً لَهُمْ، ثُمَّ لَبِثَ فِي المَجْلِسِ سَاعَةً،..........

= وذَكَروا في إحْياءِ المَوْتى أنَّه حصَل للتَّابعين، وأنَّ اللهَ أحيَا لهُم الموتَى، حتَّى أنَّهم ذكَرُوا أنَّ بعضَهم في الجهادِ إذا مَات فرسُه أحْيَاه اللهُ لَه حتَّى يصِل إلَى بلَدِه.

[١] هذا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ باحِثٌ بخير، يسمع ما تقول قُريشٌ بشأْنِ النَّبي صلَّى اللهُ عَليهِ وعَلَى آلِهِ وسَلَّم ثم يأتي به إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وأبيـه؛ لأنه شابٌّ ثَقِف لَقِن يحفَظ ويُؤدِّي.

وَقَامَ وَرَكِبَ فَرَسَهُ ثُمَّ سَارَ حَتَّى دَنَا مِنَ الرَّسُولِ وَمَنْ مَعَهُ، فَعَثَرَتْ بِهِ فَرَسُهُ فَخَرَّ عَنْهَا، ثُمَّ رَكِبَهَا ثَانِيًا وَسَارَ حَتَّى صَارَ يَسْمَعُ قِرَاءَةَ الْمُصْطَفَى وَهُوَ لَا يَلْتَفِتُ[١]، وَأَبُو بَكْرٍ يُكْثِرُ الالتِفَاتَ فَسَاخَتْ قَائِمَتَا فَرَسِ سُرَاقَةَ فِي الأَرْضِ حَتَّى بَلَغَتَا الرُّكْبَتَيْنِ فَخَرَّ عَنْهَا، ثُمَّ زَجَرَهَا حَتَّى نَهَضَتْ فَلَمْ تَكَدْ تُخْرِجُ يَدَيْهَا حَتَّى سَطَعَ لِأَثَرِهِمَا غُبَارٌ سَاطِعٌ فِي السَّمَاءِ، مِثْلَ الدُّخَانِ، فَعَلِمَ سُرَاقَةُ أَنَّ عَمَلَهُ ضَائِعٌ سُدًى،

---

[١] حِمايَة اللهِ عَزَّوَجَلَّ لعَبْده لَا يُمكِن أنْ يتجاوَزَها أحدٌ، وهَذا معْنَى قوْلِ النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِه وسلَّم-: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ**»(١)، فهَذا الرَّجلُ الفَارِس القوِيُّ لحِقَهم حتَّى كانَ يسْمَع قِراءةَ النبيِّ -صلَّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِه وسلَّم-، ولكِنْ ساخَت قَدما فرَسِه فِي الأَرْض إلى الرُّكْبة، مَع أنَّ الأرْض صلبَةٌ، ولَيْس هُناك مطَرٌ، وليْستِ الأرضُ رخوَةً، لكِن ساخَت بأَمْرِ مَن يقولُ للشَّيءِ كُنْ فيكون سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وعَرف سُراقَة أنَّه لا طاقَة لَه بذَلِك.

وَفي هَذه القصَّة دَليلٌ علَى أنَّ المسافِر ينْبَغي لَه أنْ يستَغِلَّ السَّفر فِي قِراءَة القُرآنِ أَو سَماع الأشْرِطة المفِيدَة أو التَّسبيحِ والتَّكبير والتَّهليل، لأنَّ الاشتِغال بِهذَا ممَّا يُخفِّف وطْأَةَ السَّفر علَى الإِنْسان لا سِيَّما فِي الزَّمن الأوَّل، لَمَّا كان المسيرُ علَى الرَّواحل الإبل، وحتَّى فِي أيَّامنا هَذه الإنسانُ إذَا مَشى بالسَّيَّارةِ يمَلُّ، فإمَّا أنْ ينَام وإمَّا أنْ يقْرأ، وإمَّا أنْ يذْكُر اللهَ، وإمَّا أنْ يكُون مستَمعًا إلى ما ينفَعُه.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٩٣، رقم ٢٦٦٩)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، باب [حديث حنظلة]، رقم (٢٥١٦).

وَدَاخَلَهُ رُعْبٌ عَظِيمٌ فَنَادَاهُمَا بِالأَمَانِ، فَوَقَفَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَمَنْ مَعَهُ حَتَّى جَاءَهُمْ[١].

وَيَقُولُ سُرَاقَةُ: وَقَعَ فِي نَفْسِي حِينَ لَقِيتُ مَا لَقِيتُ أَنْ سَيَظْهَرُ أَمْرُ رَسُولِ اللهِ فَقُلْتُ: إِنَّ قَوْمَكَ قَدْ جَعَلُوا فِيكَ الدِّيَةَ، وَأَخْبَرَهُمَا بِمَا يُرِيدُ بِهِمَا النَّاسُ، وَعَرَضَ عَلَيْهِمُ الزَّادَ وَالمَتَاعَ، فَلَمْ يَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا، بَلْ قَالَا لَهُ: أَخْفِ عَنَّا، فَسَأَلَهُ سُرَاقَةُ أَنْ يَكْتُبَ لَهُ كِتَابَ أَمْنٍ، فَأَمَرَ أَبَا بَكْرٍ فَكَتَبَ[٢]، ....

---

[١] هَذه القِطْعة فِيها آيَةٌ مِن آيَات اللهِ عَزَّوَجَلَّ أنْ حَمى نبيَّه ﷺ مِن هَذا الرَّجُل الَّذي لِحَقَ بِه، وما أعْظَم آيَاتِ اللهِ فِي أوْلِياءِ اللهِ! فهَذا مُوسى وقومُه وقَفُوا علَى البَحْر الأَحْمر ووراءَهُم فِرْعون وقَوْمُه، ولَمَّا قالُوا لَه: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝٦٢ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ﴾ [الشعراء:٦١-٦٣]، وقال فِي موضع آخر: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ [طه:٧٧]، والماءُ بَين هَذه الطُّرُق كالجِبَال، ﴿كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء:٦٣]، فسبحانَ اللهِ، حتَّى قَال بعضُهم: إنَّه لما خافَ بنُو إِسرائِيل أنْ يَهْلك بعضُهم، جعَل اللهُ تعَالى فِي هَذه الأطْوَاد فُرُجًا بحَيْث ينْظُر بعضُهم إلى بعْضٍ، وهَذا إِنْ صحَّ فلَيْس على اللهِ بعَزيزٍ.

ولما كانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فِي الغَارِ لَو أَنَّ أعداءَه نظَرُوا إِلى أقْدامِهم لأَبْصَرُوه، ولكِنَّه كانَ يقُول لصاحِبه: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠]، وقصَّة سُراقَة أيضًا عجِيبةٌ، فسُبحان اللهِ العظيمِ، اللَّهمَّ احْمِنا واحْمِ دِينَك بِنا يا ربَّ العالَمِينَ.

[٢] رجُل لحقهما ليُدْرِكَهما فيقتلَهما أو يأسِرَهما إلى قريشٍ، وفي النِّهاية يعرِضُ

وَبِذَلِك انْقَضَتْ هَذِهِ المُشْكِلَةُ الَّتِي أَظْهَرَ اللهُ فِيهَا مَزِيدَ عِنَايَتِهِ بِرَسُولِهِ.

وَكَانَ أَهْلُ المَدِينَةِ حِينَما سَمِعُوا بِخُرُوجِ رَسُولِ اللهِ وَقُدُومِهِ عَلَيْهِمْ يَخْرُجُونَ إِلَى الحَرَّةِ، حَتَّى يَرُدَّهُمْ حَرُّ الظَّهِيرَةِ، فَانْقَلَبُوا يَوْمًا بَعْدَ أَنْ أَطَالُوا انْتِظَارَهُمْ، فَلَمَّا أَوَوْا إِلَى بُيُوتِهِمْ أَوْفَى رَجُلٌ مِنْ يَهُودَ عَلَى أُطُمٍ مِنْ آطَامِهِمْ، لِأَمْرٍ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَبَصَرَ بِرَسُولِ اللهِ وَأَصْحَابِهِ يَزُولُ بِهِمُ السَّرَابُ يُظْهِرُهُمْ تَارَةً وَيُخْفِيهِمْ أُخْرَى، فَقَالَ اليَهُودِيُّ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا مَعْشَرَ العَرَبِ هَذَا جَدُّكُمْ -أَيْ حَظُّكُمُ- الَّذِي تَنْتَظِرُونَ، فَثَارُوا إِلَى السِّلَاحِ فَتَلَقَّوْا رَسُولَ اللهِ بِظَهْرِ الحَرَّةِ.

النُّزُولُ بِقُبَاءٍ:

فَعَدَلَ بِهِمْ ذَاتَ اليَمِينِ؛ حَتَّى نَزَلَ بِهِمْ فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ بِقُبَاءَ، وَالَّذِي حَقَّقَهُ المَرْحُومُ مَحْمُودُ بَاشَا الفَلَكِيُّ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي اليَوْمِ الثَّانِي مِنْ رَبِيعٍ الأَوَّلِ، الَّذِي يُوافِقُ العِشْرِينَ مِنْ سِبْتَمْبِرَ سَنَةَ اثْنَيْنِ وَعِشْرِينَ وَسِتِّ مِئَةٍ، وَهَذَا أَوَّلُ تَارِيخٍ جَدِيدٍ لِظُهُورِ الإِسْلَامِ، بَعْدَ أَنْ مَضَى عَلَيْهِ ثَلَاثَ عَشَرَةَ سَنَةً وَهُوَ مُضَيَّقٌ عَلَيْهِ مِنْ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ مَمْنُوعٌ مِنَ الجَهْرِ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ، أَمَّا الآنَ فَقَدْ آوَاهُ اللهُ هُوَ وَصَحَابَتَهُ -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ- بَعْدَ أَنْ كَانُوا قَلِيلًا يَتَخَطَّفُهُمُ النَّاسُ.

= عليهما الزَّاد والمزادَ، تلْك آيَة من آيات الله، إذا تأمَّل الإنسانُ آيات الله عَزَّوَجَلَّ ازدادَ إيمانًا وازدادَ يقينًا وازداد خشيةً لله عَزَّوَجَلَّ وتوكُّلًا عليه واعتمادًا عليْه عَزَّوَجَلَّ، فهَذا سُراقة الَّذي جرى في أَثر النَّبي ﷺ ليُقتَله يُعينُهما ويقُوتُهما، ثُمَّ لما انصرَف صَار يقُولُ للنَّاس: إنِّي قد كَفَيْتُكم هذَا الوَجْه، فلَيْس فِيه مطلُوبٌ، يُدافِعُ عنْهُم.

هِجْرَةُ الأَنْبِيَاءِ:

وَبِهَذِهِ الهِجْرَةِ تَمَّتْ لِرَسُولِنَا ﷺ سُنَّةُ إِخْوَانِهِ مِنَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِهِ، فَمَا مِنْ نَبِيٍّ مِنْهُمْ إِلَّا نَبَتْ بِهِ بِلَادُ نَشْأَتِهِ فَهَاجَرَ عَنْهَا مِنْ إِبْرَاهِيمَ أَبِي الأَنْبِيَاءِ وَخَلِيلِ اللهِ إِلَى عِيسَى كَلِمَةِ اللهِ وَرُوحِهِ، كُلُّهُمْ عَلَى عَظِيمِ دَرَجَاتِهِمْ وَرِفْعَةِ مَقَامِهِمْ أُهِينُوا مِنْ عَشَائِرِهِمْ، فَصَبَرُوا لِيَكُونُوا مِثَالًا لِمَنْ يَأْتِي بَعْدَهُمْ مِنْ مُتَّبِعِيهِمْ فِي الثَّبَاتِ وَالصَّبْرِ عَلَى المَكَارِهِ، مَا دَامَ ذَلِكَ فِي طَاعَةِ اللهِ.

فَسَلْ مِصْرَ وَتَارِيخَهَا تُنْبِئْكَ عَنْ إِسْرَائِيلَ يَعْقُوبَ وَبَنِيهِ أَنَّهُمْ هَاجَرُوا إِلَيْهَا حِينَمَا رَأَوْا مِنْ بَنِيهَا تَرْحِيبًا بِهِمْ، وَتَرْكِهِمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِكْرَامًا لِيُوسُفَ وَحِكْمَتِهِ، وَلَمَّا مَضَتْ سُنُونَ نَسِيَ فِيهَا المِصْرِيُّونَ تَدْبِيرَ يُوسُفَ وَفَضْلَهُ عَلَيْهِمْ فَاضْطَهَدُوا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَآذَوْهُمْ خَرَجَ بِهِمْ مُوسَى وَهَارُونُ؛ لِيَتَمَكَّنُوا مِنْ إِعْطَاءِ اللهِ حَقَّهُ فِي عِبَادَتِهِ.

وَهَرَبَ المَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ اليَهُودِ حِينَمَا كَذَّبُوهُ، فَأَرَادُوا الفَتْكَ بِهِ؛ حَتَّى كَانَ مِنْ ضِمْنِ تَعَالِيمِهِ لِتَلَامِيذِهِ: «طُوبَى لِلْمَطْرُودِينَ مِنْ أَجْلِ البِرِّ؛ لِأَنَّ لَهُمْ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ»، ثُمَّ قَالَ بَعْدُ: «افْرَحُوا وَتَهَلَّلُوا؛ لِأَنَّ أَجْرَكُمْ عَظِيمٌ فِي السَّمَوَاتِ، فَإِنَّهُمْ طَرَدُوا الأَنْبِيَاءَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ».

وَسَلِ القُرَى الَّتِي حَلَّتْ بِهَا نِقْمَةُ اللهِ بِكُفْرِ أَهْلِهَا، كَدِيَارِ لُوطٍ وَعَادٍ وَثُمُود، تُنْبِئْكَ عَنْ مُهَاجَرَةِ الأَنْبِيَاءِ، مِنْهَا قَبْلَ حُلُولِ النِّقْمَةِ، فَلَا غَرَابَةَ أَنْ هَاجَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ بِلَادٍ مَنَعَهُ أَهْلُهَا مِنْ تَتْمِيمِ مَا أَرَادَهُ اللهُ، ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب:٦٢].

أَعْمَالُ مَكَّةَ:

هَذَا، وَلِنُبَيِّنَ لَكَ مُجْمَلَ مَا دَعَا إِلَيْهِ الرَّسُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَكَّةَ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ، وَذَلِكَ أَمْرَانِ:

الأَوَّلُ: الِاعْتِقَادُ بِوَحْدَانِيَّةِ اللهِ، وَأَنْ لَا يُشْرَكَ مَعَهُ فِي العِبَادَةِ غَيْرُهُ، سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ الغَيْرُ صَنَمًا، كَمَا يَفْعَلُ مُشْرِكُو مَكَّةَ، أَوْ أَبًا أَوْ زَوْجَةً أَوْ بِنْتًا، كَمَا عَلَيْهِ بَعْضُ الطَّوَائِفِ الأُخْرَى كَالنَّصَارَى، وَلَوْلَا الِاعْتِقَادُ بِوَحْدَانِيَّةِ اللهِ مَا كَلَّفَ أَحَدٌ نَفْسَهُ تَكَالِيفَ الحَيَاةِ مِنْ آدَابِ الأَخْلَاقِ، بَلْ كَانَ يَسِيرُ فِيمَا تَأْمُرُهُ بِهِ نَفْسُهُ مِنْ شَهَوَاتِهَا وَمَلَذَّاتِهَا، مَا دَامَ ذَلِكَ خَافِيًا عَنِ النَّاسِ.

الثَّانِي: الِاعْتِقَادُ بِالبَعْثِ وَالنُّشُورِ، وَأَنَّ هُنَاكَ يَوْمًا ثَانِيًا لِلْإِنْسَانِ يُجَازَى فِيهِ عَلَى مَا صَنَعَهُ فِي الدُّنْيَا إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، وَعَلَى هَذَيْنِ الأَمْرَيْنِ جَاءَ غَالِبُ الآيِ المَكِّيَّةِ، فَقَلَّمَا نَرَى سُورَةً مِنْ سُوَرِ مَكَّةَ إِلَّا مَشْحُونَةً بِالِاسْتِدْلَالِ عَلَيْهِمَا وَتَوْبِيخِ مَنْ تَرَكَهُمَا.

وَكُلُّ ذَلِكَ بِأَسَالِيبَ تَأْخُذُ بِالعَقْلِ، وَبَرَاهِينَ لَا تَحْتَاجُ لِفَلْسَفَةِ الَّذِينَ يُشْغِلُونَ أَنْفُسَهُمْ بِمَا لَا طَائِلَ تَحْتَهُ مِمَّا يُضَيِّعُ الوَقْتَ سُدًى.

وَنَزَلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِمَكَّةَ مِنَ القُرْآنِ مُعْظَمُهُ، وَهُوَ مَا عَدَا ثَلَاثًا وَعِشْرِينَ سُورَةً مِنْهُ، وَهِيَ: البَقَرَةُ، وَآلُ عِمْرَانَ، وَالنِّسَاءُ، وَالمَائِدَةُ، وَالأَنْفَالُ، وَالتَّوْبَةُ، وَالحَجُّ، وَالنُّورُ، وَالأَحْزَابُ، وَالقِتَالُ، وَالفَتْحُ، وَالحُجُرَاتُ، وَالحَدِيدُ، وَالمُجَادَلَةُ، وَالحَشْرُ، وَالمُمْتَحِنَةُ، وَالصَّفُّ، وَالجُمُعَةُ، وَالمُنَافِقُونَ، وَالتَّغَابُنُ،

وَالطَّلَاقُ، وَالتَّحْرِيمُ، وَالنَّصْرُ، هَذِهِ كُلُّهَا مَدَنِيَّةٌ، وَبَاقِي القُرْآنِ مَكِّيٌّ[١].

وَلَمَّا نَزَلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِقُبَاءَ، نَزَلَ عَلَى شَيْخِ بَنِي عَمْرٍو كُلْثُومِ بْنِ الهِدْمِ، وَكَانَ يَجْلِسُ لِلنَّاسِ وَيَتَحَدَّثُ لَهُمْ فِي بَيْتِ سَعْدِ بْنِ خَيْثَمَةَ؛ لِأَنَّهُ كَانَ عَزَبًا، وَنَزَلَ أَبُو بَكْرٍ بِالسُّنْحِ (مَحَلَّةٌ بِالمَدِينَةِ) عَلَى خَارِجَةَ بْنِ زَيْدٍ مِنْ بَنِي حَارِثٍ مِنَ الخَزْرَجِ.

مَسْجِدُ قُبَاءَ:

وَأَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِقُبَاءَ لَيَالِيَ، أَسَّسَ فِيهَا مَسْجِدَ قُبَاءَ الَّذِي وَصَفَهُ اللهُ بِأَنَّهُ مَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ[٢]،..............................

---

[١] الصَّحيح أنَّ القرآنَ إمَّا مَكيٌّ وإمَّا مدنِيٌّ، فَما كَان قبْلَ الهِجْرة فهُو مكِّيٌّ، ومَا كان بعْدَها فهُو مدَنِيٌّ، ولَيْس هُناك سورَةٌ فِيها مكِّيٌّ ومدَنِيٌّ، ومَا يُذْكر في بعضِ المصَاحف من أنَّ السُّورَة مكيَّةٌ إلا آيَة كَذا وكذا، أوْ مدَنِيَّة إلا آيَة كَذا وكَذا، فلَيْس صَحيحًا، بَل الصحيحُ أنَّ السُّور المكيَّة كلُّها مكيَّةٌ بدون استثناءٍ، والسُّور المدنِيَّة كلُّها مدنيَّة بدُون استثناءٍ، إلَّا إذا قامَ دَليلٌ صحِيحٌ صرِيحٌ، فحينئذ يجِبُ الأخْذُ بِه، لكنْ لم يقُم دليلٌ على أنَّ بعضَ الآياتِ مدنيَّةٌ في سُورٍ مكيَّةٍ، أو بالعَكْس.

[٢] قالَ تعَالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ [التوبة:١٠٨]، بعْضُ العلماءِ يقُول: المرادُ بذَلك المسجدُ النَّبويُّ، وبعْضُهم يقولُ: مسجِدُ قُباءَ، والصَّحيحُ أنَّ الآيَةَ شامِلَة لهُما جميعًا؛ لأنَّ النبي -صلَّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِه وسلَّم- نَزل قُباءَ نحْو خَمْسَ عشَرَةَ ليلةٍ، وأسَّس المسجِد، ولَمَّا وصلَ المدِينَة أوَّل مشروعٍ فعلَه

وَصَلَّى فِيهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرِينَ، وَهُمْ آمِنُونَ مُطْمَئِنُّونَ، وَكَانَتِ المَسَاجِدُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ فِي غَايَةٍ مِنَ البَسَاطَةِ، لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ مِمَّا اعْتَادَهُ بُنَاةُ المَسَاجِدِ فِي القُرُونِ الأَخِيرَةِ؛ لِأَنَّ الرَّسُولَ وَأَصْحَابَهُ لَمْ يَكُنْ جُلُّ هَمِّهِمْ إِلَّا مُنْصَرِفًا لِتَزْيِينِ القُلُوبِ وَتَنْظِيفِهَا مِنْ حَظِّ الشَّيْطَانِ، فَكَانَ سُورُ المَسْجِدِ لَا يَتَجَاوَزُ القَامَةَ، وَفَوْقَهُ مِظَلَّةٌ يَتَّقِي بِهَا حَرَّ الشَّمْسِ.

الوُصُولُ إِلَى المَدِينَةِ:

ثُمَّ تَحَوَّلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَى المَدِينَةِ وَالأَنْصَارُ مُحِيطُونَ بِهِ مُتَقَلِّدِي سُيُوفَهُمْ، وَهُنَا حَدِّثْ وَلَا حَرَجَ عَنْ سُرُورِ أَهْلِ المَدِينَةِ، فَكَانَ يَوْمُ تَحَوُّلِهِ إِلَيْهِمْ يَوْمًا سَعِيدًا، لَمْ يُرَوْا فَرِحِينَ بِشَيْءٍ فَرَحَهُمْ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ[١].

= أنْ أسَّس المسجِدَ النبويَّ، فكانَ مؤسَّسًا مِن أوَّل يومٍ، ومعلومٌ أنَّه إذا كانَ مسجِدُ قُباءَ قَد أسِّس على التَّقوَى فالمسجِدُ النبويُّ مِن بابِ أوْلَى، وهُو داخِلٌ في لفظِ الآيةِ، هَذا هُو الصَّواب، فتكُون الأوَّلية هُنا نسبيَّة.

[١] قال أنَس: لمَّا قدِم النبيُّ ﷺ أضاءَ منْها (أي المدينةِ) كلُّ شيءٍ، ولمَّا ماتَ أظْلم منْهَا كلُّ شيءٍ(١)، والمرادُ الإضاءَة المعنويَّة والظُّلمة المعنويَّة، وهَذا صحِيحٌ، فقد كانَ شوقُ أهل المدينة للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا يُعادِلُه شيءٌ، فإذا جاءَ إلَيْهم ورَكِب النَّاقة احتَفَى بِه الرِّجالُ والصِّبيان، فَرِحين بِه، وسيوفُهم معَهم كأنَّهم يقُولونَ بلِسان الحالِ: نحْن مسْتعدُّون للجهاد معَك وللقِتَال دُونَك، اللَّهُم اجعلْنَا معَهم في جنَّات النَّعيم.

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٢٢١، رقم ١٣٣١٢)، والترمذي: كتاب المناقب، باب [سلوا الله له الوسيلة]، رقم (٣٦١٨)، وابن ماجه: كتاب الجنائز، باب ذكر وفاته ﷺ، رقم (١٦٣١).

وَخَرَجَ النِّسَاءُ وَالصِّبْيَانُ وَالوَلَائِدُ يَقُولُونَ:

طَلَعَ البَدْرُ عَلَيْنَا مِنْ ثَنِيَّاتِ الوَدَاعِ

وَجَبَ الشُّكْرُ عَلَيْنَا مَا دَعَا للهِ دَاعِ

أَيُّهَا المَبْعُوثُ فِينَا جِئْتَ بِالأَمْرِ المُطَاعِ[1]

وَكَانَ النَّاسُ يَسِيرُونَ وَرَاءَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا بَيْنَ مَاشٍ وَرَاكِبٍ يَتَنَازَعُونَ زِمَامَ نَاقَتِهِ، كُلٌّ يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ نَزِيلَهُ.

---

[١] نظَر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هَذه الأَبْيَات، وقالَ: إنَّها ليْسَت في مقْدِم الرَّسولِ ﷺ في الهِجْرة، ولكِنَّها كانَت لمَّا رَجع مِن غزوَة تَبوكَ، وقالَ: إنَّ (ثنيَّات الوَداع) لا تُصادِف مَن جاءَ مِن مكَّة إلى المدينَةِ، وإنَّما تُصادِف مَن جاء مِن الشَّمال(١)، فنَقُول: لكنَّه لَو ثبَت ثُبوتًا حَسب شُروط الحدِيثِ الصَّحيح أنَّهم قالوا هَذه الأَبْيَات في مقْدِم الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إِلى المدينَة مُهاجِرًا؛ لَمْ يمْنَع أنْ يكونُوا قالُوها مرَّتَين: مرَّة في هَذا، ومرَّة في هَذا(٢).



---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ٤٨٢).

(٢) إلى هنا انتهت وقائع الدروس المسجلة صوتيًا في التعليق على هذا الكتاب.

فهرس الأحاديث والآثار

الحديث **الصفحة**



فهرس الفوائد

الفائدة **الصفحة**



فهرس الموضوعات

الموضوع **الصفحة**